منير كيال

دمشق ياسمينة التاريخ

مَشَاهِدُ مِنْ عَرَاقَتِهَا وَصُوَرٌ مِنْ أَفَانِينِهَا وَمَأْثُورِهَا

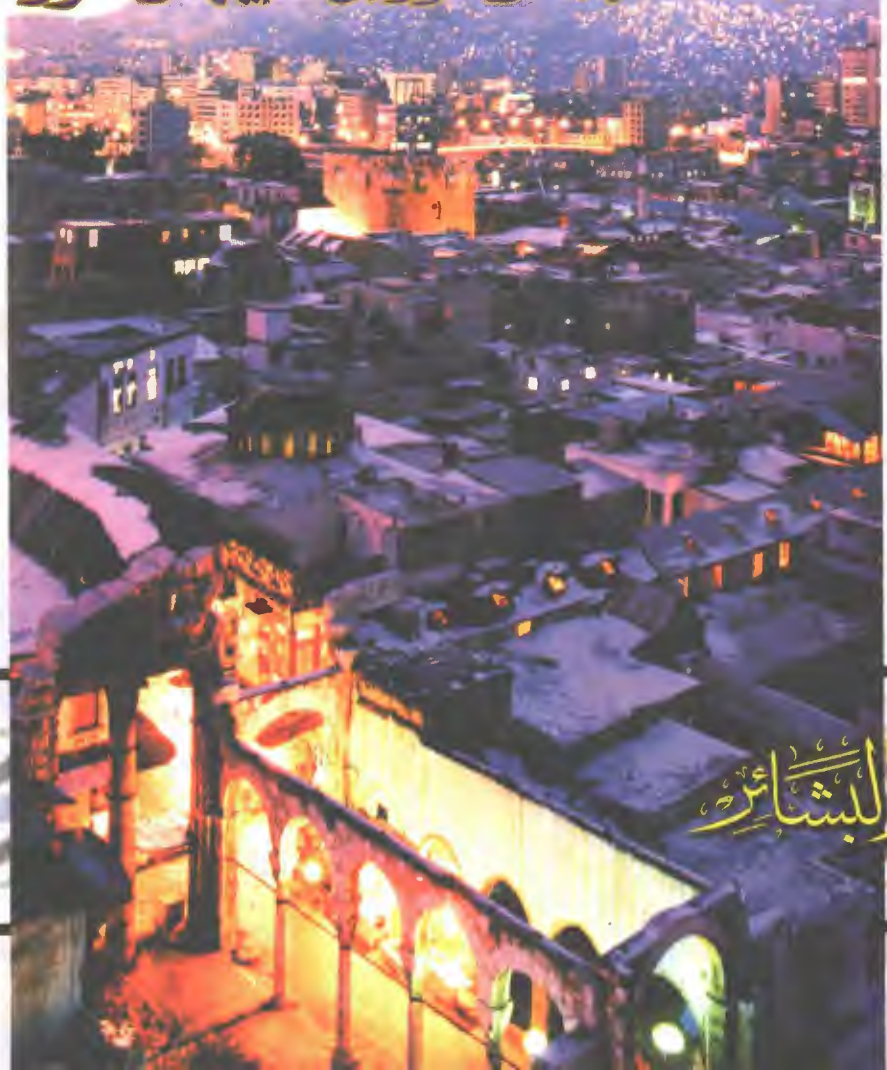

دار البشائر

Mounir Kayyal

Damas
Scèes et images

دار البشائر
دمشق - ص.ب ٤٩٢٦ - هاتف ٢٢١٦٦٦٨ - ٢٢١٦٦٦٩ - فاكس ٢٢١٦٦٨٦
e-mail:riwaassaf@lycos.com

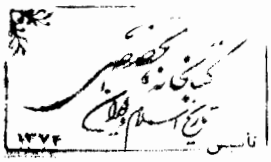

دمشق یاسمینة التاریخ

مشاهد من عراقتها، وصور من أفانینها ومأثورها

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان : دمشق ياسمينة التاريخ
تأليف : منير كيال
عدد الصفحات : ٢٧٢ صفحة
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة
الغلاف والإخراج : المؤلف

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار لا تعني بالضرورة تَبَنّي الأفكار الواردة فيها ؛ وهي تُعَبِّر عن آراء واجتهادات أصحابها .

حُقُوق الطَّبْع مَحفُوظَة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من:

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - شارع ٢٩ أيار - جادة كرجية حداد
هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ - ٢٣١٦٦٦٩
ص. ب ٤٩٢٦ سورية - فاكس ٢٣١٦١٩٦

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

منير كيال

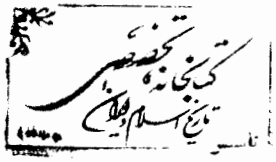

دمشق ياسمينة التاريخ

مشاهد من عراقتها، وصور من أفانينها ومأثورها

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع
2004

الإهداء

إلى من علمني حرفاً

وأنار لي دربا ...

منير

***

هــذي دمشــقُ، وهــذي الكــأس والــراحُ

إنـــي أحـــبُّ وبعـــض الحـــب دبّـــاحُ

أنـــا الدمشـــقيُّ، لـــو شـــرّحتم جَسَـــدي

لســـــالَ مـــــنه، عناقـــــيد وتفّـــــاح

ولـــو فتحـــتم شَـــراييني بِمديَـــتِكُم

ســـمعتم فـــي دمـــي ، أصـــوات مـــن راحـــوا

زراعـــة القلـــب تُشـــفي بعـــضَ مـــن عَشِقوا

ومـــــا لقلبـــــي إذا أحببـــــتُ ، جـــــرّاحُ

هُـــنا جـــذوري. هـــنا قلبـــي. هـــنا لغتـــي

فكـــيفَ أوضِـــح؟ هـــل فـــي العِشْـــقِ إيضـــاح

من روائع نزار قباني

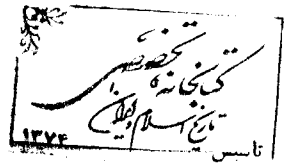

بين يدي الكتاب

حيــن شــرعت في كتابة الأبحاث التي أضعها بين يديّ القارئ الكريم، لم يكــن يدور في خلدي، إصدارها في كتاب... كان أكبر حافز لي أن أكون على صــلة أوثق، بالبيئة التي أعيش مكنوناتها، و أتمثّل مضامينها، في إطار المقولة واللحــن والإيقاع والحرفة والتشكيل، وبكلّ ما صدر أو يصدر عن الناس الذين عايشــتهم، وعايشــهم من سبقني وسبقهم..ممّن يجري في عروقهم نسغ الأطر التــي كانت تحكم أبناء دمشق، وتمثلهم للحياة، وحبهّم للأرض وما عليها.. إلى آخــر مــا هــنالك مــن المعايير التي تشكل السّمات المميّزة للمجتمع في هذه المدينة...

وما لبثت الصورة أن أخذت أبعادها في رأسي، والرّغبة في الكتابة تجمح فــي خاطري ... وإذا بدمشق أمّ الياسمين، تطلّ من نافذة التاريخ، ومن جذور الوجــدان الجمعــي... بيــن دفتيّ هذا الكتاب، لتصافح القارئ بمشاهد تنبع من جذور التاريخ، وتزهو في إهاب من الأصالة. وأفانين من الإبداع والزخرف لا يماثله أي إبداع أو زخرف...

كان أملي أن يرسم هذا الكتاب بالحرف تلك المشاهد، ويصوّر بالروّي تلك الأفانيــن، ويجعل القاصي والداني يعيش عبق دمشق، وما فيها من مآثر تزهو بها على التاريخ...

ولــم أكــن معنياً في كل ذلك، وفي أيّ من أبحاث هذا الكتاب... بالإشادة بالأشــخاص، سواء أكانوا من الخلفاء أم الملوك والقادة... بقدر ما كنت مهتمّاً بالذيــن كانوا وراء هذه الأعمال، أولئك الجنود المجهولين الذين سطروا بأيدهم البارعة، وأفكارهم النيّرة، ومهاراتهم الأصيلة، أنصَع صفحات تاريخنا، وشادوا أروع أوابــد هــذا التاريخ... يحدوهم في ذلك، الإسهام في إعمار مدينتهم، أقدم

مديـــنة مأهولة في التاريخ. وإذا كان من العسير، معرفة هوّية هؤلاء الرجال، فإن بصماتهم خير شاهد على وفائهم لدمشق.

وقـــد آثـــرت فـــي كتابي هذا، أن تكون المواضيع، في حدود تسمح للمرء بالإحاطـــة بالموضـــوع بشكل جامع، وبلا ابتسار أو تطويل... فكانت مباحث الكتاب في ثلاثة أبواب، تضم ثلاثة عشرة فصلاً، خمسة فصول منها في الباب الأول، وأربعة فصول بكلّ من البابين الثاني والثالث.

تناولـــت فصـــول الباب الأول ما يتعلّق بالأرض والإنسان، ودور الإنسان فـــاعلاً ومـــنفعلاً بالبيـــئة التـــي يعيش. فهو يساير مجرى النهر من المنبع إلى المصـــبّ، لكـــنه عمل على تطويع النهر وجعله ملبيّاً لحاجاته من الماء، فاشتقّ الفـــروع (الأقنية) عبر انفاق في لحف الجبل، وساق مياه القنوات المشتقّة إلى مناســـيب توفـــر الماء إلى المناطق المراد مدّها بتلك المياه، وإرواء الأراضي التابعة لها.

وخصّ مياه قناتيّ بانياس وقنوات بمدينة دمشق ومرافقها العامة من مساجد وحمامـــات وســـبلان.. وقد رافقت في هذا الكتاب مسيرة كل من هذه القنوات المشـــتقّة، عبر تفرّعاتها وماصيّاتها ومزّازاتها عبر خبرات الشاوي والفرضيّ، ولحظـــت كيف أن مياه قناتي بانياس وقنوات توزّع على الدور والمرافق العامّة عـــبر مـــا يُعرف بنظام الطوالع الذي يضمن حق المياه لكل دار أو مرفق دون زيادة أو نقصان.

وفـــي بحـــث الغوطة،آثرت تبيان دور هذه الغوطة، في حياة الناس ثماراً، ونعـــيماً مقـــيماً، متمثلاً عظمة الخلاق فيما خلق، من صور الغوطة التي يعجز عـــنها الوصف، ويكلُّ دونها القلم... الأمر الذي يفسر إعجاب العرب بالغوطة وبخاصة متنزّهاتها، سواء ما كان منها بالغوطة الشرقية أم الغربية منها.

أمـــا أعـــراس الغوطـــة في الربيع فكانت من الأسباب التي يؤجّج الحنين ذكـــراها فـــي كيانـــي وكيان أبناء جيلي، يوم كانت الغوطة مرابع طفولتي مع أندادي، في ثلاثينيّات القرن المنصرم، وكانت مفاتنها شلال حب لا ينضب.

الأمر الذي جعلني أتذكّر كلّ كبيرة وصغيرة عن الغوطة، وأعايش كل ذرّة ترابَ من أراضيها، ووفاء لتلك المفاتن أجدني أذكر سُبُل توزيع مياه نهر بردى بالغوطـــة، والعدانـــات المعمول بها، والعلاقة المتبادلة من الأخذ والعطاء بين

الغوطة ودمشق، وما يقدّمه كل منهما للآخر...

وفصلّت بفواكه الغوطة وثمارها، وبخاصة مشمشها الذي يفوق الوصف ويسيل له اللعاب... و ألمحت إلى أساليب الزراعة والغراس في الغوطة، من بستنة ودورة زرّاعية للأرض، مشيراً إلى امتداد الغوطة وما كانت عليه من قرى وأراضٍ أيام زمان، وما آلت إليه عندما امتدت إليها اليد الاثمة، بقطع أشجارها، وتلويث تربتها، وتشويش أفكار أبنائها القائمة على الاثرة والكرم ووفادة الضيف.

وبالانتقال إلى موضوع الأنواء في أمثالنا الشعبية، أتيت على استعراض خبرة الإنسان التي تمخّضت عنها مقولات الأمثال، التي تنتظم في أُطُرها أحوال المناخ والطقس وتقلّباتها على مدى أيام الحول، بالمربعانية والخمسينية وسعودها صيفاً وشتاءً، فضلاً عن اعتدالي الخريف والربيع... هذه الأمثال التي، تنصح و توجّه وتحضُّ على سلوك الإنسان، إزاء تصاريف تقلّبات الطقس يوماً بعد يوم بما يترتّب أو يتوجب على المرء نحو الأرض والزرع والضرع، مع التأكيد على أنّ الإنسان لم يتوصل إلى تلك المعارف إلاّ من خلال الملاحظة والتجريب وربط الأشياء بمدلولاتها، وبما يماثلها من أحوال.

وبالانتقال إلى بحث سور دمشق وأبراجها وأبوابها، فقد حاولت التركيز على دور الإنسان في ذلك منذ أيام الآراميين، ومروراً بالعهد اليوناني والروماني، حتى إذا كانت العهود الإسلامية، تناولت الموضوع بشيء من الإفاضة، وبخاصة ما كان منها خلال الفترة النورية والايوبية والمملوكية، مع التركيز على الدور العربي في إعمار السور وتطويره وصيانته، وفي بناء أبراج السور، وما طرأ على أبواب دمشق، وما استجد عليها، وعلى توظيفها وتدعيمها، ودور الباشورة والمسجد التي أحدثت عند كل باب في توفير الأمن والغذاء للناس.

أما الأسواق، فقد حاولت ربط نواة أسواق دمشق وتوزعها بتجمّع الحرف والكارات التي كانت بدمشق، مشيراً إلى الدور السلطوي والديني الذي كان لمشيخة الكارات، فضلاً عن دورها الحرفيّ... ومن ثم تطوّر هذا التوزع للأسواق، وتوضعها في إطار أسوار المدنية وأطرافها (محيطها) وبخاصة بعد زوال سيطرة مشيخة الكارات وتقلّص نفوذها الديني والسلطوي.. وصولاً إلى

تركـز أسـواق دمشق في سوق الحميدية وسوق مدحت باشا وسوق البزورية، وتفـرعات هـذه الأسـواق وامتداداتها.. ثم انطلاق هذه الأسواق إلى المناطق السكنية الحديثة لتخديم سكانها..

وأفـردت الفصـول الأربعة التي تنتظم الباب الثاني للجامع الأموي، بناء، وكسـوة وتزييـناً، مـع الإفاضـة فـي دور الأموي في حياة الناس الروحية والاجتماعية والعلمية، سواء ما كان منها تحت قبّة النسر أو حول أعمدة الحرم، أو الصـحن والمشـاهد والمـدارس والزوايا المطيفة بالجامع، فضلاً عن دور الجـامع فـي تعليم الصغار، وإسلوبهم في ذلك، حتى غدا الأموي أكبر مركز إشعاع علمي بالعالم في ذلك العصر.

وذلك بالإضافة إلى تقاليد المؤذنين وتراسلهم في الليل مع المساجد الكبرى بدمشق وأذان الجوقة في أوقات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأتيت على ذكر الألحان والأوزان التي تحكم المؤذنين والمردّدين وراء الامام في كل وقت مـن أوقات الصلاة. وميّزت في البناء بين الحرم والصحن، والأروقة والمآذن، والأبواب، مع تبيان عمارة كل من هذه الأقسام، وما كان لكلّ منها من التزيين، بالأعمدة والرخام المجزّع أو المشقّف، أو الخيط العربيّ، وما كان للجدران من رخـام وفسيفساء، مع إلمامة بتاريخ الفسيفساء، وباع العرب فيه، وعلى فضلهم فـي تطويـره وإغـنائه، وبالتالـي إبداعات الإنسان العربي، في هذا المجال، والمحـاولات التـي جـرت وتجري لإعادة الرونق الذي يضفيه الفسيفساء إلى الجامع.

أمّـا الكـوارث التي حلت بالأموي، من زلازل ضربت دمشق، أو حرائق ألمّـت بالجـامع، فقـد أفردت لها فصلاً خاصّاً، أوردت فيه الإصلاحات، التي كانـت بعـد كـل نازلة تحل بالأموي، وآخرها ما كان في عهد الرئيس حافظ الأسد.

وكان الباب الثالث الذي أفردته للبناء والعمران في دمشق، وقد تحدثت فيه عن قصور دمشق ودورها وحماماتها وخاناتها بشيء من الإفاضة والشرح. فقد شـهدت دمشـق أيـام العثمانييـن، بناء كثير من المساجد والمدارس والتكايا والقيسـاريات والخانـات فضلاً عن الحمامات.. وكانت العناية كبيرة بالقصور والـدور الفارهـة المـترفة، التـي يحاكي فيها الولاة، ومن يلوذ بالسلطة من

الموثرين..قصور ودور استانبول.

وقد تأثرت تلك الدور والقصور بحاجات صاحبها، وبالغرض الذي أنشئت من أجله..لذلك كان لابدّ من التمييز بين جناح الرجال، وجناح الحريم، فالرجال كان لهم (السلاملك) في القصور و(البراني) في الدور. وهو لاستقبال الوالي أو رب الأسرة، للناس والمعارف وأولي الأمر.

أمّـا جناح (الحرملك) في القصر، و (الجوّاني) في الدار، فهو مخصص للنسـاء، ولا يجـوز لأحد من الأغراب أن يعرف من بداخله أو يلحظهم.. وقد أتيـت بشـيء من التفصيل والإحاطة على كل من الجناحين، متخذاً من قصر أسـعد باشـا العظـم أنموذجاً للقصور الدمشقية التي حافظت على رونقها حتى أيامنا... وفصّلت إلى حدّ مقبول، بزخارف الغرف والقاعات، وبخاصة سقوفها، وحلقاتهـا الخشبيّة، وكذلك الحال فيما يتعلق بفناء الجواني. والليوان والأروقة، والبحرات والزخارف على الجدران وتيجان الأبواب.

وبالانتقال إلى موضوع الحمامات الدمشقية أوجزت الحديث عن الحمامات العامـة فـي سـورية فـي العهد الروماني، وحاولت الإفاضة في الحديث عن حمامـات دمشـق من ناحية أقسَام البراني والوسطاني والجواني وما فيه من مقاصـير وأجران ورخام وتزيينات وسبل إنارة كالقمريات، وتعرضت للعاملين في الحمام الدمشقي في فترة استحمام الرجال، وفترة استحمام النساء، ومناسبات الاسـتحمام عندهـن، وأساليب ذلك خلال الفترتين، بل وما يرافقها من صِلات اجتماعية ومرحٍ وحبور أيضاً، وبيّنت دور الإقميم في الحمام وفي تزويد دمشق برماد القصرملِ كملاط للبناء.

وكـان موضوع خانات دمشق خاتمة المطاف، وكان سبيلي إلى ذلك ذكر لمحة عن أهمية دور دمشق في التجارة العالمية في العصور القديمة والوسطى وحتمـيّة بـناء تلك المنازل، للتجارة والأمن، والاستجمام من وعثاء السفر في القوافل.

وكـان لابـد من التمييز بين ثلاثة أنماط من الخانات ،هي: خانات الطرق وخانـات مدينـة دمشق والخانات التي بأطراف سور دمشق وأرباضها... مع نماذج من هذه الأنماط...

وقد جاء هذا الكتاب نتيجة عمل ميداني وبحث تاريخي، تطلّب الغوص في بطــون أمهّــات كتب التاريخ، للوصول إلى ما انعقد عليه إجماع الدارسين، في كــل مقولة أو فكرة، وكان لمن سبقني في بعض المواضيع دور الريادة والدافع للعمــل الميداني للوقوف على كل صغيرة وكبيرة، يحدوني إلى ذلك الوفاء لهذه المدينة.. دمشق ياسمينة التاريخ وريحانة القلوب المحبة.

وعزائي إذا لم أبلغ القصد أن أحاول مرّة أخرى، عسى أن أكون قد وفيّت لدمشق، بعض مالها في خاطري...

وســتظلّ دمشق الشام شامخة شموخ تاريخها العريق، وسنظلّ نحن الذين نتفيّؤ ظلال غوطتها، وننهل من نمير برادها مدعويّن لسداد دين عظيم لها في الأعناق.

المؤلف

الباب الأول

الأرض والإنسان

- **دمشق هبة بردى.**
- **الغوطة رئة دمشق ونعيمها.**
- **الأنواء والزراعة في أمثالنا.**
- **أمثالنا الشعبية في الأنواء والزراعة.**
- **أسواق دمشق.**

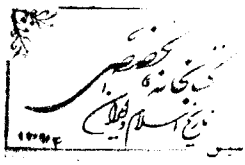

الفصل الأول
دمشق .. هِبة بردى

"ظل ظليل، وماء سلسبيل، ينساب انسياب الأراقم، بكل سبيل، ورياض يُحيي النفوس نسيمها العليل"

هــذا القول، لابن بطوطه يوم زار دمشق في أواسط القرن الثامن للهجرة، فــي طــريقه إلى الحجاز وفلسطين ومصر. فقد عدّ ابن بطوطة دمشق يومذاك جنّة المشرق وعروس المدن، لما تحلّت به من أزاهير ورياحين، وحلل سندسية من البساتين.

"لقــد سئمت أرض دمشق الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتناديك بها الصمّ الصَّــلاب: اركــض برجلك،هذا مغتسل بارد وشراب. لقد أحدقت البساتين بها إحــداق الهالــة بالقمر، وامتدت غوطتها الخضراء امتداد البصر، ولكل موضع يلحظــه المرء بجهاتها الأربعة، نضرته البالغة ، حتى قيل: إن كانت الجنة في الأرض، فدمشق لا شكّ فيها، وإن كانت في السماء فدمشق تحاذيها.."

شهادة ياقوت الحموي:

وقــال يــاقوت فــي مطلع القرن السابع للهجرة، عن مياه دمشق:«..ومن خصــائص دمشق التي لم أر في بلد مثلها، كثرة الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها: فقلّ أن تمرّ بحائط إلاّ والماء يخرج منه، في أنبوب إلى حوض، يُشرب مــنه ويستقي الوارد والصادر.. وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة، ولا خانقاها، إلاّ والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان.

دمشق الشعر والمشاعر:

لقــد تغــنّى الشعراء بدمشق وبرداها، منذ القِدم وأتى على ذكرها الكتّاب

والـــرحالة والمؤرخون، فعبروا عن مشاعرهم وانطباعاتهم، وعدّوا نظام الريّ فـــيها، عمـــلاً فريداً من نوعه، لا يماثله إلاّ نظام الري في الأندلس، على نهر الـــوادي الكبير، والوادي اليانع (كوادي يانا)، ذلك النظام للريّ الذي نقله العرب إلى الأندلس يوم أقام الأمويون دولتهم هناك.

شيء من الشعر لدمشق:

ولعـــلّ مـــن أقدم من ذكر دمشق وبرداها من الشعراء، الشاعر حسان بن ثابت الأنصاري، منذ نحو (1500)سنة في قصيدة يمتدح بها آل جفنة الغساسنة في قوله:

لله درّ عصـــــابة نادمـــــتهم ... يومـــاً (بجلّـــق) في الزمان الأوّل.

أولاد جفـــنة حـــول قـــبر أبيهم ... قـــبر ابـــن مارية المعمّ المخول.

يسقون من ورد (البريص) عليهم ... (بردى) يصفقّ بالرحيق السلسل.

ولشرف الدين بن عُنين:

دمشـــق بـــنا شوق إليها مبرّح ... وإن لـــجَّ واشٍ أو ألـــحَ عـــذول

بـــلاد بها الحصباء دُرٌ، وتُربُها ... عبـــير، وأنفـــاس الشَّمال شمول.

تسلســـل فيها ماؤها وهو مُطلقٌ ... وصـــحّ نسيم الروض وهو عليل

وأمير الشعراء شوقي:

وقال أمير الشعراء شوقي في دمشق، قصيدة عصماء نقتطف منها ما يلي:

قـــم ناج (جلّق) وانشد رسم من بانوا ... مشت على الرسم أحداث وأزمان

لـــولا دمشـــق مـــا كانت (طُليطلة) ... ولا زهـــت ببني العبّاس (بغدان)

آمنـــت بـــالله واســـتثنيت جنّـــته ... دمشـــق روح وجـــنّات وريحـــان

قـــال الـــرفاق وقـــد هبّـــت خمائلها ... الأرض دار لهـــا (الفيحاء) بستان

جـــرى وصـــفّق يلقانـــا بها (بردى) ... كمـــا تلقّاك دونِ الخلد (رضوان)

والحـــور في(دمّر)أو حول (هامتها) ... حـــور كواشف عن ساق وولدان

و(ربـــوة) الـــوادِ في جلباب راقصة الســـاق كاســـية والـــنّحر عريان

وقـــد صـــفا بـــردى للريح فابتردت لـــدى سُـــتور حواشـــيهن أفنان.

شدو فيروز:

وكـــان لقيتارة العرب في أيامنا، فيروز، ابداعاً، في دمشق وبرداها فحلّقت وشدت لدمشق ونهرها الخالد، عندما قدمت لنا:

قـــرأت مجدك في قلبي وفي الكتب، وسائليني يا شآم، وشام يا ذا السيف لم يغب، ومُرّ بي يا واعداً وعدا...

دمشق هبه بردى.

دمشـــق ونهر بردى، صنوان متلازمان، لا قيمة لأحدهما دون الآخر، فما قـــيمة نهـــر بـــردى إن لم تكن دمشق؟ وكيف تقوم دمشق لولا بردى؟ فدمشق والحـــال هـــذه هـــبة نهر بردى، ولولاه لكانت دمشق صحراء، إن لم تكن من الـــبادية.. شـــأنها في ذلك شأن مصر هبة النيل، ولولاه لكانت مصر صحراء بيداء...

فالنهر هو الذي يمد دمشق بالحياة، بما يحمله من الترياق، وهو الذي جعل لدمشق ذلك التاريخ الماجد العريق، والحضارة المتميزّة.. والنهر هو الذي جعل دمشق أقدم مدنية مأهولة في المعمورة..

وعـــندما يقلّ عطاء السماء للنهّر، وتنحبس المياه في حلق الغيوم، تنضب ينابـــيع الـــنهر الموزعة في واديه وسريره فتغُصّ تلك الينابيع، وينحبس الماء داخلهـــا. حتى يكاد الضرع أن يجفّ، والعود أن يتقصّف... فيحصد أهل دمشق هـــذه المأســـاة، ويعيش الناس حالة من الاستسقاء إلى الباري عز وجلّ، ليرفع عنهم ما هم فيه. من البلاء.

بردى العربيد:

فـــإذا بـــردى، يعاود العربدة في رحاب دمشق، يختال مزهوّاً في جنباتها ناشـــراً الرخاء في رحابها، حاملاً الترياق لزرعها وضرعها والاشراق والبسمة لابـــنائها..فـــيلقاه أهـــل دمشـــق بالـــترحاب والبسمة والشكر لله، وكأني بلسان

حالهم يقول:

الله يعمرك يا شام ... الله يديم النَّعم . الخير بيخيّر..

بــل وكأني بقول صديقي عدنان بغجاتي يوم أنشد في حفل تكريم أساتذتنا بمناسبة حصولنا على الشهادة الاعدادية سنة 1948. قصيدة مطلعها:

بــردى تغــنّى بالرحاب وفاخر واجعــل هديــرك مُســمعاً (للمشتري)

السّيران الدمشقي:

ويسارع الناس إلى ضفاف بردى، بالربوة، والمقسم والشادروان والغياض، يفترشــون أرض تلــك الضــفاف، ويعــتلون المساطب والتخوت المقامة في مقاصف، دمّر والهامة والجديدة وعين الخضراء وبسيّمة.. بسرور بالغ، ونشوة عارمة، ومحبّة وإيثار.

فيقضــون أوقاتاً، ممتعة بين أحضان الطبيعة، مع الماء الوفير، والخضرة الــيانعة، والهواء العليل.. وقد اتخذت كل جماعة، ناحية من المكان، حجبت فيه نفســها عــن عيون الحشريين بسواتر قماشية.. في سيران دمشقيّ قلّ أن يعيش المرء أهنأ منه « فأحسن دوا.. شَمّ الهوا» كما يقولون.

الجمــيع فــي هــذا السيران في شغل شاغل، هذه تُعدّ السلطة وتلك تقلي المقالي، من باذنجان وبطاطا وكوسا وزهرة، وهذا يُعدّ الشواء وذاك يوقد النار، بيــنما الأطفال يسرحون يجمعون قشاقيش الحطب والعيدان للوقود، وست الكل تتبّل اللحمة بالملح والبهار، ولا أحد غيرها، فالجميع يأكل من تحت ديّاتها...

الهرج والمرج في السيران:

علــى حيــن يــنفرد آخرون بقضاء أوقاتهم، بتدخين النارجيلة (الأركيلة) واللعــب بالورق (الشدة) أو البرجيس.. وبين عبارات الهبّ يك والشيش بيش، والجفاتي التي يتصايح بها لاعبو النرد، بعصبيّة أو شماتة، وهم يقرعون طاولة النرد بأحد حجارتها، وهم ينقلونه إلى مكان ما أتى عليه زهر اللعب..

كنــت ترى آخرون من الفتيان في عالم آخر من الهرج، في غناء وازجال وتبادل نكات وفقشات..وآخرون أيضاً يتحلقّون على إيقاع دبكة (رقصة) يوجد حركاتها طبل يرقع، وناي يشدو ويتجاوب مع خرير مياه النهر، المترقرقة تحت ظلال الأشجار..

حتى إذا جهز الطعام، يتحلقون حوله، بلا تكلّف، ويتناولون طعامهم بشهيّة وإيثار، ويتساكبون مع جيرانهم من السيرنجية، فتتلون سفرة الطعام وتنفتح القابلية.. وإن أنسى فلا أنسى صورة الواحدة والواحد منهم، وقد أعدّت اللقمة لنفسها فتشتهيها لجارتها، فتُلقمها أياها مرفقة بسيل من العبارات المحببّة.. إنّه شيء يهيّج الذكرى، ويحرّك الحنين إلى تلك الأيام.. سقى الله أيام زمان.. ورحم الله تلك الإلفة وذلك الإيثار..أما سيران القطار، فياله من متعة، فالقطار يتلّوى بين احضان الرياض تارة ويغفو تارة على زند ضفّة النهر يستقبل السيرنجية، لينطلق وئيداً بين جنبات النهر وربوع واديه، وحصباء الديماس. في رحلة من دمشق إلى الزبداني فسرغايا ...مروراً بالربوة، ودمر والهامة. وبسيّمة وعين الخضراء والتكيّة.. فيوصل كل جماعة إلى مقصدها، الذي تريد أن تتسيرن فيه.. والجميع في هناء، والوجود بهم لا يدانيه جمال أو بهاء.

من الحب ما قتل:

هذا الحب الأثير بين دمشق وبرداها، وذلك العطاء الذي يقدّمه النهر، قد لا يروي رغبته للمزيد من العطاء، فقد تأخذ بالنهر الحال، وهو في حالة من عربدته، فيشطح ويمعن في تدفقه، فتفيض مياهه على الضفاف، وتطغى على المحال والأسواق.. وتحدث الزودة..

وكم من مرّة ازدادت مياه النهر، فعجزت الأقنية عن التصريف، ونبعت المياه من بلاليع بيوت حيّ المهاجرين والصالحية. وشطرت المدنية عند بداية شارع بيروت إلى قسمين.. شمالي النهر وجنوبه كما حدث في أواخر العقد الرابع وأواخر العقد السادس من القرن العشرين..

يوم كانت وسيلة الانتقال بين زقاق الصخر وثانوية جودت الهاشمي بشمالي النهر، وبين التكيّة السليمانيّة و الجامعة.. على الأكتاف لا غير!! يوم نظم شاعر الحب والحنين إلى دمشق.. نزار قبّاني قصيدته خبز وخمر وحشيش!!...

حكاية بردى مع دمشق:

قصة نهر بردى مع دمشق، قديمة..قدم دمشق.. فالنهر كما رأينا سبب قيام المدينة، وسبب عمرانها. فضلاً عن هذا. فإن نهر بردى، يُعدّ من أهم أنهار الأحواض المغلقة (التي لا تصل مياهها إلى البحر) في سورية. يبلغ طوله نحو

(70)كـــم، وينبع من واد ضيّق بسفوح جبال لبنان الشرقية من ارتفاع (1100)م فـــوق سطح البحر. وما أن يسير في سهل الزبداني ويأخذ مياه نبع التكيّة..حتى يـــأخذ بالـــتغلغل بالصـــحراء، ويكاد يغيب لولا نبع الفيجة الفيّاض، الذي يعيد الحياة للنهر..

وما كان النهر ليتجاوز في مسيرته الشريط الضيّق من الخضرة، في وادي بـــردى، لولا قيام الإنسان، يحمل مياه النهر بعيداً عن مجراه..الأمر الذي يسّر اتســـاع عمران دمشق، ووفّر المياه اللازمة لري غوطتها. أمّا ماء النهر فيتجه إلـــى الشـــرق، حتى مصبّه في بحيرة العُتيبة على منسوب (600)م فوق سطح البحر.

لقـــد عمد الإنسان إلى تفريع النهر، من مواقع مرتفعة، قبل خانق الربوة، لجعـــل المـــياه قـــادرة علـــى الانسياب من تلك الفروع، لتلبية جميع احتياجات المدينـــة، ومـــرافقها العامّـــة، مـــن مساجد وحمامات. وسبلان.. وبالتالي ريّ غوطـــتها، حـــتى فـــي فصل التحاريق.. وقد تمّ ذلك بعد الأخذ بعين الاعتبار الوضع الطبوغرافي لمدينة دمشق وغوطتها. وحاجات الناس إلى تلك المياه..

فروع نهر بردى:

اشـــتقت قـــناتان (فرعان) عن الضفّة اليسرى للنهر، وقناتان أخريان عن ضفّته اليُمنى، وهي أقنية معلّقة على السفوح الجبلية المطلّة على مجرى النهر، مـــن جهتـــي الشـــمال والجنوب. (الضفة اليمنى واليسرى). فضلاً عن هذا،فقد اشـــتقت قـــناتان خاصّتان بمدينة دمشق، وهما: بانياس وقنوات. وتنفصلان عن نهـــر بردى عند الربوة، وقد حفرتا في السفح الشمالي لجبل المزّة، الذي يسقط عمودياً على الضفّة اليمنى لنهر بردى.

تقنيات اشتقاق الأقنية (الفروع):

حفـــرت الأقنـــية فـــي السفوح المطلّة على مجرى النهر، من جهتي الشمال (يســـار النهر) و الجنوب (يمين النهر)، وذلك بعمق (1.5)م وعرض(75)سم. أما العقبات التي اعترضت سبيل العمل، فقد اخترقت بأنفاق، تمتد بضع مئات الأمتار، ومعظمها يقع في أماكن تهوي سفوحها على الوادي بشكل رأسي، وذلك مع الأخذ بعيـــن الاعتبار الطبيعة الطبوغرافية، للمساحات المراد إسالة الماء إليها، من كل قناة... وللحيولة دون تداخل شبكة ريّ أيّ قناة مع شبكة قناة أخرى.

1ـ قناة يزيد:

اشـتقّت قناة يزيد، عن يسار مجرى النهر، في موقع جمريا قرب الهامة. وهـي تعود للعهد اليوناني أو الروماني، ثم استكمل وضعها في العهد الأموي، ومجـرى هذه القناة معلّق على سفح الجبل حتى وصولها إلى الربوة. وقد حُفر مجـرى قـناة يـزيد بالصخر. ويختفي ذلك المجرى عن الأنظار عند مروره بالأنفاق، كما هي الحال بين دمّر وموقع المنشار عند الربوة.

وبعـد خانق الربوة، تتبّع قناة يزيد، مجرى مرتفعاً في سفح قاسيون، مما يغطّـي أكـبر رقعة ممكنة من الأراضي التي تروى بمياه يزيد. وذلك بوساطة تفـرّعات (مـزّازات أو ماصّـات). فتسـقي بذلـك، منطقة النيربين، وأرض الصالحية والمهاجرين، وأبي جرش والشركسية، وركن الدين. ثم تتابع مياه قناة يـزيد سـيرها إلى القابون. فيتفرع قسم من مياه قناة يزيد ويذهب لريّ أراضي حرستا.

وقـد عمـد سـكان الدور التي أعلى من منسوب مياه هذه القناة، في حيّ الشـيخ محيى الدين، وركن الدين إلى رفع المياه بالنواعير، إلى تلك الدور. أو بحفر آبار تُوصل بأنفاق بمياه قناة يزيد.

2ـ قناة تورا:

تعود قناة تورا إلى أيام الآراميين، فهي أقدم من قناة يزيد. وقد اشتقّت عن يسـار نهر بردى، إلى الجنوب من دمّر، في موقع المقسم،عند مقصف القصر، وتشـترك مع قناة يزيد، في تقديم المياه للمناطق المتاخمة، للسفح الجنوبي لجبل قاسـيون: وتشـمل ريّ ما تبقّى من الصالحية، والمهاجرين والحواكير، وأبي رمّانـة والشـعلان، والجسـر الأبيض، وحيّ سوق ساروجا والعمارة، ومسجد الأُقصـاب، وشارع بغداد والديوانية والقصّاع والتجارة، فجوبر وعربين وعين تـرمة.. لتسـقي أراضي مديرة وحرستا ومسرابا ودوما.. ثم تتلاشى مياه قناة تورا عند بلدة عذراء (عدرا) بعد أن كانت متهالكة في بلدة دوما.

وكـان على قناة تورا تفرّعات (ماصّات) زاد عددها عن (200) ماصيّة. كانـت تـزوّد المـناطق التي تمرّ بها.. لكن هذه المواصيّ أخذت تتناقص مع انتشـار العمران بمدينة دمشق، نتيجة للاعتماد على مياه نبع الفيجة في الشرب والاستعمالات المنزلية.

3ً ـ قناة المزّاوي:

تُنسب هذه القناة، إلى (قرية) المزّة، وقد اشتقّت عن يمين مجرى نهر بردى قبيل دمّر. وتكون مكشوفة في أول الامر، ثم تختفي عن الأنظار، فلا يبدو منها سوى فتحات تطلّ عليها تعرف (بالضوّايات)، ولا تظهر مياه قناة المزاوي إلاّ قبيل الربوة عند مقهى (أم حسن) مقابل متنّزه أبو شفيق.

وبعد ذلك تعبر قناة المزاوي مجموعة من الأنفاق حتى حافّة المزّة، فترسم الحدّ الفاصل بين الأراضي المرويّة عن يسارها، والأراضي الجافة عن يمينها.

تروي قناة المزاوي، أراضي كفرسوسة، وباب سريجة والفحامة، وبعض أراضي حيّ الميدان.

4ً ـ قناة الداراني:

تنسب هذه القناة إلى أراضي بلدة (دار ريّة)، وتُشتقّ عن يمين مجرى النهر عند تقاطع الطريق العام مع السكّة الحديدية في موقع المقسم، عند مقصف القصر. وتجري مياهها أيضاً في قناة محفورة في الصخر.وتكون معلّقة على السفوح الجبلية، أو تختفي في انفاق حتى خانق الربوة. وهي تقترب في مسارها مع قناة المزاوي في أراضي المزّة.

وعند بلوغ قناة الداراني مقسم (التفلة) من أراضي المزّة، فإنها تنقسم إلى أربعة فروع، أو أقسام، منها ما يتجّه نحو طاحونة التوتة والبساتين التابعة لها. ومنها ما يتجّه إلى أراضي كفرسوسة، بعد أن يتفرع جانب من مياه هذا القسم إلى الفحامة... وثمّة قسم من مياه أحد هذه الفروع الأربعة يتجه نحو باب سريجة وحي الميدان.

5ً ـ قناة قنوات:

تُعدّ مياه قنوات مع مياه قناة بانياس، الشريان الرئيسي الذي كان يتولّى تزويد مدينة دمشق ومرافقها بالمياه اللازمة، قبل انتشار الاعتماد على مياه نبع الفيجة.

يعود اشتقاق قناة قنوات إلى العهد الروماني. فقد رفع الرومان مياه قنوات فوق قناطر لإسالة المياه، إلى أكثر أقسام مدينة دمشق ارتفاعاً، وذلك عبر ما يُعرف بالطالع. ثم طرأت تبدلات على تخديم مياه قنوات، خلال العهدين

المملوكي والعثماني..

أمـــا تفـــرّع مـــياه قـــنوات، فهو عين يمين مجرى نهر بردى، عند متنزه الشـــادروان. وكان مجرى القناة مكشوفاً أثناء سيره في المدينة، ولم يكن يختفي عن الأنظار وسط حي القنوات.

وكـــان قسماً من مياه قنوات يروي، بعض أراضي كفرسوسة والقدم وباب سريجة، وقبر عاتكة، وباب مصلّى والميدان.

والقســـم الآخـــر: يتجّه نحو محطّة الحجاز فالمولويّة، فجامع تنكز، وحيّ القـــنوات حيـــث تتوزع مياه هذا القسم على الدور بوساطة (91) طالعاً، تؤمّن المياه لدور هذا الحيّ ومرافقه العامة من مساجد وحمامات وسبلان..

6ً ـ قناة بانياس:

وهـــي تـــتفرّع أيضـــاً عـــن الجهة اليمنى لنهر بردى، بُعيد خانق الربوة، فمســـتوى مـــياه قناة بانياس، والحال هذه، أخفض من مستوى مياه قناة قنوات، وهـــذا بالطبع، سينعكس على توزيع مياه هاتين القناتين على دور مدينة دمشق كما سنرى..

فمـــياه قـــناة بانياس تساير الحافّات الجبلية، التي تُطلّ على جبل المزّة، ثم تـــنحدر هـــذه المـــياه إلى أسفل مبنى جامعة دمشق القديم، ثم إلى جنوبي تكيّة الســـلطان ســـليم، وجنوبيّ محطّة الحجاز، في قناة جوفية.. ثم تتفرع عن القناة فروع تسقي جامع المولوية وجامع تنكز فسراي الحكومة القديم.. ثم تتابع السير إلـــى الســـنجقدار، حيث يتوزّع ما تبقّى من المياه بقناة بانياس في فروع وأقسام منها: موزّع يأخذ المياه إلى سوق الحميدية، والعصرونية، والمساجد والمدارس والحمامات التي فيها.. والفائض من هذه المياه، يتوجه إلى باب توما.

وموزّع آخر يأخذ مياهه، إلى ما تبقى من العصرونية، وباب البريد، وسبع طوالـــع. والنقاشات.. والأموي، والنوفرة والقيمرية.. والفائض منها، يتوجه إلى باب توما أيضاً.

أمـــا مـــا تـــبقى من مياه بانياس، فيتوجّه نحو حي الشاغور، مارّاً بسيدي عامود(الحريقة). وباب الصغير والميدان، وبساتين الشاغور.. حاملاً معه جانباً من نفايات المدينة بما يُعرف بنهر (قليط).

كيف كانت تشرب دمشق:

تغلغلت مياه قنوات وبانياس، في أزقة دمشق وحاراتها ودورها، ومرافقها العامة الأخرى، في شبكات من الأقنية بالغة الإبداع والدقّة والتنظيم، حتى لكأنّ تحت أرض مدينة دمشق، مدينة أخرى من متصرّفات المياه والجداول والمسارب، تتماشى مع الطبيعة الطبوغرافية للمدينة.. مما يشكل شبكة فريدة، في وقت لم تكن تتوفر فيه القساطل الكاسرة (المقاومة) للضغط، ولا وسائل التحويل والتكسير للضغط المعروفة في أيامنا.. وذلك بالاعتماد على ما يُعرف بالطالع ككاسر للضغط...

وإذا كانت المياه التي تتطلبها حياة المدينة، يجب أن تكون في حالة دائمة من النقاء والنظافة، فقد حرص الإنسان أن تجري مياه المدينة في قنوات بعيدة عن التلوّث.

فشبكة التوزيع والحال هذه تتكوّن من ثلاثة عناصر: وهي :

مأخذ المياه المتفرعة، والقساطل، ثم الطالع.

1 ـ مأخذ المياه:

فمأخذ المياه من مجرى النهر، هو عبارة عن فتحة أو ثقب دائريّ، في حجر بازلتي، مثبّت عند نقطة الاشتقاق من النهر، ويحدّد هذا الثقب كمية المياه المراد إسالتها فيه، عبر قناة من القساطل المؤدّية إلى الطالع..

2 ـ القساطل:

يشكل القسطل العنصر الثاني في شبكة التوزيع، وهو اسطوانيّ، ويصنع من غضارٍ نقي، يُعجن ويُخمرّ، ثم يوضع في قوالب خاصة، وبعد أن يجف، يُشوى في فرنٍ خاص.

والقساطل على قياسات وأنواع منها:

«**الزمر**: وهو أصغرها، ثم **الشركسي** وهو أكبر، ثم **الإيراني**».

ومن هذه القياسات:

«**السبيلي والمحيّر والزنجاري** وهو أكبرها»

ومهما تعدّد قياس القسطل وتنّوع قياس قطره، يكون في أحد طرفيه (أكرة) يُدخل فيها القسطل الآخر عند التركيب.

ويتراوح طول القسطل بين (30-35)سم، وقطره من (15-20)سم.

الشاوي:

أما تركيب القساطل، أو بناؤها، فهو من اختصاص الشاوي الذي يحفر خندقاً يفرشه بالآجّر والملاط المكوّن من القصرملّ (وهو رماد روث الحيوانات الذي كان يستخدم كوقود للحمام) ومن الغضار النقيّ مع نسبة من لبن الكلس، ثم تصفّ القساطل، فيُدخل طرف القسطل الضيّق في النهاية الأوسع للقسطل الآخر (الاكرة)، ويُلحم على تلك القساطل باللاوونة (وهي ما عُمل من لبن الكلس مع مثل وزنه من زيت الزيتون، وكميّة من القطن المندوف فيُعجن ذلك الخليط ويُعرك ويُدقّ، حتى يتشابك كليّاً ويتجانس).

توضع تلك اللاوونة في مكان تداخل القسطلين، فتمنع تسرّب الماء... ثم يغطي الشاوي بالملاط تلك القساطل، ويختم عليها بالآجرّ.

فالشاوي والحال هذه، يعرف وحده في منطقته، مخططات توزيع القساطل واتجاهاتها، ويشرف على القنوات والطوالع، ويتعهدها بالصيانة والنظافة من الأوساخ.. فضلاً عن ذلك، فإن الشاوي يسهر على إيصال المياه إلى أصحابها ويحول دون العبث بها. لذلك فإنّه يحتفظ بمفتاح الطالع ولا يعهد به لأحد.

3 ـ الطالع:

العنصر الثالث في شبكة التوزيع هو الطالع ويتألف من قسمين: الأول بناء الطالع. والثاني موزع الماء في الطالع.

بناء الطالع:

إن طول (ارتفاع) بناء الطالع وعرضه، يتناسب مع عدد تفرّعات الموزّع بالطالع. وهذا الطالع قد يكون ضمن الجدار أو بارزاً أمامه، وفي كلتا الحالتين، يكون ارتفاع بناء الطالع بحسب منسوب مياه القناة التي تغذّي موزّع الطالع بالماء. وبالتالي وفقاً للوضع الطبوغرافي لوضع بناء الطالع ...

فمن الطوالع ما يكون ارتفاعه نحو مترين فوق الأرض، كما هي الحال في الطوالع التي تتغذّى من المآخذ المتفرعة عن قنوات، ومن الطوالع ما يكون ارتفاعها نصف متر، وهي الطوالع التي تتغذّى من بانياس.. وهذا يفسّر انخفاض الدور التي تتغذى من بانياس عن الطريق العام بنحو (1)م. حتى يتوفر لها الضغط اللازم للماء الذي يموّن تلك الدور، وفق مبدأ توازن السوائل.

موزّع الماء بالطالع:

أمـــا موزّع الماء بالطالع، فهو قطعة رباعيّة من جحر البازلت منحوت بها تجويـــف عمقه من (10-15)سم، على شكل بحرة في وسطها فوهة قطرها من (5-10)سم يطلقون عليها اسم الإمّاية. لأنها مصدر الماء الوحيد للطالع. وعلى أطـــراف ذلـــك الـــتجويف(عتـــبات) مـــنحوتة بعمق واحد، أمّا عرض العتبة (اتســـاعها) فيحدّده الفرضيّ، لعلمه بمقادير حقوق المياه في ذلك الطالع. ويكون عمـــل الفرضي، على درجة كبيرة من الدقة والحرص والأمانة. وعلى هذا فإن عـــرض فتحة العتبة يكبر أو يصغر بحسب كميّة الماء المراد أخذها من المياه التي ترد من الإمّاية.

ماذا بقي من مياه بردى...:

لعـــلّ أحدنا يتساءل،ماذا بقي من مياه نهر بردى، بعد ما أخذته فروعه من المياه؟

الواقـــع أن نهـــر بـــردى، يســـتعيد جانباً كبيراً من المياه التي أخذتها تلك الفروع، ذلك أنّ المياه الفائضة عن المناطق أو الأراضي المخصصة لكل فرع، تعـــود لـــنهر بـــردى وهذا يفسّر، عدم السماح بتعلية ضفاف القنوات (الفروع) المتفرّعة عن النهر الأصلي، لئلا تحول دون عودة المياه الفائضة.

وبذلك يستعيد نهر بردى نشاطه، ويسمح بتشكيل مجموعة ثانية من الأقنية المتفرعة عنه.

شبكة قنوات أخرى تتفرّع عن بردى:

ومـــا أن يستعيد نهر بردى نشاطه، حتى تتفرّع عنه ثلاثة أقنية أو أنهار أخرى هي : العقرباني والمليحي والداعياني.

1 ـ قناة العقرباني:

تنسب قناة العقرباني إلى قرية (عقربا) بالغوطة الشرقية، وتتفرّع عن نهر بـــردى فـــي ساحة الشهداء (المرجة)، وتسير موازية لنهر بردى باتجاه الشرق مكوّنة خندقاً لقلعة دمشق من ناحية الشمال، ثم تتجه (حاملة بعضاً من فضلات دمشـــق) إلـــى باب الفرج بالمناخلية، وبين السوّرين، والعمارة، وباب السلام..

وبعـــد ذلك تساير سور دمشق، وجامع الشيخ أرسلان الدمشقي.. ثم إلى أراضي الغوطة الشرقية...

2 ـ قناة الداعياني:

تنسب إلى قرية (داعية) المندثرة، والتي تُعدّ أراضيها اليوم ضمن أراضي (حموريـــة). وهي تتفرع عن نهر بردى، قرب باب السلام، وتخرج من دمشق عند الصوفانيّة، (الصفوانية) وبعد قليل ينضمّ إلى قناة الداعياني، قسم آخر من مياه نهر بردى، فتصبح مياه الدعياني، أكثر أنهار الغوطة تصريفاً..

وبعد سدّ (طاحونة العبد)، يعود قسم من مياه الداعياني إلى نهر بردى، وما تبقى من مياه الداعياني، يصير إلى أراضي منطقة : الزور بالغوطة..

3 ـ قناة المليحي:

وتنسب إلى قرية المَلْيَحةْ بالغوطة الشرقية، وتُشتقّ مياه هذه القناة عن نهر بـــردى، بالقـــرب من طاحونة (الاحدى عشرية)، قرب الباب الشرقي لدمشق، ومـــن ثـــمّ تتجه هذه المياه، إلى أرض الزور بالغوطة الشرقية .. لتتوزّع على أراضيها الزراعية.

وهكـــذا فـــإن الأفنـــية و السواقي والمزّازات، تتفرع عن الأقنية (الأنهار) المشـــتقّة عن نهر بردى، لتقديم المياه اللازمة لكل حارة ومنزل ومسجد وحمام وسبيل في دمشق... بل لكل قطعة أرض وذرّة تراب في الغوطة..

ولكـــل من هذه المرافق والأراضي، مأخذ ماء دائم الامداد في المدينة.أمّا أراضـــي الغوطـــة فـــإنّ إمدادهـــا بالمياه اللاّزمة للزراعة، يكون وفق (عِدّان) متعارف عليه بالساعة والدقيقة، منذ أجيال وأجيال..

عِدَّانات المياه في الغوطة:

العِدّان هو نظام سقاية زمني، يتحدّد بالساعات والدقائق، ويكون متوافقاً مع حقّ كلّ قطعة أرض من المياه.

ويعدُّ هذا النظام، من أقدم وأدقّ أنظمة الماء عبر التاريخ، وهو متمّم لنظام تموين مدينة دمشق بالمياه. ولذلك فإن الممكن القول: إنّه ما من قطرة ماء تسيل فـــي نهـــر بردى وفروعه، إلاّ وتستخدم في تغذية الدور والمرافق العامة، من مساجد وحمامات وسبلان بمدينة دمشق.. وفي ريّ أراضي الغوطة.

وذلـــك وفـــق نسب ثابتة من المياه التي تجري عبر الأقنية، إلى أصحاب الحقوق، بشكل لا يدع المجال لعابث أو مستغلّ.. وذلك وفق أعراف تشكل أحد العوامل الأساسية في حياة دمشق وغوطتها.

ولهـــذه الأعـــراف قـــوة، تُفرض على الجميع، وهي غير قابلة للتعديل أو التغيير لتوارثها منذ أجيال.

وقـــد وضعت قواعد لصيانة مجاري المياه في الغوطة بشكل دائم متنظم، بمـــا فـــي ذلك كري القنوات (الأنهارِ) المتفرعة عن نهر بردى، وتكاليف ذلك توزّع على أصحاب حقوق الماء.. كلٌ حسب ما يصيب من الماء.

❐

ثبت المصادر والأبحاث:

1-ابن جبير: الرحلة ، دار التراث، بيروت1968م.

2- ابـــن عســـاكر: تـــاريخ دمشـــق، المجلّـــدة، الثانية.ت:د.صلاح الدين المنجّد. المجمع العلمي العربي،دمشق:1954.م.

3- القاســـمي والعظـــم: قـــاموس الصناعات الشامية،ت.د.ظافر القاسمي.ط(1)دار طلاس. دمشق: 1988م.

4- ايكوشار ولوكور: حمامات دمشق ت.ممدوح الزركلي ونذيه الكواكبي.

5- رضا مرتضى: تطور المياه في دمشق، عدد خاص من مجلة العمران، عن مدينة دمشق.

6- ســـلوى دهمان: تموين مدينة دمشق بالمياه، رسالة جامعية لنيل درجة الإجازة في الجغرافية من الجامعة السورية سنة 1958، وهو بحث غير مطبوع.

7- صفوح خير: مدينة دمشق. وزارة الثقافة. دمشق 1980م.

8- محمد شفيق الصفدي: نهر بردى شريان واحة دمشق بين الماضي والحاضر. محاضرة بالنادي العربي بدمشق سنة 1978م .

9- محمـــد شـــفيق الصفدي: أقنية الري عبر مدينة دمشق. محاضرة في إطار ندوة دمشق القديمة الثانية سنة 1985م.

10- محمد كرد علي: دمشق مدينة السحر والشعر سلسلة إقرأ العدد(16) دار المعارف بمصر.

11- منير كيال: الحمامات الدمشقية. ط(2) مطبعة ابن خلدون دمشق 1986م.

الفصل الثاني
الغوطة.. رئة دمشق ونعيمها..

الحديث عن غوطة دمشق يجعل المرء يحار من أين يبدأ.. أفكار تتداعى، ربيع يتجدّد، حنين إلى عطاء لا حدود له.. أشياء في الذاكرة تترى تتسارع كشلال حب يتدفق.. رؤى تتراقص كفراش حبيس أمام ضوء من شعلة.. أينما تتوجه تجد الكون مفعماً بالحبور.. والدنيا من حولك تمور بأفانين الجمال.

ومن ذلك قول الشاعر في دمشق وغوطتها:

سقى دمشق اللهُ غيثاً محسناً ... من مستهلّ ديمة دهاقها

مدينة ليس يضاهى حُسنها ... في سائر الدنيا ولا آفاقها

فأرضها مثل السماء بهجة ... وزهرها كالزهر في إشراقها

قد رتع الربيع في ربوعها ... وسيقتِ الدّنيا إلى أسواقها

لا تسأم العيون والأنوف من ... رؤيتها يوماً، ولا استنشاقها

عظمة الخلاق فيما خلق:

وكأنّي بالنويري في "نهاية الأرب" يبوح بما انعقد به اللسان واستعصى على القلم، يحدّثنا عن الغوطة بقوله:

"إنّها.. شَرك العقول وقيد الخاطر، وعقال النفوس ونزهة النواظر.. خلخلت الأنهار أسوُق أشجارها، وجاست المياه خلال ديارها، وصافحت أيدي النسيم أكفّ غدرانها، ومُثّلتْ في باطنها موائس أغصانها. يخال سالكها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانير لا يستطيع أن يقبضها بنان، ويتوهّم المتأمّل

لثمراتها أنها أشربة قد وقفت بغير أوان، في كل أوان.

بهـا البسـاتين الأنيقة تتسلسل جداولها، وتغنّي دوحاتها، وتتمايل أغصانها وتغـرّد أطـيارها بكـل لحن وشدو، يُحلّق بسماء لا تفتر عن التمجيد بعظمة الخالق، وقدرته فيما خلق".

فردوس الفراديس:

وقد طُرّزت تلك البساتين بالعمارات الضخمة، والجواسق العليّة، والعُرُش الممـدّدة المظللـة، تتقابل بها الأواوين والمجالس المتْرفة، وتحف بها الغراسُ والنُصوب المزنّرة بالسرو المتلفّ البرود، والحور الممشوق القدود، والرياحين المتأرجحة بالطيب، والفواكه الجنيّة، والثمرات الشهية، والبدائع التي تُغنيها عن الوصف، ولله درّ الشاعر إذ يقول:

إذا كنـت لا تستطيع أن تتمثّل الـ ... فـردوس، فانظـرها تكـن مُتمثّلا

وإذا عـنان اللحـظ أطلـق الفتى ... لـم يلـق، إلا جـنّة أو جـدولا

أو روضـة، أو غيضـة، أو قـبّة ... أو بـركة، أو ربـوة، أو هـيكلا

وفواكـه مـتخالف أصـنافُها ... ممـا يشـوقك، مطعمـاً وتـأمّلا

والـورد مـثل الخـدّ يعلـوه الـ ... ريحـان، صـدغ شـعرٍ قد رجَلا

ويهـزّ مـرّ النسـيم أشـجارها ... فـتخال غـادات تشـكّت إفكلا[1]

ومتى هوى ورق الغصون وجدته ... ذهـباً، وكـان زمـرداً لمـا علا

وكأنّمـا (واديهـا) قـراب أخضر ... يسـتلّ من (بردى) حساماً مُنصلا

صور يعجز عنها الوصف:

لقـد راعني بهاء الغوطة، مرتع الطفولة، وصبو الشباب، وهمت بسحرها، وتـواردت إلـى خاطـري صورها، التي جعل منها الأمويّون محطّ أنظارهم، وأولوهـا جُلّ عنايتهم، وعظيم اهتمامهم.. أنشأوا فيها المزارع وشقّوا بأرضها

---

(1) - الرعشة.

السيران في نبع بردى

نقرع نهر بردی

وادي بردى

موزع الماء بالطالع

الغوطة .. رئة دمشق و نعيمها

أعراس الغوطة في الربيع

أفراح الربيع

من فواكه الغوطة و ثمارها

الجـداول والقنـيّ، وعـنوا باستثمارها واستنباتها، حتى أصبح من أشجارها. الواحـدة، تحمـل أربع أصناف من الفواكه في بطن واحد، كالمشمش والخوخ والـتفاح والكمـثرى (الآجاص).. وعرائش العنب، تطرح الواحدة منها: العنب الأبـيض (الزينـي) والأسـود والأحمر. وشجرة التوت، تطرح التوت الأسود (الشاميّ) والأبيض الهزّاز.

حتّى أنّ الخوارزمي، عدّ الغوطة جنّة الله في أرضه لحسنها وجمالها، وقد "فاقـت صغد سمرقند، وبزّت شعبَ بوّان، وجزيرة الإبلة، على بهاء رياض كل منها، والتحاف أشجار بساتينها وسخاء مياه أنهارها".

من الماء كل شيء حيّ:

إذا كـان الإنسان قد أوصل مياه نهر بردى، إلى كل بيت، وإلى كلّ مرفق من مرافقها العامّة، من مساجد وحمامات وسبلان، فإن هذا الإنسان لم يألُ جهدا فـي إيصـال المياه إلى كلّ ذرّة تراب بالغوطة، وحَصّنَ ذلك بنُظم وأعراف لا خـروج علـيها، وفق عدّانات متوارثة. فتذهب في طُرق ومسارب شتى تحار العين في اجتماعها وافتراقها. حتى لكأنّ كل نقطة ماء مرصودة لذرّة تراب.

فانطلاقاً من قنوات (أنهر): تورا والداعياني والعقرباني والداراني بل وقناة بانياس.. نجد أنّ:

- مـياه تورا، تصل إلى أراضي جوبر وزملكا وحزّة، ومديرة ومسرابا وحرستا ودوما.
- ومـياه الداعيانـي، تتوزّع في أراضي عين ترما وكفر بطنا وجسرين وسقبا وحمورية.
- ومـياهُ العقربانـي، إلى أراضي جرمانا والمليحة، وبيت سحم وعقربا وبلاط وزبدين ودير مجدل.
- ومياه الداراني، تروي أراضي (دار ريّة) وكفرسوسة والمزّة والقدم.
- أما مياه بانياس، فتصل إلى ببّيلا ويلدا والست (السيدة زينب) وحجّيرة والبويضة.

إعجاب العرب بالغوطة:

لقـد أُعجـب العرب بغوطة دمشق أيّما إعجاب، كانوا يرتحلون إليها في

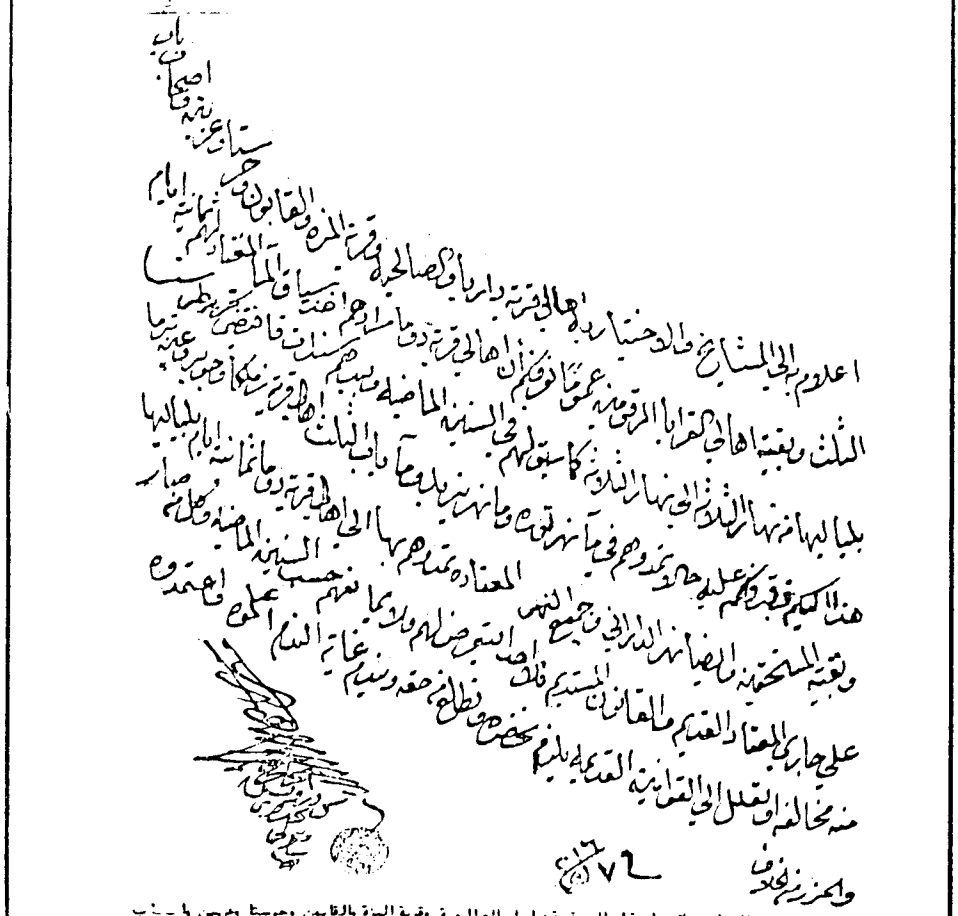

اعلام من الشايح لاختيارية اهالي قرية دارباي والصالحية وقرية النزة والقابون وحرستا وعربين وزملكا وباب الشك وبقية اهالي القرايا المرقومين عموما نعرفكم ان اهالي قرية دوما مرادهم اخذ سواقي الماء المعتاد لهم ثمانية ايام بلياليها من نهار الثلاثة الى نهار الثلاثة كما سبق لهم في السنين الماضية وبهذه سندات فاقتضى تحريم طرسنا هذا اليكم لتقبلوكم عليه حالا تسدوهم في ما تنهر تورا وما تنهر بزيد وما باب الشك اهالي قرية زملكا وعربين وعين ترما وبقية المستحقين . وايضا نهر الداراني وجميع النهر المعتادة تسدوهم بها الى اهالي قرية دوما ثمانية ايام بلياليها على جاري المعتاد القديم من القانون المستديم . فلا احد يتعرض لهم ولا يمانعهم حسب السنين الماضية . وكل من سار منه مخالفة أو تعلل الى القوانين القديمة يلزم تحضيره وتطلع منه حفة ونغرم غاية الندم . فاعلموه واعتمدوه والحذر من الخلاف .

الحاج شهاب ميرمدان كتخدا
والي الشام

عدانات توزيع المياه بالغوطة الشرقية

الجاهلـــية والإســـلام، ويُؤخـــذون بأشجارها وزرعها، ونسيمها العليل، وأديمها الصـــافي.. كانوا يُدهشون لخصبها ومياهها الدافقة، بالقياس لما هي عليه الحال في شبه جزيرتهم. فكانت تستوحي الشعراء، وتُعجب القاصدين، بما خصّها الله مـــن تلـــك الـــبدائع، وبما حباها من النِّعم.. ومن ذلك ما قاله البحتري الشاعر العباســـي، لمـــا نقل المتوكل العباسيّ دواوين الحكم إلى دمشق في قصيدة نذكر منها:

العـــيش في ليل (داريا) إذا بردى ... والراح نمزجها بالماء من (بردى)

أمّـــا (دمشق) فقد أبدت محاسنها ... وقـــد وفّـــى لـــك مطريها بما وعدا

إذا أردت مـــلأت العيـــن مـــن بلدٍ ... مستحســـن وزمـــانٍ يُشـــبه البلدا

يُمسي السحاب على أجبالها فرقاً ... ويُصـــبح النّبـــت في صحرائها بددا

فلســـت تُبصـــر إلاّ وأكفـــاً خضِلا ... أو يانعـــاً خضـــرا أو طائـــر غرِدا

كأنّمـــا القـــيظ ولّـــى بعـــد جيئته ... أو الربـــيع دنـــا مـــن بعد ما بعُدا

متنزّهات الغوطة:

المتـــنزهات بالغوطـــة، أكـــثر من أن تُحصى، فالغوطة في مجموعها من أجمل بقاع العالم. ومتنزّهاته. فهي على حدّ قول المأمون: خير مغنى على وجه الأرض، بمـــا حبَتْها الطبيعة من جمال بقاعها وخصب أراضيها، فهي لا تتعب من إخراج خيراتها صيف شتاء.

وليس للمرء، أن يفضّل هذا المكان بالغوطة، على ذلك المكان، فكلّ ربوع الغوطة ومنازلها جميل يأخذ بمجامع القلوب:

أنّـــى اتجهت، رأيت ماء سابحاً ... مـــــتدفقاً، أو يانعـــــاً مُـــــتهدّلا

وكأنّمـــا أطـــيارها، وغصـــونها ... نَغَـــم القِـــيان على عرائس تُجتلى

وكأنّمـــا الجـــوزاء ألقت زهرها ... فـــيها، وأرســـلت المجـــرّة جدولا

ويمـــرُّ مُعـــتَلُّ النسيم بروضها ... فـــتخال عطّـــاراً يُحـــرِّق مـــندلا

في الربوة:

تُعــدّ الــربوة من أجمل مرابع الغوطة، لما فيها من التخوت المقامة على الأنهــار، فــيجلس المتــنزّهون بين الماء الوفير، والظلال الوارفة، والخضرة الــيانعة، والهــواء العلــيل.. فضلاً عن الغِياض المترامية على ضفاف النهر وفروعه التي يفترشها المتنزّهون في سيارينهم.

كان بالغوطة في الزمن السالف، عدد من المقاصف على يمين ويسار نهر بــردى، يقصدها الناس في أيام راحتهم، وبخاصة الأيام التي تسبق حلول شهر رمضان، فسيران تكريزة رمضان لا غنى عنه، وإحياء هذه المناسبة يكاد يكون أمــراً محتّماً، يشارك فيه أهل دمشق على تنوع نِحَلِهم في المعاش. كما يشارك فــي ذلك، الحكويّة والمخايلة، والمزعبرجية.. ولعل من أجمل متنزّهات الربوة ما كان يعرف، بالخلخال، والــدفّ، والجــبهة، والجنك، ثم العاشق والمعشوق "وهما برجا حمام في لحف الجبل" وفي ذلك قول الشاعر:

شــوقي (يــزيد) وقلــب الصبّ ما بردا و(بان ياسي) من (المعشوق) حين غدا

ومدمعــي (قــنوات) والعــذول حكــى (ثــورى) يلــوم الفتى في عشقه حسدا

علــى مغنّــية (بالجــنك) جاوبهــا شــبَّابة، كــم بهــا من (عاشق) سهدا

فالــبدر (جبهــتها) و(الــدفّ) ربوتُهــا وخِلّهــا مــات فــي (خلخالهــا) كمــدا

أعراس الغوطة في الربيع:

كمــا تكــون العــروس، لــيلة زفّها إلى عُرسها، في أبدع حلّة من الزينة والجمال... وتكون متعة للناظر وسرور الخاطر.. لما يتأتّى عن ذلك من معاني العطاء والخصب والبقاء واستمرار الحياة..

فــإن الغوطــة إذا حــلّ الربــيع في أفيائها، ودبّت الحياة في نُسغ عودها وعُشــبها.. وجرى الترياق في سوق زرعها تكون في عرس. فالربيع عطاء.. وهو عنوان الخصب السرمديّ، الذي ينتظم الكون..

والغوطــة تتزيّن لعرس الربيع بموكب احتفاليّ جماعي بآيات من الإبداعِ والإعجــاز، فتغدو مطرّزة بسمفونية من الألوان، وعبق الأريج ينطلق من كل نبتة وغصن بالغوطة، فيعمّ الأرض وما عليها من كائنات.

ميس وهمس وغنج:

فالـرّياض ترفل في زهرها ووردها، والمرابع تزدهي بوشيها، والأرض تكتسـي حلّـة سندسـية خضراء، مطرّزة بالأزاهير البيض والصفر، وأسراب شـقائق الـنعمان تـتمايس بقاماتها البضّة، مع كل هبّة نسيم، وتغنج مع تغريد عندليـب أو شـدو كـنار.. وهي في سكون خاشع، إذا استراحت على وجناتها فراشـات الحقـل، وهي تسابق النحل في ارتشاف رحيق الزهر في أكمامه من أفنانه.

وأغصـان الأشـجار، وأفنانها تزهو بأكاليل الزهر، وتنشر في الجو عبقاً يحجـب زرقة السماء بسحائب لا تلبث أن تتبدّد مع إغفاءة المساء وهجعة ليالي البدر.

مرابع الطفولة:

هـذه الـبدائع والأفانين، شدّتني إلى مرابع الطفولة، ولكم تمنيت أن أعيش طفولتـي ثانية، لأمرّغ جبهتي بصعيد أرض الغوطة، وألثم ترابها، وأسرح في مغانـيها، أقطف زهيراتها، وألاحق فراشات حقولها، وأصيخ السمع إلى سقسقة عصافيرها، وشدو طيورها وتغريد شحاريرها.

وكأني بشاعر دمشق الكبير المبدع خليل مردم، يجول بخاطره بين ياسمين دوحـة داره ووردهـا وفلّها ومنثورها.. بل ونارنجها وكبّادها وعرائشها، وهو يصـيخ السـمع ويـرهفه إلى تراتيل أطيارها. كأني بشاعرنا الكبير يردّد بين ظهرانينا ما قاله في ربيع غوطة دمشق من شعر:

كـم في أزاهير الرياض لناظرٍ.. مـن مُقلـةٍ وسـنى وخـدٍّ ناضرِ

ماسـت أماليد الغصون بوشيها معطـارة وأزيّنـت بجواهـر

لله مـا صـنعت ومـا جادتْ به فـي الغوطتين، يدُ الربيع الباكر..

بسـطت وثير قطيفة فوق الثرى خضـراء، فيها من كل لون زاهر

مـن أحمـر قـانٍ وأصفر فاقعٍ أو أزرق زاهٍ وأبـيض سـافر

معقـودة الإكلـيل زهراء الحُلى خفّاقـة الأقـراط ذات أسـاور

دمشق والغوطة:

الغوطـــة ودمشق، كلّ منها سبب الآخر، لولا الغوطة لعاشت دمشق عيشة الكفاف، ولولا دمشق ودأب الإنسان فيها ما كانت الغوطة.. فما برحت الغوطة تــأخذ من دمشق وتعطيها، وما زالت الغوطة لا تبخل على منْ مدّ لها يد الحياة بــالعمل والجهــد.. فلا ينفصل أي منهما عن الآخر، كاللحمة للسّدي في نسيج متكامل.

تقدم الغوطة محاصيلها وثمارها وخضارها وألبانها وعليل نسيمها.. وتأخذ الغوطـــة مــن دمشق المياه، التي أسالها إلى الغوطة، عقول وسواعد. أسلافنا.. كمـــا تمدّ دمشق الغوطة، إذا أعوز أهلها المال، أو جارت عليها الأنواء بالجدب وغــيض المياه.. فضلاً عن ذلك فالغوطة رئة دمشق، ومتنفس أبنائها، وملاذهم الذي يختلفون إليه من وعثاء العمل وأعباء الحياة.

فاكهة الغوطة:

من أهم ما تمدّ به الغوطة دمشق، ثمارها وفاكهتها، المتميّزة بلذيذ طعمها، وعجيــب نكهتها.. ولكل صنف من ثمار وفاكهة الغوطة أنواع وأسماء، وطعم مــن حلوٍ وسكريّ ولفّان وحامض ومزّ.. حتى أن المرء يحار أيّ منها يفضل. فأصبحت فواكه الغوطة مضرب الأمثال، وغاية الذوّاق..

فالزيــتون، شجرة الغوطة المقدسة، وزراعتها قديمة بالغوطة. ولها أنواع كثــيرة مــنها: الــدان والجلط والمصعبي والتفّاحي والاستانبولي والحبلاسي.. وشجرة العنب (الكرمة) أساسية في الغوطة، وقد بلغت أنواع عنب الغوطة نحو خمسين نوعاً، وتُعدّ (دار ريّة) بلدة العنب في أيامنا، وأهم أنواع العنب: الأسود الرومــي، والأبــيض الزيني، والبلدي والحلواني والديراني.. أما العنب الأحمر فكــان لدوما ويستخرج منه الدبس، لارتفاع نسبة المادة السكّرية فيه.. ويسمّونه عنب الطيّانة..

ومن فواكه الغوطة: التفاح والكمثرى (الآجاص) والدراق.

وللتفاح أنواع منها السكّري والسكارجي والموشّح، فضلاً عن الأنواع التي

دخلت زراعتها أراضي الغوطة مؤخراً وخاصة في رنكوس.

ومن أنواع الكمثرى: الكوشي والمسكاوي وأبو سطل وأبو زبلة كما هجّنت أنواع عديدة في أيامنا..

وللدراق أيضاً أنواع منها: الغتمي والزهري وأبو خملة.. ومن أنواع الخوخ: أبو ريحة وخوخ الدبّ.

وقد يطعّمون الفاكهة بفاكهة أخرى، ومن ذلك الخوخ على درّاق، والدرّاق بشكل البندورة ويسمونه غريبّة، لكثرة حلاوته، ووفرة مائيّته، ولذيذ طعمه..

مشمش الغوطة:

المشمش أكثر ما في الغوطة من أشجار، وتحتلّ أشجاره مساحات واسعة من أراضي قرى الغوطة، وقد زادت أصنافه عن عشرين صنفاً، لكل منها نكهته ومذاقه. وأهم ما يميّز مشمش الغوطة، وفرة ما ئيّة ثماره، وحلاوته ولذيذ طعمه.

ومن أصناف مشمش الغوطة: الكلابي والعربيني والسنديانى والحموي والوزري والتدمري والشحمي، فضلاً عن المشمش البلدي.. ولصلاح الدين الصفدي في المشمش:

بدا مشمش الأشجار يذكي شهابه على حُسن أغصانٍ من الدّوح مُيّد

حكى وحكت أشجاره في اخضرارها جلاجل تبرٍ في قباب زبرجد

مشمش ماء الورد:

وهو المشمش المعروف بالكلابي، والتسمية فارسية أصلها (كُلّ آبي)، ومن عصير هذا النوع يستخرج (القمر الدين) بعد تجفيفه على الدفوف، وكان للسيد بدر الدين الشلاح وأسرته دوراً كبيراً في تحسين هذا النوع وتوسيع زراعته وتصنيفه وتصديره..

ومن عصير المشمش الكلابي، تُعدّ ربّات البيوت مؤونة الأسرة من المربّى. وهذا النوع من المشمش أكثر أنواعه رواجاً للمربّى، ومما يُرغّب به كثرة أنواعه واختلاف وقت إزهاره، فإذا حصل صقيع وقت الإزهار فإنّه لا يصيب الأشجار الأخرى..

ابن البلد المدلّل:

ويُراد به المشمش المعروف بالبلدي، وهم يدلّلون عليه بقولهم:

"ورد وماء ورد هادا خمير يا بلدي، تعبيراً عن لذة طعمه وحلاوته. وتمتاز ثماره بالتصاقها بالنواة، مما يُساعد ربّات البيوت على إعداد المعقود بقطر السكر. كما تمتاز بإمكان صنع المربّايات التي تعبأ بالعلب للهدايا. ومن مجفف المشمش البلدي يكون ما يعرف بالنقوع، لإعداد الخشافات منه في فصل الشتاء.

الأرض والإنسان بالغوطة:

إذا كانت نظم الري في الغوطة محكومة بأعراف وتقاليد لا يمكن الخروج عليها، كونها تضمن حقوق مياه الري لكل ذرّة تراب بالغوطة، وفق عدانان محسوبة بالدقائق والساعات.. فإنّ الإنسان في الغوطة يعتزّ بأرضه، ويكاد يعدّها مثل عرضه (شرفه) ولا يرضى عنها بديلاً.. فقد توارثها كابراً عن كابر، وهي مهما صغرت مساحتها، أفضل عنده، من أية أرض أخرى، من غير أراضي الغوطة.

لذلك فهو يتعهدها بالعناية بجدّ ونشاط ودأب لا حدود له. وهو لا يفارق أرضه ليل نهار، ولا يفتر عن العمل بها مع أفراد أسرته حتى لكأنه بعض تراب هذه الأرض.

البستنة والدورة الزراعية:

عُرف أبناء الغوطة بالصبر على استثمار الشجر، فالفلاّح يزرع أرضه ليأكل أحفاده!!.. إن لم يكن أولاده. وهو يستثمر أرضه، بما يُعرف بأسلوب البستنة، وأسلوب الدورة الزراعية. ويقوم أسلوب البستنة على تقسيم الأرض إلى مساحات صغيرة (مساكب) يزرعها بما يدرّ له قطاف يوميّ يستطيع تسويقه طازجاً.

أما أسلوب الدورة الزراعية، فيكون للمحاصيل الموسمية، بحيث تكون زراعة الأرض بمحاصيل متنوعة على مدى الحول، من عام لآخر. حتى لا يرهق التربة ويفقرها، فيما لو كانت تزرع محصول واحد على مدى عدّة أعوام.

وهــذا بدوره لا يجعل الفلاح يتأثّر بالآفات الزراعية، التي قد تصيب أحد المحاصيل.. لأنه يحوّل اهتمامه إلى المحاصيل الأخرى..

.*.*.*.

امتداد الغوطة:

إذا تجاوزنا كلّ ما قيل، في صدد حدود الغوطة وامتدادها، فإنه من الممكن القــول. أن الغوطة هي كل ما أحاط بمدينة دمشق من قرى وأشجار، وجميع ما كان من الأراضي التي تروى بمياه نهري بردى والأعوج.

وقــد ذكــر ابــن شداد(1285)م، أن الغوطة في أيامه كانت تشتمل على خمسة آلاف وثلاثماية وخمسين بستاناً. وعلى خمسماية وخمسين كرماً. وكانت بعــض نواحــي الغوطــة تنفرد بزراعات ومحاصيل تشتهر بها وتنسب إليها. فالــبطاطا ليــبرود، والثوم للكسوة، والفول لكفرسوسة، والخس لأرض اللوّان، والورد للمزّة، والعنب الأحمر لدوما.. ولكل نوع من أنواع المشمش قرى تنفرد أو تشتهر بزراعته.

ويذكــر ابــن طولون الصالحي، إنه كان بالغوطة، نحواً من سبعين قرية، ومن هذه القرى. ما كان على أبواب دمشق، لتموين المدينة بالخضار الطازجة، ومنها ما امتدّ إلى ما وراء السور.

لكن تطور امتداد عمران دمشق أتى على كثير من مساحات الغوطة، ومن ذلــك أراضــي الصــالحية ومنطقة الروضة وأبو رمانة والمالكي، والحواكير وكــيوان وجانــباً كبيراً من أراضي كفرسوسة والمزّة والميدان ودمّر.. كما أن كثيراً من أراضي القرى المتاخمة للحدود الإدارية لمدينة دمشق، أصبحت ملاذاً ســكنياً لكثــير مــن ســكان دمشق، لصعوبة الحصول على سكن لهم في قلب المدينة، بعد الانفجار السكاني الناجم عن تزايد عدد سكان دمشق. بسبب الرغبة بالإقامة بها، شأنها في ذلك شأن كل عاصمة..

اغتيال الغوطة:

امــتدت الأيــدي الآثمة لأشجار الغوطة بالقطع والقلع والتبوير.. وأخذت العلب الإسمنتيّة، من دور ووحدات صناعية، بالزحف إلى الأراضي الزراعية.. وشــرعت تلــك العلب، بما تبثّ من سموم وما تطرح من فضلات تقضي على

الأرض وتلوّث الهواء.

كما تحولت مساحات من بساتين الغوطة إلى مقاصف ومقاه، كان الناس كل الناس يرتادونها لمشاركة الطبيعة أعراسها.. يوم كانوا يقصدون تلك الأماكن للنزهة والسيارين..

أيام زمان:

يومها لم يكن يفصل البستان، عن البستان الآخر، أكثر من حاجز ترابي (دكّ)، أو بوّابة خشبية كانت بمنزلة دليل للعابرين، لتحاشي التجوال في الأراضي المزروعة بالخضار.. ولم تكن تلك البساتين، بحال من الأحوال، مغلقة في وجه الزائرين والمتنزّهين، بخاصّة أيام الربيع..

كان الناس في أربعينات القرن المنصرم (العشرين) يقومون بنزهات وسيارين إلى بستان الخامس، ونبعة القناية، والشيخ شمعون، وتوتة السبيل بأرض الشاغور، وإلى أراضي كيوان والنيربين، ولم يكن هناك من يمانعهم، ولا حارس ولا بوّاب.

كان السيرنجيّة بل والمارّة. يتناولون من ثمار الأشجار ما طاب لهم، وكان من أصحاب البساتين ومن كان في حكمهم من الضمّانة والمرابعين، يضعون من تلك الثمار في التيغار، الذي يستخدم في عرك المشمش لاستخراج عصير القمر الدين.. حتى يأخذ من تلك الثمار من أراد بالمجّان، ودون رقيب.

ومن أصحاب البساتين، من يضع على مدخل بستانه، جرناً واسعاً أو سلا كبيراً يملأه بالثمار، فيأكل منها كل عابر أو قاصد، ما تشتهي نفسه، وما شاء له أن يأكل، شريطة أن لا يحمل معه أو يأخذ ولو ثمرة واحدة، غير الذي أكله.. حتى لا يحرم غيره من هذه النعمة.

كما أن غالب أصحاب البساتين، ومن في حكمهم كانوا يوزّعون نتاج أبقارهم ومواشيهم من الحليب ومشتقّاته يوم الجمعة من كل أسبوع مجّانا، لكل راغب، يومها كانت البساتين مفتوحة، ولا يجرؤ أحد على بيع السيرنجيّة الهواء والنظرة.. كما تفعل المقاهي والمقاصف التي بالغوطة هذه الأيام..

فسقى الله أيام زمان.. ورحم الله تلك الأيام!!..

❐

ثبت المصادر والأبحاث:

1 ــ ابن بطوطة: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار. دار صادر، بيروت: 1960م.

2 ــ ابن جُبير: الرحلة، دار التراث، بيروت: 1968م.

3 ــ ابــن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ت: سامي الدهان. المعهد الفرنسي بدمشق: 1956م.

4 ــ ابــن طولون الصالحي: القلائد الجوهرية، في تاريخ الصالحية، ت: محمد أحمد دهمان. ط(1) مكتب الدراسات الإسلامية. دمشق: 1956م.

5 ــ أحمد وصفي زكريا: الريف السوري ج(1) ط(1). دار البيان، دمشق: 1955م.

6 ــ بدر الدين الشلاح: للتاريخ والذكرى، قصة جهد وعمر. دمشق: 1990م.

7 ــ شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب المصرية: 1995م.

8 ــ صفوح خير: غوطة دمشق، وزارة الثقافة. دمشق: 1966م.

9 ــ محمد شفيق الصفدي: أقنية ريّ الغوطة عبر مدينة دمشق. جمعية أصدقاء دمشق.

10 ــ محمــد كــرد علــي: دمشق مدينة السحر والشعر، سلسلة اقرأ. العدد (16). مطبعة المعارف بمصر.

11 ــ محمد كرد علي: غوطة دمشق. المجمع العلمي العربي بدمشق/ 1948م.

12 ــ نعمان قساطلي: الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء. بيروت: 1955م.

■■

الفصل الثالث
الأنواء.. والزراعة في أمثالنا

ميراث التجريب والممارسة:

ورث فلاحو الغوطة عن السلف معرفة دَور الطقس والأنواء الجوية. في الزروع والأشجار، فعملوا على التكيّف مع تلك الظروف تارة، ومداراة صروفها تارة أخرى، وذلك توخيّاً لإيجاد السّبُل التي تحدّ من الإضرار بمزروعاتهم.. كما أخذوا وتوارثوا أصول زراعة الأرض، واستثمارها. ومعرفة طبيعة التربة وحاجاتها.. وما يصلح لها، وما يضرّ بها.. وأتقنوا معرفة أوقات زرع الزروع أو شتلها.. وجني محاصيلها.. فعملوا على رصد البيئة من حولهم، لاستنباط القوانين التي تنتظمها، لتوظيفها فيما يعود عليهم بالخير الوفير. أو لاتّخاذ الاحتياطات التي تقي الزروع من غوائل الحرّ والقرّ وعصف الرياح..

الزراعة في مقولات وكنايات:

ولما كانت الزراعة، عموماً في سورية، وبخاصّة الزراعة الحقلية التقليديّة منها، تعتمد على مواسم الأمطار، فقد عكفوا على متابعة خصائص الفصول، وخلعوا عليها صفات استنبطوها من الملاحظة الدقيقة، والرصد، وربط الأمور بمثيلاتها، لكل صغيرة وكبيرة لكلّ فصل.. وعلى مدى سنوات وسنوات.. وصولاً إلى الإلمام بما يتولّد عن تبدلات أحوال الطقس، وأثر ذلك على محاصيلهم... فخرجوا من ذلك بمقولات، وكنّوا بكنايات، صقلتها التجربة والمعاناة.. فسارت مسار الأمثال.

1- فصل الخريف:

ففـــي فصل الخريف، تتعرّى أشجار البساتين من حلّتها، وتتساقط أوراقها، فتفـترش الأرض بغطـــاء ذهبـــي مشرّب بحمرة مشوبة بألوان صفراء ورديّة ورماديـــة.. وترى الناس يتسابقون إلى البساتين والرياض في سيارين يتودّعون من جمال الطبيعة الذاوي.. وهم يعُدّون هذه الأيّام بالذهبيات.

وفي هذا الفصل تُجتنى فواكه الصيف وخضاره وثماره، لمؤونة الشتاء..

والخريف في بلادنا فصل انتقاليّ بين الصيف والشتاء، وفيه تكثر التبدّلات الحـــرارية.. أمـــا تهطـــال الأمطار، فلا يكون في هذا الفصل على نحوٍ محدّد. سواء من ناحية التوزيع على أيام الفصل، أم من ناحية كميّة هذه الأمطار.

وفـــي هـــذا الفصل، تقطع الشمس في حركتها الظاهرية ثلاثة بروج هي: الميزان والعقرب والقوس، فتقضي في عبورها برج الميزان ثلاثين يوماً، وفي بـــرج العقـــرب، تســـعة وعشـــرين يوماً وثلثي اليوم. وفي برج القوس تسعة وعشرين يوماً، وثلث اليوم[1].

وعلـــى الـــرغم من أن فصل الخريف، يبدأ في يوم (23) أيلول (سبتمبر). وينتهـــي في (21) كانون الأول (ديسمبر).. فإن فصل الخريف يبدأ مناخياً مع بدايـــة شهر أيلول، وينتهي في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بسبب تبدّل معـــدّل الحرارة نحو البرودة مع بداية أيلول، فتصبح الاختلافات الجويّة بيّنة.. وهذا ما تعكسه الأمثال التي قيلت في شهور هذا الفصل.

فهـــم يجعلـــون عـــيد الصـــليب في (27) أيلول الحدّ الفاصل بين بحبوحة الصـــيف وانكمـــاش الخريف، ويسمّون الأيام التي تلي عيد الصليب أيام العبور ويقولون في ذلك:

- **صَلِّب واعْبُر.**
- **إذا صَلَّبت.. خرِبْتْ.**

للتدلـــيل علـــى أن حياة الرياض والنزهات انتهت، وأن على المرء التزام بيته، حتى لا يتعرّض لوافدات البرد الصحيّة.

---

(1) - *في يـــوم (23) أيلـــول يحدث الاعتدال الخريفي، في حركة الشمس الظاهرية حول الأرض، وفيه تكون أشعتها عموديّة مع الدائرة الاستوائية ويكون طول الليل مساوياً لطول النهار.*

وهـــم يدلّلـــون علـــى قِصَر النهار، وضعف أشعة الشمس في هذا الفصل بقولهم:

- **أيام الزيت.. أصبحت أمسيت..**

وفي هذه الأيام، يجري قطاف الزيتون وعصره، لاستخراج الزيت منه.

وإذا كـــان شـــهر تشرين الأول، يشكّل بداية السنة المطريّة الزراعية في ســـورية، فـــإن شـــهر أيلول يندر أن يمرّ آخره، دون تهطال المطر. وفي ذلك يقولون:

- **أيلول.. دَنَبهُ (مؤخرته) مبلول.**

وهـــم يعتقدون أن الزيت لا (يدبّ) يكتمل في ثمار الزيتون، ولا تكبر هذه الثمار وتنضج، إلاّ بعد أمطار هذا الشهر. ويقولون في ذلك:

- **بأيلول.. بيطيح الزيت بالزيتون.**

أما قولهم:

- **غيم الرمّان.. بيبشّر العريان.**

فلأنّ الغيم الذي ينعقد في شهر أيلول، يتطلب استعداد رب الأسرة لمواجهة البرد القادم.. من كساء ووقود ومؤونة، ومن ذلك قول المثل:

- **بإيلول تْموّن لعيالك.. وخَلّ (دع) الهمّ عن بالك.**
- **وئـــت (عندما) بيتدبّر القمح والزّيت.. تْسوكَرِت (ضُمنت) مُونَة البَيْت.**

ونظراً لتقلّب أحوال الطقس في أيلول، ونزوعه إلى البرودة، فإنهم يقولون:

- **زْعِيق الْجِدِي.. ولا سَواد العَنْقُودْ.**

وأرادوا بذلك أن ثغاء السّخال المؤذن بتباشير فصل الربيع أحبّ إليهم من العنب، الذي يبلغ غاية نضجه في فصل الخريف.

ويتصـــف شهرا تشرين الأول والثاني، بعدم انتظام الطقس، من يوم لآخر، فقد تهطل أمطار وفيرة، في شهر تشرين الأول، ويبرد الطقس، ويسارع الناس إلـــى أجواء الشتاء، من ملبس ومأكل وفرش لأثاث البيت، وتوفير للتدفئة.. لكن لا يلبـــث أن يعود الصحو والدفء، حتى أن المرء ليحسب وكأن فصل الصيف قد عاد ثانية. ويعبّر عن ذلك المثل القائل:

- **ما بين تشرين وتشرين.. صيف تاني.**

وهم يكنّون عن برودة الماء وطيب مذاقه، خلال التشارين بقولهم:

- **يلّلـــي (مـــن) ما شبع من العنب والتين.. بْيِشْرب من مَيّة (مياه) تشارين.**

2- فصل الشتاء:

هـــذا الفصـــل غنـــيّ بأمثاله، وهي تحكي قصص الناس وسلوكهم في أيام الشتاء.

وإذا كـــان فصل الشتاء أقسى فصول السنة، فإنّه فصل الخير، وبه تهطل الأمطار التي تمنح الأرض الخصب، وتجعلها ترفل بالربيع، وتُتيح للناس صيفاً هنيّاً معطاءً. ويعبّر عن ذلك:

- **لُولا الشّتي... ما شفنا صيف هَنِيّ.**

وفـــي فصل الشتاء تقطع أشعّة الشمس في حركتها الظاهريّة، ثلاثة بروج جنوبـــيّة هـــي: الجدي والدلو والحوت، فتقضي في عبورها برج الجدي (29) يومـــاً وثلـــث اليوم. وفي برج الدلو (29) يوماً وثلاثة أرباع اليوم. وفي برج الحوت (30) يوماً وسدس اليوم[2].

ويقسّمون هذا الفصل إلى فترتين:

الأولى، وتُعرف بالمربعانية. والثانية تعرف بالخمسينيّة.

* فالمربعانية :

مدتهـــا أربعـــون يوماً، وتمتدّ من (21) كانون الأول (ديسمبر) وحتى نهايـــة كـــانون الثانـــي (يناير). وهي ثقيلة على النفوس، لبردها القارس، وأمطارها ووحولها، حتى أنهم يشبّهون من يتضايقون منه بأنه:

- **مثَل.. طين الشّتي..**

فهـــم يســـتثقلون أيامهـــا، ويحـــذَرون بردها، وينتظرون انقضاءها بفارغ الصـــبر. ويـــزعمون أن بردها ينفذ من الجدران، ويخلص إلى عظم الإنسان، ويعدّون الليالي التي يعاني فيها المرء من مرض أو غم، طويلة كليل الشتاء.

---

[2] - *وفي يوم (21) كانون الأول، يحدث الانقلاب الشتوي في نصف الكرة الأرضية الشمالي، وتكون أشـــعة الشـــمس في حركتها الظاهرية، متعامدة مع مدار الجدي في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، ويكون النهار في أقصر طول له، في نصف الكرة الشمالي، والليل في أطول طول له.*

موقع تل السماكة في مئذنة الشحم حيث تجثم دمشق الأرامية

جانب من سور دمشق بين باب شرقي و باب توما

برج الملك الصالح

باب توما

الباب الصغير و مئذنة جامع الباشورة

الباب الشرقي

باب السلام

باب كيسان

- **أطْول من ليل.. الْشتّي..**

والطقس بالمربعانية، شديد الوطأة على الناس، لكثرة ما تتطلبه الأسرة من حاجات أساسية لردّ غائلة البرد، ومن ذلك قولهم:

- **الشتّي.. شدّهْ.**

ويــرون أن حِـدّة البرد لا يكسرها إلا تهطال الثلوج، لما يعقب ذلك، من انقشاع السحب، وسطوع الشمس، وانبعاث الدفء.

- **إذا اتْلَجتْ.. أفْرِجتْ.**

ويتطيّر الدمشقيون من تذوّق الثلج من الهطول الأوّل أو الثاني، ولا يرون بأساً من تذوق الثلج من ثالث تهطال ويقولون في ذلك:

- **أوّل مرّه سَمّ، وتاني مرّه دمّ.. وتالت (ثالث) مرّه كول ولا تِهْتَمّ**[3].

وتوقياً لشدّة البرد في كوانين يقولون:

- **بكانون كِنّ.. وعالفئير (الفقير) حِنّ.**
- **بكانون كِنّ ببيتك.. وكتّر حطبك وزيتك.**

أما الميسورون فيرون أنّ:

- **الشّتي.. أكابري.**

لأنّه، يظهر علائم النّعمة والرفاه عليهم.

وكــان الــناس يتحاشون إقامة الأفراح في كوانين، لظروف الطقس التي تحول دون التآم جميع الناس، يدل على ذلك المثل القائل:

- **عرس المجانين.. بكوانين.**

وتهطال الأمطار أيام المربعانية، يكون غزيراً على الأغلب، وهذه الأمطار أمل الفلاح للموسم، وإذا شحت الأمطار بكوانين، فإن الفلاح (يكونن) بنقل الماء إلــى كــلّ شجرة من أشجار حقله. وقد ترك لنا أسلافنا، في موجات البرد التي تنتاب المربعانية أمثالاً منها:

---

(3) - *كــانوا يخــزّنون الثلج بكبسه في حوابي وجرار أو مُغُرْ، حتى يحين الدفء، فيذيبون ذلك الثلج مع الدبــس ونحــوه، ويجعلون منه شراب السُّويق، فيتناولونه مع جذر نبات (الحورسنيل)، وهو بطعم الكســتناء، وبحجم حبّة البندق، وقشره يشبه قشر جوزة الهند. كان ذلك يوم وجود الكبك والمكّبة بدل البراد، الذي لم يكن قد دخل للاستعمال.*

- **بعيد الميلادة.. بيولد البرد ولادة.**
- **البرد.. أساس كلّ علّة.**

لضرورة الاحتراز من البرد، بسبب ما يصيب الجسم من اعتلال.

- **ألْدفا عَفا.. ولو كان بعزّ الصيف.**
- **دخّان يعمي.. ولا برْد يُضني.**

وهم يعدّون لذّة الاستدفاء شتاءً، تعدل لذّة تناول فواكه الصيف بقولهم:

- **النار فاكية (فاكهة) الشّتي.. ويلّلي (من) ما بيصدَيء يصْطلي.**

ولقــبوا شهر كانون الأول بالأجرد، لخلو الأشجار من أوراقها بحلول هذا الشهر.

- **كانون الأجْرَدْ.. بيخلّي السّجَر (الشجر) أمرد.**

ويفضّلون غراس أشجارهم في هذا الشهر لأنّ:

- **غرسة كانون الأول.. أحسن من شتلة عمنوَّل (العام المنصرم).**

وتوخياً لثمار جيدة يقولون على لسان الشجرة:

- **إيم (إبعد) إختي عنّي.. وُخودْ (خذ) حملها منّي.**

***- الخمسينية:**

أما الخمسينيّة فأخفّ وطأة من المربعانية، ولا يخشون بردها كثيراً، وهي تمــثّل المدّة المتبقّية من فصل الشتاء، ومدّتها خمسون يوماً. تبدأ مع بداية شهر شباط (فبراير)، وتنتهي في يوم (21) آذار (مارس).

وتنقسم الخمسينيّة إلى أربع فترات تُعرف (بالسعودات) ويستغرق كل منها (12.5) يوماً وهي:

سعد الدابح، سعد بلع، سعد السعود، وسعد الخبايا.

ويربطون كلاً من هذه السعود بدلالة فلكية.

ســعد الدابح: يمتد من (1 ــ 12.5) شباط، بحيث يترافق مع ظهور نجم شمالي وآخر جنوبيّ يجاوره نجم خفيف الضوء يظهر وكأن النجم الجنوبيّ يهمّ بذبحه.

وهــذا الســعد أكثر سعود خمسينيّة الشتاء برودة، وبه يشتدّ هراء الكلاب ونباحها، من شدّة البرد. وفي ذلك قولهم:

- **سَعد الدابح.. بِيخَلّي (يجعل) الكَلْب نَابِحْ.**

أما **سعد بلع**: فَيمتدّ من منتصف اليوم الثالث عشر من شهر شباط، وحتى نهايـــة اليوم الخامس والعشرين من الشهر نفسه، ويترافق هذا السعد مع ظهور نجمين بينهما نجم ثالث يبدو خفيّاً. كأن أحد النجمين الظاهرين قد ابتلعه. وتتميّز فـــترة هـــذا السعد، بقدرة الأرض على ابتلاع كل ما يصيبها من الأمطار، وفي ذلك المثل القائل:

- **بِسَعْد بلع.. السما بتمطّر.. والأرض بتبلع.**

وتنتاب الرياح القسم الأخير منه.. ويفسر الناس ذلك بسقوط الجمرة الأولى في العشرين من شهر شباط، المعروفة بجمرة الرياح.

ومن أمثالهم بسعد بلع:

- **حماك الله.. من سعد بلع.**

بمعـــنى أن يحفـــظ الله المرء، من موجات البرد القارس والرياح الشديدة والأمطار الغزيرة بسعد بلع.

ســـعد السّـــعود: يـــبدأ في السادس والعشرين من شهر شباط، مع تباشير الدفء. وينتهي في منتصف اليوم العاشر من شهر آذار (مارس). ويترافق سعد السعود، مع ظهور ثلاثة نجوم تبدو واضحة في فجر أيّام هذا السعد. وأحد هذه الـــنجوم تكون أكثر ضياء، من النجمين الآخرين، مما يشيع السعادة في النفوس بطلـــوع هذا النجم، لأن ذلك يكون مع انتهاء فترة البرد. والأيام السبعة الأولى من سعد السعود تعرف بأيام العجائز كما سنرى.

وفـــي الـــيوم الثاني من سعد السّعود، تسقط الجمرة الثانية، المسمّاة بجمرة المـــاء. ويربطون ذلك بكثرة ماء الينابيع.. كما تدب الحياة في أغصان الأشجار (نسغها) وفي ذلك قولهم:

- **بسعد السّعود.. بِتْدبّ الميّ (المياه) بالعود، وبيدفا كل مبرود.**

ســـعد الخـــبايا: يبدأ في منتصف اليوم العاشر في شهر آذار، وينتهي في (22) من الشهر نفسه. نهاية الخمسينيّة.

ويـــترافق سعد الخبايا مع ظهور ثلاثة نجوم على شكل مثلث حاد الزوايا، وفـــي الوسط نجم رابع هو نجم السعد، ويظهر في فجر أيام سعد الخبايا، وكأنه يحاول الخروج من بين النجوم الثلاثة المذكورة، المعروفة باسم الأخبية.

وتُعـدّ الأيـام الـثلاثة الأولـى من سعد الخبايا، تتمّة لأيام الجمرة الثالثة المعروفة باسم جمرة الأشجار[4].

أمـا الطقـس فـي سعد الخبايا، فمتقلّب بين الصحو والدفء، وبين البرد القارس المصحوب بالرياح. وفي أيام هذا السعد تخرج الزواحف من أوكارها، وفي ذلك قولهم:

- **بْسعد الْخبايا.. بتتفتّل (تخرج) الخبايا أو الصبايا.**

المستقرضات: هـي أشـد أيام خمسينيّة الشتاء قساوة، لبردها القارس، ورياحها العاصفة، وكثرة الأمطار والثلوج خلالها. وتشمل الأيام الأربعة الأخيرة من شهر شباط، والأيام الثلاثة الأولى من شهر آذار. وهي المعنيّة بالمثل القائل:

- **إبـن عمّي، يا إبن عمّي، ثلاثة (ثلاث) منّك، وأربعة منّي.. تْخلّي العزوز تْولّي.**

ولعـلّ أيام المستقرضات هي أيام الحسوم الوارد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى[5]:

﴿سخّرها عليهم سبع ليالٍ، وثمانية أيّام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنّهم إعجاز نخلٍ خاوية﴾.

ومـن الناس من كان يحسب لأيام المستقرضات الحساب، لما يُرافقها من البرد الشديد. وهم يعدّون أيامها أيام نحس وشؤم. وقد قيلت في المستقرضات أمثال منها:

- **بعد نوّة الحسوم.. نزّل مركبك بيعوم.**

كـناية عـن عـدم الرغبة في إبحار المراكب الشراعية أيام الحسوم خوفاً عليها من الأنواء.

- **ما حلال بيدوم.. إلاّ بعد الحسوم.**

لخوفهم على أغنامهم ومواشيهم.

- **بالمستقرضات.. عند جارك لا تبات.**

---

[4] - *سقوط الحمار، مؤشّر لبداية الدفء، وانكسار حدّة البرد.*

[5] - *سورة الحاقّة. الآية: (7). وقد هلك قوم عاد بريحها الصرصر، وأعاصيرها. وأهوالها. وبقيت عجوز منهم، أخذت ترثيهم، فسمّيت آيام العجوز.*

حتى لا تحتجزه الأنواء عند جاره، فلا يستطيع المغادرة.

كما رصد أسلافنا حالات الطقس التي تنتاب الخمسان فقالوا:

- **هوا الخِمسان.. بيشئيء (يمزّق) الإمصان (الثياب).**

للدلالـــة على العواصف والزوابع أيام الخمسينيّة. وهذه الرياح على شدّتها لا تخترق الحواجز كبرد الشتاء، ولذلك فإن:

- **كلّ دَرْوِه... أحسن من فروه.**

وإذا تمـــيّزت المربعانية ببردها، فإن شهر شباط، على ما ينتابه من فترات الصـــحو قـــد تكون بعض أيامه، أشد قساوة من برد أيام المربعانية في كوانين. حتى قيل:

- **إلسيط (الشهرة) للمربعانية.. والعمايل لشباط.**

لتقلّـــب الطقـــس في شهر شباط، بين صحو ورياح مع أمطار وبرد يقصّ المسمار، كما يقولون.. وبين دفء يُبشّر بالربيع.

- **شباط.. ما على كلامه رباط.**

ومهمـــا اضـــطرب الطقس في شباط، فلابُدّ أن تتداخل ضمن هذه الأنواء، فترات من الصحو، تحمل في طياتها دفء الصيف.

- **شباط أدّ (بقدر) ما شبط.. أدّ ما لبط.. روايح الصيف فيه.**

وقـــد تُـــرافق فـــترات الصحو في شهر شباط شمس حادّة نسبياً في أجواء الشتاء ويقولون في ذلك:

- **سمس (شمس) شباط.. متل المخباط.**

وهم ينصحون بعدم التعرض كثيراً لشمس شهر شباط. ويحضرني في هذا المعنى المثل القائل:

- **ســـمس الحصـــيدة لبُنَيّتـــي.. وسمس الزّبار لكنينتي.. وسمس نيسان لشيبتي..**

دلالـــة علـــى العداوة التقليدية، التي كانت متأصلة، في عصر أسلافنا، بين الكنّة والحماة.

فالحماة تتمنّى أن تكون شمس الربيع الدافئة لابنتها، وشمس كوانين وشباط لكنّتها.. أما شمس نيسان الممتعة فللحماة.

وللدلالة على فترات الدفء التي تنتاب بعض أوقات شهر شباط. قالوا:

- **بشباط... بيبيض الجاج (الدجاج) عالبلاط.**

وإذا هطلت الأمطار بشهر شباط والشمس مشرقة يقولون على سبيل التفكّه:

إبليس عم.. يغسّل مرته (زوجه).

3- فصل الربيع:

إذا حلّ الربيع، تزيّنت الطبيعة، بآيات من الجمال الربّاني، وتزدهي الحقول والرياض فترفل بالزهر والورد والسندس والوشي.. وترى الناس أفواجاً أفواجا منبثّين هنا وهناك يشاركون الطبيعة أفراحها والتمتّع بذلك الجمال.

كما يحلو لهم النوم في عصريّات أيام الربيع، ويسمّونه نوم الخسّ، وهم يعدّون الخس ربيع بني آدم.

وفي هذا الفصل تمرّ الشمس في حركتها الظاهريّة حول الأرض بثلاثة بروج هي:

برج الحمل، وبرج الثور، وبرج الجوزاء، فتُقيم في برج الحمل (31) يوماً، وفي برج الثور (31) يوماً وثلث اليوم، وفي برج الجوزاء (31) يوماً وثلث اليوم[6].

وعلى الرّغم من أن فصل الربيع، يبدأ في يوم (21) آذار، وينتهي في (21) حزيران.. فإن فصل الربيع، يتحدّد مع بداية شهر آذار، وينتهي مع نهاية شهر نيسان (إبريل)، لأن شهر أيار (مايو) أقرب مناخياً إلى الصيف. وينتاب فصل الربيع في شهري، آذار ونيسان، ذبذبات حرارية ملحوظة، وتهطل أمطار غزيرة، كما تكثر العواصف الرعدية المصحوبة بالبَرَدْ (حبّ العزيز) ومن خلال تعايش الناس مع شهر آذار، وما يعوّلون على تهطال الأمطار والثلوج في أيامه، فقد جرت على ألسنتهم أمثال منها:

- **إن أَقْبلت آدار رواها.. وإن أدبرت آدار وراها.**

للدلالة على أهمية أمطار هذا الشهر على مزروعاتهم، واعتماد ميزان الموسم الزراعي على أمطار شهر آذار.

---

[6] - في يوم (21) آذار، يحدث الاعتدال الربيعي، وتكون الشمس في حركتها الظاهرية حول الأرض، متعامدة ثانية مع الدائرة الاستوائية، ويكون طول الليل مساوياً لطول النّهار.

أما موجات البرد القارس التي تحدث في آذار فقد عبروا عنها بقولهم:

- **خبّي فحماتك الكبار.. لعمّك آدار.**
- **آدار.. أبو الزعازعف والأمطار.**
- **آدار إله (له) سبع تلجات كبار، ما عدا الزغار (الصغيرة).**

أما قولهم:

- **بآدار.. طالع بئراتك (أبقارك) عالديّار. (خارج الزريبة).**

فهو كناية عن الدفء الذي يمكن أن يكتنف هذا الشهر، ولأن ما قد يحل في هذا الشهر من البرد، لا يُضرُّ الأبقار إذا خرجت من زرائبها وحظائرها إلى المرعى.

وفي شهر آذار تُزهر أشجار اللوزيات، والتفاحيات، والدراق.. ويرافق ذلك غبار الطلع الذي ينشر في الجو ضباباً يسمونه (عبوق الزهر).

ولابدّ من الإشارة إلى أن موجات البرد في شهر آذار تظلّ متوقعة حتى يحلّ عيد الفصح عند النصارى.

- **بيضلّ البرد آيم (قائم).. مادام النصراني صايم.**

أما تباشير الدفء في نيسان (إبريل) فيكنون عليها بقولهم:

- **إذا صارت ورئة (ورقة) التين أدّ (بقدر) رجل البطة.. نام ولا تتغطّى.**

وتهطال الأمطار في نيسان يحمل الخير والبركة، لأنه يُنعش العشب. ويُنبت الزرع. ويدرّ الضرع:

- **مطرة نيسان.. بتحيي السكّة والفدّان.**

وكان الدمشقيون يتفاءلون، بأمطار نيسان، ومنهم من كان يستشفي بها، فيملأ قواريرَ من هذه الأمطار، يدّخرها للتبرك والاستشفاء، وكانوا يكثرون الخروج إلى الرياض والمتنزّهات للتمتّع بجمال الطبيعة في شهر نيسان، لأن عندهم:

- **أحسن دوا.. شمّ الهوا...**

ويرون أنّ نقطة المطر بنيسان، تعدل في أهميتها للأرض، سيلاً من أمطار الأشهر الأخرى (على سبيل المبالغة) لأن العبرة في الأمطار توزّعها حسب حاجة الأرض، أكثر من كميّتها.

- **النّنطة (النقطة) بنيسان.. بتسوى كل سيل سال.**

ويحرصـــون أن يعمـــل الفلاح في أرضه، ولا يشجعون العمل في أرض الآخرين، لحاجة الأرض إلى أبنائها.

- **بنيسان.. لا تكْرِ نفسك لإنسان.**

ويؤمنون أن خيرات الأرض في شهر نيسان كافية لإسعاد الجميع:

- **نيسان بيطعمي الجوعان.. وبيكسي وبيدفّي العريان.**

ومـع هـذا فإن شهر نيسان لا يخلو من لسعات البرد، ويسمّونها: عقارب نيســان. الأمــر الــذي يســتدعي معاودة ارتداء الملابس الشتويّة. لاتّقاء تلك اللسعات، خوفاً من الوقوع في شرك أمراض البرد. لأن:

- **البرد.. أساس كلّ علّة.**

أما في شهر أيار (مايو) فتأخذ الحرارة بالارتفاع ويستقرّ الطقس، وتنضج المحاصـــيل. ويعمـــل الناس في جنيها.. ولذلك فإن من الممكن القول أن غالب الأمثال التي قيلت في شهر أيار، تتمحور حول هذا الموضوع.

ومن ذلك:

- **بأيّار.. حميل منجلك واندار.**

وبعـــد الحصاد، تأتي عملية الدراسة بالنورج ثم التذرية[7].. كما تجري في أوائل شهر أيار عملية ضمان الفواكه الصيفية، كاللوزيات والتفاحيات، بدءاً من عيد الخضر، في السادس من أيار ويجري جزّ صوف الأغنام.

- **بأيار، قصّ غنماتك.. بأرض الديار.**

4- فصل الصيف:

يـــبدأ فصـــل الصيف يوم (22) حزيران (يوليو)، ويمتدّ حتى (23) أيلول. وتقطـــع أشـــعة الشمس في حركتها الظاهرية حول الأرض ثلاثة بروج شمالية هي:

بـــرج الســـرطان، وبـــرج الأسد، وبرج العذراء. فتُقيم في برج السرطان ثلاثيـــن يوماً ونصف اليوم. وتقيم في برج الأسد واحداً وثلاثين يوماً، وفي برج

---

[7] – *الدراســـة: هي عملية تفكيك القمح والشعير عن سنابله، بلوح الدارسة (النورج). أما التذرية فهي فرز هذه الحبوب عن القش (التبن).*

العذراء ثلاثين يوماً ونصف اليوم[8].

وتتّصف أشهر الصيف باستقرار حالة الطقس، وارتفاع درجات الحرارة وندرة الأمطار. فضلاً عن انخفاض الرطوبة، ولهم في فصل الصيف أمثال منها:

- **الصيف كيف.. والشتّي شدّه.**

إشارة إلى خيرات الصيف، ونزهاته، وكثرة الطلب على الأيدي العاملة، فيكثر الكسب وتعمّ السعادة والرخاء، بالموازنة مع فصل الشتاء، حيث يقلّ الطلب على الأيدي العاملة بسبب الأنواء.. وما يرافق ذلك من كثرة متطلبات الحياة التي تُثقل كاهل الفقير. ولذلك فإنهم يعدّون أنّ:

- **الصَّيف.. فصل الفَنِيرْ (الفقير).**

بمعنى أنّه هنيّ رَخْص في كل شيء، يذهب المرء في أيامه حيث يشاء ويلبس ما رخص وخف، وينال من المأكل ما شاء بأبخس الأثمان، وينام حيث يطيب له النوم. فقالوا أنّ:

- **بْسَاط الصيف.. واسع.**

بمعنى إمكان استقبال الضيوف، ولو ضاقت بهم الدار، وذلك دون تكلّف مؤونة التدفئة والفرش.. وبالتالي إمكان القيام بواجب الضيافة بيسر، ودون كلفة كبيرة.

ولكن ارتفاع درجات الحرارة في الصيف ولسعات البعوض تكدّر على النائمين نومهم وصَفْوَ رقادهم، فقالوا:

- **نوم الصيف. مْهَلْوَسْ.**

وفصل الصيف، كفصل الشتاء مقسوم إلى فترتين: المربعانيّة ومدّتها أربعون يوماً، والخمسينيّة، ومدّتها خمسون يوماً.

* - المربعانيّة.

تبدأ في يوم (23) حزيران وتمتدّ حتى نهاية شهر تموز (يوليو) وأيامها أشدّ أيام السنة حرارة، وأكثرها جفافاً، وهم يسمّون الحرّ شوباً، ويطلقون على

---

[8] - *يحدث الانقلاب الصيفي في (22) حزيران، وفي هذا اليوم تكون أشعة الشمس في حركتها الظاهرية، متعامدة مع مدار السرطان، ويكون النهار في نصف الكرة الشمالي في أطول طول له.*

أيام الحرّ، في مربعانيّة الصيف قولهم:

- **شوب.. جهنّم.**

ويقولون في المسكن المتداعي، الذي لا يقي ساكنه حرّ الصيف القائظ، ولا أمطار الشتاء وبرده القارس:

- **بالصيف حريئ، (حريق).. وبالشتي غري، (بالشتاء غريئ).**

وهذا يذكر بالمثل القائل:

- **آم (قام) من تحت الدلف لتحت المزراب.**

وهم يعدّون شهر حزيران، أشدّ أشهر السنة حرارة، ففيه: حصاد القمح والشعير، وتنضج ثمار المشمش واللوزيات كافة. ومن أقوالهم:

- **بحزيران.. الحصيدة والنيران.**

للدلالة على شدّة الحرارة أيام الحصاد، كما يعدّون شهر حزيران:

- **طبّاخ المشمش.**

ويروون أن شجرة الليمون عيّرت شجرة المشمش بقولها:

- **لولا إلْهوا.. ما غَلَبْتَيني يا دَايْبة.**

للدلالة على أنّ حرارة الشمس، بحزيران، هي التي أنضجت ثمار المشمش قبل ثمار الحمضيات.

والأمثال التي قيلت في شهر تموز (يونيو) قليلة، بسبب استقرار الحالة الجوية على وتيرة واحدة، من ناحية الحرارة والجفاف، وتتمحور هذه الأمثال حول الحرارة ومنها:

- **بْتَمّوز.. بتغلي الميّ بالكوز.**

والكوز إناء فخاري للماء، يعمل على تبريد الماء. وعنوا بهذا المثل شدّة الحرارة، التي تعيق تجوال الإنسان حاسر الرأس، أو بدون نعل في قدميه.. وعلى سبيل المبالغة، فإن تلك الحرارة، تجعل الماء حاراً، حتى في الأواني الفخاريّة، التي من خصائصها تبريد الماء.

***- الخمسينيّة:**

وهي أقلّ وطأة وأكثر راحة من المربعانية، وتشمل المدّة المتبقية من فصل الصيف. فتبدأ مع بداية شهر آب (أغسطس) وحتى (22) أيلول. وتقسم إلى

أربع فترات تُعرف بالسعودات، ومدّة كلّ سعد (12.5) يوماً وهي: سعد البلع، وسعد الشوب، وسعد اللّهاب ويقع فيه عيد الجوزة. الذي يؤذن فيه بفرط ثمار الجوز عن أشجارها. وربطوا شدّة الحرّ في أيام سعد اللهاب، بظهور نجم سهيل في أواخر شهر آب.

وآخر سعود خمسينيّة الصيف هو سعد الخبايا، وفي أيامه يتكاثف الندى، ويظهر نجم الميزان في (13) أيلول[9].

والحرارة في شهر آب لا تُطاق حتى أنّ المرء ليشعر أن الجوّ يكاد يلتهب من شدّة الحرارة، وقالوا في ذلك:

- **آب اللّهاب.**

وينصحون، بعدم فلاحة الأرض، في هذا الشهر، حتى لا تفقد الأرض رطوبتها.

- **بآب.. لا تُحرّك التراب.**

وفي هذا الشهر ينضج العنب والتين، ويلذّ مذاق العنب، وتكتمل حلاوته، وفي ذلك قولهم:

- **بآب.. قطوف (اقطف) العنقود (العنقود) ولا تُهاب.**

لكن هذه الحرارة الشديدة في شهر آب، يعتورها، في أواخر الشهر، فترات تنخفض فيها الحرارة، نتيجة لتغيّرات الطقس، فتنكسر شدّة الحرّ، وتلوح تباشير الخريف، لذا فإنّ:

- **بآب.. الصيف عاب.**
- **برد الصيف.. أحدّ من السيف.**

لضرورة توقّي لسعات البرد التي تحلّ في ليالي شهر آب بخاصّة، وعدم التحلل من الملابس الواقية منها.

❐

---

[9] - وهو مجموع نجوم تُعرف بالجبار، منها ما هو متناسق يطلق عليها اسم: ميزان الحق. ومنها ما هو غير متناسق يطلق عليها: ميزان الباطل. ومن نجومه الجوزاء.

ثبت المصادر والأبحاث:

1 ــ خليل مردم: الفلكلور السوري، مجلة دمشق. العدد (8) سنة: 1940م.

2 ــ علـــي حسن موسى: الأحوال الجوية في الأمثال الشعبية، وزارة الثقافة. دمشق: 1990م.

3 ــ منـــير كيال: معجم درر الكلام في أمثال أهل الشام، مكتبة لبنان، بيروت. سنة: 1993م.

4 ــ منـــير كـــيال: يا شام في التراث الشعبي الدمشقي. مطبعة ابن خلدون. دمشق: 1984م.

5 ــ منـــير كيال: مقال الشتاء في أمثالنا الشعبية، مجلة صوت العرب. العدد (217) دمشق.

6 ــ دراســـة ميدانـــية تتناول مختلف الشرائح من المسنيّن بدمشق وريفها، في العقد الخامس من القرن العشرين.

■■

الفصل الرابع
سور دمشق... أبراجها.. أبوابها
شواهد خالدة على عراقة دمشق

أقدم المدن

تعــدُّ دمشــق، أقــدم مدينة مأهولة عبر التاريخ. ومن يتجوّل في حاراتها وأزقّتها يحسّ عبق التاريخ يملأ حنايا أوابدها الماثلة. حتّى لكأنّها تمدّ يدها إليه، لتضع أمام ناظريه، صفحات من تاريخ هذه المدينة العريق يتلمّسها بيده ويراها بأمّ عينيه.

أوّل مــا يلفــت انتباه المرء، في مدينة دمشق، سور هذه المدينة وأبراجها وأبوابها... ما قصّة هذه المعالم، التي تصوّر لنا عبقرية الإنسان العربي في فن العمــارة التحصينيّة.. وتحكي لنا قصّة الإنسان والتاريخ في هذه المدينة القديمة قدم التاريخ!!.

1-سور مدينة دمشق:

الســور عمــل جــبّار، قامت به أجيال متعاقبة، وهو يضرب حول دمشق نطاقاً، لا يزال ظاهراً في كثير من أقسامه إلى يومنا هذا.

وقــد ظل السور شامخاً يملأ العين، حتى أنّ المرء يمكنه السير بمحاذاته، وتلمّــس جدرانه، والتمتّع بارتفاعه الكبير، بعين ملؤها الإجلال والإكبار، سواء فــي المنطقة الممتدّة، بين باب الفرج و باب السلام، أم بين الباب الشرقيّ وباب كيســان وباب الصّغير بالشاغور، وإن حجبت المساكن بعض أقسام هذا السور، أو ركبت بعضه الآخر.

أوّل الكلام.. دمشق الآراميّة:

بـــادئ ذي بدء، يجدر بنا الوقوف قليلاً مع الآراميين، الذين أقاموا بدمشق، فـــي منتصـــف الألـــف الثانية قبل الميلاد.. يوم كانت دمشق أشبه بقرية كبيرة ضمن غوطتها الخضراء.

كان بدء توضّع الآراميين بدمشق عشوائيّاً، لكن عمران المدينة ما لبث أن انـــتظم وأصـــبح لدمشق شوارع على غرار ما كان لبابل وآشور، ذلك الحين، وبالتالي، فقد دعت الظروف الأمنيّة إلى تحصين المدينة وقصرها الملكي بسور لـــه أبواب مكنتها من الوقوف في وجه الطامعين.

وبخاصّـــة بعـــد أن أســـس بدمشق القائد الآرامي "روزون" مملكة دمشق الآرامـــية.. الأمر الذي سمح باستقرار المنطقة، واتساع نشاطها التجاري، مما جعل دمشق الآرامية، والممالك الآرامية الأخرى في: "حماة وشامال" قبلة العالم القديم في ذلك العهد..

لكن جميع آثار هذه المملكة دُرست، أو دفنت في باطن الأرض، ومن غير الممكـــن الكشـــف عنها، إلاّ بهدم المدينة القديمة في منطقة: "تلّ السّماكة، وتلّ النجارين، أو ما يعرف اليوم بحي مئذنة الشحم".

وكـــان من تداعيات قوة مملكة دمشق الآرامية، ونفوذها التجاري الواسع، أن أصـــبحت هدفـــاً للمطامع الخارجية، فقد سقطت سنة (732) قبل الميلاد بيد الآشـــوريين، ثـــم انـــتزعها الكلدان سنة (605) ق. م فالفرس الأخمينيّون سنة (538) ق. م وظلـــت كذلـــك إلى أن سقطت بيد اليونان سنة (333) ق.م إثر معركة إيسوس مع الفرس في عهد الاسكندر الكبير.

سور دمشق أيام اليونان:

بعـــد ســـقوط إمـــبراطورية الاسكندر، كانت دمشق ضمن الدولة السلوقية المتفرّعة عن إمبراطورية الاسكندر، أنشأ السلوقيون حيّاً خاصاً بهم في دمشق، علـــى الـــنمط اليوناني المتميّز بشوارعه المستقيمة والمتعامدة.. وقد توضّع هذا الحـــيّ إلى الشمال الشرقيّ من سكنى الآراميين. ثم عمد السلوقيون إلى تحصين دمشق بسور لـــه أبواب تسهم في ردّ الغزو الخارجي.

ولـــم يبق من السور اليوناني لدمشق ما يدلّ عليه، ومن المحتمل أن يكون الـــرومان مـــن بعدهم، قد اعتمدوا قواعد هذا السور وأبوابه في تحصين دمشق فيما بعد، بسور حجري ضخم جديد.

وقــد أخــذ السلوقيون عند إقامتهم سور دمشق، بعين الاعتبار موقع مدينة دمشق وطبيعتها الطبوغرافية، من ناحية إمكان الدفاع عنها ورد عاديات الغزاة. لكــن دمشــق لم تسلم من غزو بطليموس ملك الدولة البطليمية التي قامت على أنقاض إمبراطورية الاسكندر المكدوني في مصر.

ولمّــا تولّى "تريغون" الملك على الدولة السلوقية سنة (142)ق. م رمم ما تشعث من سور دمشق بفعل الغزو البطليمي كما رمّم باب توما.

وظــل الأمــر علــى هــذه الحــال حتى قام القائد الروماني "بومبيّة" عام (64) ق.م بالقضــاء علــى الدولــة السلوقية وانتزاع سورية منها، ليبدأ العهد الروماني في سورية.

سور دمشق الروماني:

أدرك الــرومان أهمية موقع دمشق ومتطلباتها الدفاعية، وبراعة أهلها في الفنون المعمارية.. فعملوا على إعادة بناء السور، على أنقاض السور اليوناني، وجعلــوه ســوراً حجــرياً ضخماً، بطول (1500)م وعرض (750)م، ويضمّ مساحة (105) هــ آ ر. أما سماكة الجدران فهي بين: (115-130) سم.

كانت جدران السور الروماني لدمشق توازي الخطوط المستقيمة التي تخطّ الشــوارع، وهي تتكيّف مع نمو واتساع المدينة. أما الجهة الشمالية للسور فهي محكومــة بنهر العقرباني المتفرّع عن نهر بردى، وهو حدّ أو خندق طبيعي لا يمكن تجاوزه. وحصين في وجه الغزاة.

سبعة أبواب رومانية بسور دمشق:

وقد جعل الرومان بهذا السور سبعة أبواب وهي على النحو التالي:

ثلاثــة منها في الجهة الشمالية حيث يسهل الدفاع عن دمشق، لوجود نهر العقرباني المشار إليه. وهذه الأبواب: باب توما، باب الجنيق، وباب الفراديس، وبابان في الجهة الجنوبية من السور، التي تُعدّ أقل سهولة في الدفاع من الجهة الشمالية. وهذان البابان: باب كيسان، والباب الصغير.

أمــا فــي الجهة الشرقية من السور، فقد أقاموا باباً كبيراً واحداً هو الباب الشــرقي. وقبالــته باب مماثل في الجهة الغربية من السور، هو باب الجانبية، وبين البابين يمتدّ الشارع المستقيم الذي يتوسطه قوس النصر.. كما سنرى..

خندق حول سور دمشق:

وكـــان يحيط بسور دمشق من الشرق والغرب والجنوب، أما جهة الشمال، فكـــان نهر العقرباني المذكور خندقاً طبيعياً. وكان هذا الخندق يملأ بالماء عند اللـــزوم للدفـــاع عن المدينة، وبالتالي كان يوجد جسر أمام كل باب من أبواب دمشق، فوق ذلك الخندق.

تحرير دمشق من البيزنطيين:

وعندما حرر العرب دمشق سنة (14هـ) من البيزنطيين الذين أقاموا دولة روما الشرقية في القسطنطينية، كان سور دمشق قوياً مشيّداً من حجارة ضخمة، لا يمكـــن زعزعـــتها.. فحـــافظ الأمويون على السور والأبواب، وقد نجم عن الاســـتقرار واستتباب الأمن، وزوال الخطر الخارجي، أن امتدّ عمران دمشق، فخرجـــت مـــن شـــرنقتها إلى خارج السور، فبُنيت دور وقصور كقصر عائكة وقصـــر حجـــاج بظاهـــر باب الجانبية، كما نشأت أحياء خارج السور: كحيّ الشـــاغور البرانـــي من جهة الجنوب، وحي العُقيبة والعمارة البرّانية من جهة الشمال من السور.

إهمال السور وتداعيه:

وقـــد نجم عن الأحداث التي مرّت على بلاد الشام عامّة، ودمشق بخاصّة، من ثورات وفتن وصراعات على السلطة، أن أُهمل سور مدينة دمشق، وتسرّب التداعي إلى أوصاله.. وقد تفاقم هذا الوضع أيام الإخشيديين ومن أتى بعدهم.

عودة الحياة إلى سور دمشق:

فلمـــا كان عهد السلاجقة، أخذت الحياة تدبّ من جديد في أوصال السور، كمـــا أُنشـــئت قلعـــة لدمشـــق، عـــند الزاوية الشمالية الغربية من السور، سنة (470)هـــ، وفتح بالسور باب الحديد.

دور الدولة النّوريّة والأيوبية:

وعـــندما قامـــت دولة الأتابكة (النوريّة) على أنقاض دولة السلاجقة جعل الأتابكـــة تحصين دمشق أمام الأطماع الصليبية أكبر همّهم.. فعمدوا إلى ترميم الســـور وإكمال ما كان متهدّماً منه، بين باب كيسان وباب الصغير بالشاغور، كما أقاموا الأبراج المستديرة على النمط الروماني، للتمكين من حُسنِ الدفاع عن المدينة.

واستمرت هذه العناية في العهد الأيّوبي، بعد استلام صلاح الدين السلطة بدمشق.. فرممت وجُدّدت بعض الأبواب، كما شُيد برج الملك الصالح أيوب، حتى أنّ من الممكن القول، أن سور دمشق في تلك الفترة، من عمل الدولة النورية والأيوبية.

بين السّورين:

فقد نما هذا السور، وتكامل واتسع، فأخذ شكلاً شبه بيضويٍّ، عن الشكل المستطيل، الذي كان عليه في العهد الروماني كما جرى تعديل في تخطيط هذا السور، بعد أيام نور الدين، في طَرَفه القائم بين باب الفرج بالمناخلية. وباب الفراديس بالعمارة الجوّانية، فأنشئ جدارٌ لسورٍ أمام ضفّة نهر العقرباني (فرع بردى)، أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، مع الإبقاء على جدار السور الروماني القديم، فأصبح سور دمشق مزدوجاً، في هذه المنطقة، مما يُفسر وجود أبواب مضاعفة لسور دمشق، في منطقة باب الفرج بالمناخلية، ومنطقة باب الفراديس بالعمارة الجوّانية، ووجود زقاق بينهما عُرف باسم بين السورين.

2-أبراج سور دمشق:

أما الأبراج.. فلا تزال تُطلّ علينا بكبرياء وشموخٍ وتحدٍّ.. إنّها تتربّع بزهوّ كالطود في جنبات سور دمشق، وفي جوانب أبواب المدينة.. عين لا تنام وصقر يترصّد الغدر والعدوان.. إنها تحكي قصّتها مع الرجال الأعلام الذين حملت أسماؤهم.. وجميع هذه الأبراج تعود للعهود العربية الإسلامية، وبخاصة ما كان منها زمن النوريين والأيّوبيين والمماليك.

وتدلّ الصور المأخوذة في القرن التاسع عشر لبونفيس (Bonfis) والصور المحفوظة لدى مؤسسة استكشاف فلسطين:

(Palastin Exploratin fund ، وصور تنسر دوماس (T-Dumas) لنفس الفترة، للقسم الممتدّ بين باب كيسان، والزاوية الجنوبية الشرقيّة من السور، تَدُلُّ هذه الصور، على وجود بقايا سبعة أبراج أخرى، المسافة بين كلّ برجين منها نحو ثلاثين متراً. وهي نفس المسافة الفاصلة بين الأبراج القائمة بين باب الجابية وباب الصغير من السور. ويمكن أن نميز في هذه الأبراج ثلاثة طرز للعمارة:

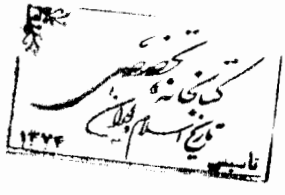

*طـــراز قاعدتـــه مـــربّعة، ثم يستدير على شكل نصف دائرة كبرج نور الدين.

*طراز رباعي الشكل للبرج بكامله، كبرج الملك الصالح أيوب.

*وطـــراز يأخذ بكامله شكل نصف دائرة، كالبرج الذي يلي برج الصالح أيوب في الناحية الشرقية من السور.

برج نور الدين:

يقـــوم بـــرج نـــور الدين، إلى جانب باب الجابية، ويأخذ شكلاً مربعاً في قاعدته، ثم يأخذ شكلاً نصف دائري. وقد أنشئ سنة (596)هـــ. ويُحيط به زنّار زخرفـــي بعـــرض (100) ســـم، يؤرّخ لترميم هذا البرج، ويتخلّل ذلك نقوش لأزاهير بديعة زيّنت هذه الكتابة.. أما ارتفاع البرج، فيصل إلى عشرة أمتار.

وهـــناك بـــرج آخر شُيّد في عهد نور الدين بالقرب من باب الصغير سنة (564)هـــ.

برج الملك الصالح أيوب:

أمـــا برج الملك الصالح أيوب، فهو رباعيّ الشكل، ويقع بالزاوية الشمالية الشرقية من سور دمشق، إلى الشرق من باب توما، قبالة مسجد الشيخ أرسلان الدمشـــقي حالـــياً، وقـــد أُنشئ سنة (646)هـــ ويصل ارتفاعه إلى عشرة أمتار أيضاً.

فضـــلاً عـــن هـــذا، هـــنالك برج نصف مستدير، يلي برج الملك الصالح أيـــوب.. وبقايا أبراج أخرى، وهي في حالتها الراهنة كأنها تعود لأيام النوريين والأيوبيين والمماليك..

3-أبواب دمشق:

لســـور دمشـــق سبعة أبواب فتحت حسب الحاجة إليها، وحسب متطلّبات الدفـــاع عـــن المدينة، فكان في الجهة الشمالية من السور ثلاثة أبواب لأن هذه الجهة أكثر جوانب السور تحصيناً لوجود نهر العقرباني في هذه الجهة.

وهذه الأبواب هي:

البـــاب الشـــرقي في الشرق، **والباب الكبير** (الجابية) بالغرب، **وباب توما وبـــاب الجنيق وباب الفراديس** في الشمال، وأخيراً **باب كيسان والباب الصغير** في الجنوب.

قصة لكل باب:

ولكـــلٍّ مـــن هذه الأبواب قصّة تترافق مع الأحداث التي مرّت بها دمشق. وتتماشـــى مع ما طرأ على سور هذه المدينة. كما أنّ كل باب كان منسوباً في العهد اليوناني والروماني، للشمس أو القمر أو أحد كواكب المجموعة الشمسية، وقد صوّروا على كل باب الإله الذي يرمز إليه.

*فقـــد خصّ اليونانيون، الباب الشرقي لاسم إلههم الأكبر: (الشمس) الذي يمثل عندهم الإله:(هليوس- Helios). ويمثل عند الرومان الإله: (سول-Sol).

*أمّـــا باب الجابية فكان ينسب لكوكب المريخ، ويُمثّله عند اليونان: إله الحرب: (آريس- Ares)، ويقابله عند الرومان، إله الحرب: (مارس- Mars).

*وبـــاب كيســـان، كـــان ينسب لكوكب زحل. ويمثله عند اليونان، إله الزمن: (كـــرونوس- Krones) وعند الرومان: (ساتورن- Saturn) وقد حمل في العهـــد البيزنطـــي، اسم القديس (بولس) تخليداً لحادثة تهريبه من فوق سور دمشق، عند هذا الباب في العهد الروماني.

*وبـــاب الصـــغير، كـــان ينســـب لكوكب المشتري، ويمثله عند اليونان: الإله (زيوس- Zeus) ويقابله عند الرومان: (جوبيتر- Jupeter).

*أمـــا بـــاب الجنـــيق، فكان ينسب للقمر، وتمثله عند اليونان الإلهة: (سيلينة- Selene). وهـــي عـــند الـــرومان: (لونـــا- Luna) وأطلق عليه في العهد البيزنطي اسم: باب الميلاد، تخليداً لميلاد السيد المسيح.

*وكان باب الفراديس ينسب لكوكب عطارد، ويمثله عند اليونان، رسول الآلهة (هرمس- Hermus). ويقابله عند الرومان: (مركوري- mercurius).

*وأخيراً باب توما، وقد نسبوه لكوكب الزهرة، وتمثّله عند اليونان، إلهة الحب: (افروديت- Aphrodite). وهي عند الرومان: (فينوس- Venus). وتوما: هو القديس توما، أحد تلامذة السيد المسيح.

وقد أزيلت جميع الصور التي كانت على أبواب دمشق، باستثناء صورة كوكب زحل التي على باب كيسان.

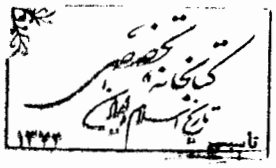

أبواب دمشق في العهود الإسلامية

طـرأ علـى أبواب دمشق في العهود الإسلامية تعديلات كثيرة، استلزمتها طبيعة الدفاع عن المدينة، فقد سُدّ بعض هذه الأبواب، وجُدّد بعضها الآخر كما فتحت أبواب جديدة.

وكانـت للمدينـة أبـواب أخرى صغيرة غير الأبواب الكبيرة، تُفتح عند الحاجـة إليها، وفي جميع الأحوال، فإنّ أبواب دمشق الحالية، هي من تشييد أو تجديـد عهـد نور الدين محمود زنكي، ومن تبعه من الأيّوبيين ونواب السلطنة المملوكية بدمشق.

لكل باب مسجد:

وإلـى عهـد نور الدين يعود وجود المساجد والمآذن (المنائر) على أبواب دمشـق، فقـد جُعلَ لكل باب مسجد، أحدثه أو جدّده ذلك العهد، كما أقاموا فوق الأبـواب مآذن يمكن بواسطتها مراقبة العدو، فضلاً عن دورها في رفع الآذان للصلاة، أو إبلاغ الناس بما قد يستجدّ من أمور. وبعض هذه المساجد والمآذن، مـا زال قائماً، وبعضها الآخر أُزيل. ومن المساجد الباقية مسجد الباشورة عند الباب الصغير بحيّ الشاغور. وكذلك مسجد باب الفرج بالمناخلية.

ولكل باب باشورة:

جعـل نـور الديـن لكـل باب سويقة (باشورة) لإمداد الناس بحاجاتهم، ومؤونـتهم، إذا حُصّنت المدينة وأقفلت أبوابها.. وهذه الباشورة قد تكون متّصلة بالـباب مـن خارجه، ولها بوّابة خاصة، ومن ذلك: الباشورة التي كانت بباب شرقي، حتى مطلع القرن العشرين.

وباشورة باب الجابية، التي يشغلها سوق النسوان في أيامنا، وأيضاً باشورة الباب الصغير التي يشغلها الآن جانب من سوق الشاغور البراني، جنوبي الباب الصغير.

كمـا قـد تكون الباشورة، بين البابين، في المنطقة التي يكون فيها السور مزدوجاً، كباشورة باب الفرج، وباشورة باب الفراديس.

عشرة أبواب لدمشق:

إذا أخذنا بعين الاعتبار مجموع أبواب دمشق الباقية والدارسة، نجد أنها عشرة. ثلاثة منها دُرست أو أُزيلت أو سُدّت، وسبعة لا تزال ماثلة باقية إلى أيامنا، منها خمسة تعود في جذورها إلى العهود اليونانية أو الرومانية، وبابان جرى إنشاؤهما أيام السلطان نور الدين.

أبواب العهود الرومانية:

1-الباب الشرقي:

يقع إلى الشرق من سور مدينة دمشق، وقد شُيدّ أيام الإمبراطور الروماني (سبتيموس سيفروس: Septemus-severus) ثم في عهد ابنه (كارا كالا- Caracalla) في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للميلاد. وهو بارتفاع (292) سم.

ويتألف من ثلاثة مداخل، أوسطها أكبرها، وعلى طرفيه، مدخلان أصغر وهذه المداخل تُفضي إلى:

الطريق؛ المستقيم، ويمتدّ هذا الطريق، من الباب الشرقي وباتّجاه الغرب حتى باب الجابية، بطول (1500)م وعرض (25.92)م. وعن يمين وعن يسار هذا الطريق، رواق بعرض (6.80)م. ويقوم كل رواق على أعمدة ضخمة من الطراز الكورنثي. وكان يستخدم أحد الرواقين لمن يُشرّق بدابّته، والآخر لمن يغرّب. وكان الطريق الأوسط للناس، ويتخذ كل من الرواقين للبيع والشراء.

ويتعامد الشارع المستقيم عند قوس النصر "التترابيل" القائم حالياً في محلّة الخراب، مع شارع آخر يقطع دمشق من الشمال إلى الجنوب.

وقد سُدّ الباب الأوسط الكبير، والباب الصغير الجنوبي لباب شرقي.. وبقي الباب الشمالي الصغير مفتوحاً. وقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف، باعادة رفع الباب الشرقي، بأقسامه الثلاثة إلى ما كان عليه.

وتعود شهرة الباب الشرقي، إلى أيّام الفتح الإسلامي لمدينة دمشق، سنة (14) للهجرة، يوم طوّقت جحافل المسلمين دمشق، وضرب خالد بن الوليد خيامه، قبالة الباب الشرقي، وحاصر الباب نحو سبعين يوماً. نازل خلالها الفرسان المسلمون صناديد البيزنطيين، حتى استطاع خالد، دخول دمشق من هذا الباب على أسنّة الرماح...

ومـــن هـــذا الباب دخل نور الدين زنكي، لمّا ضمّ دمشق إلى إمارته سنة (549)هـــ. وفـــي عهـــد نور الدين أيضاً، جُدّد الباب الشرقي، ورُفعت فوقه مدامـــيك، زادت فـــي تحصينه، كما دُعمّ بقوسٍ بعضادتين، ورفعت فوقه مئذنة مـــربّعة، وبُنـــي وراءه مســـجد، كما أقيمت أمامه باشورة (سويقة)، أُزيلت في بدايات القرن العشرين.

ويُعـــدّ الباب الشرقي، الباب الوحيد من أبواب دمشق الذي لم يجرِ تعديله، وبقي كما تركه الرومان.

2-**باب الجابية:**

ويُعـــرف بالـــباب الكبير، وهو بالجهة الغربية من سور دمشق، ويُعدّ توأم الـــباب الشرقيّ، ويربط بينهما الطريق المستقيم الآنف الذكر. وموقعه اليوم إلى الشـــمال الشـــرقيّ مـــن مســـجد سنان باشا، وبجانب باب الجابية، تربة تسمى المدفونـــة فيها: السيدة جابية. وبالطبع ليس لهذه التربة علاقة بباب الجابية، وقد أُطلـــق الاسم على البابْ، نسبة لقرية الجابية بظاهر دمشق آنذاك، لأن الخارج من السور إلى قريةِ الجابية، يخرج من هذا الباب.

وارتفـــاع بـــاب الجابـــية (283)سم، وبُني بحجارة ضخمة، وتُظلّله قوس عربـــية.. وكـــان لـــه شأن، كالباب الشرقي أيام الرومان، ولباب الجابية ثلاثة أبـــواب، بابان جانبيّان صغيران، والأوسط كبير وضخم.. ومن هذا الباب تمتدّ المسالك الثلاث المشكّلة للطريق المستقيم.

وقد سُدّ الباب الكبير الأوسط لباب الجابية، وكذلك الباب الصغير الذي يقع إلـــى جهة الشمال من الباب الأوسط. وبقي الباب الصغير الجنوبي مفتوحاً حتى يومـــنا هذا. وبالقرب من باب الجابية كانت سويقة (باشورة) يشغلها الآن سوق النسوان.

وكـــان لـــباب الجابية شهرة، لا تعدلها إلاّ شهرة الباب الشرقي، فعلى هذا الـــباب، عســـكر أبـــو عبيدة الجراح بجنده، يوم فتح دمشق، ومنه دخل دمشق صـــلحاً، والـــتقى بجند خالد بن الوليد، في منتصف الطريق المستقيم في موقع (المقسلاط) بعد رأس سوق البزوريّة.

3-**باب توما:**

يقـــع بالجهـــة الشـــمالية الشرقية من سورِ دمشق، بناه الرومان لمّا احتلّوا دمشـــق سنة (64) ق. م في موقع باب يوناني. وينسب الباب إلى: القديس توما

الرسـول، أحـد تلامـذة السيد المسيح عليه السلام. وكان ارتفاعه (438)سم، وعرضه (322) سم.

وقـد تعرّض باب توما لزلزال ضرب دمشق في عهد الإمبراطور هرقل، فقـام البطريق (توما) حاكم سورية في ذلك الحين بتدعيم الباب. فذهب بعضهم إلى نسبته إليه خطأً.

وقد نزل عليه عمرو بن العاص يوم فتح دمشق سنة (14)هـ، وشيّد عليه عـبد الله بـن درّاج بُرجاً عُرف باسمه. كما أقام نور الدين عند الباب مسجداً، ورفع فوق الباب مئذنة لا تزال قاعدتها، وبعض درجها ماثلاً.

فلما كان العهد الأيّوبي، كان الباب قد تشعّث، فأمر الملك الناصر داود بن عيسـى بإعـادة بـنائه سـنة: (625)هـ. كما أمر الأمير تنكز نائب السلطنة المملوكـي بدمشـق، بإصـلاح الباب، وجعل ارتفاعه عشرة أذرع. وما زالت قاعدته من الأحجار الضخمة تعلوها القوس العربية المخمّسة المحدثة.

وقـد أزيل المسجد في بدايات الاحتلال الفرنسي لسورية، كما أزال المئذنة المهندس الفرنسي ايكوشار قبيل الحرب العالمية الثانية تنفيذاً لمخططه في إعادة تنظـيم مـنطقة بـاب توما.. وهو إجراء يستوجب الكثير من الشك في مرامي ايكوشار ومخططاته لمدينة دمشق.

وكـان أمـام الـباب بقايا جسر روماني، أزيلت معالمه بعد تنظيم الساحة المحيطة بباب توما.

4-باب الفراديس:

وهـو الباب المعروف في أيامنا باسم "باب العمارة"، ويقع بالجهة الشماليّة مـن سـور دمشـق، وارتفاعه (431) سم، وعرضه (350) سم وعُرف باسم الفـراديس نسـبة إلى محلّة الفراديس، التي كانت قبالة الباب، وهي محلّة تتميّز بالقصـور والبنيان، والرياض والبساتين، وباب الفراديس باب مزدوج، يتكون مـن بابين، باب داخليّ، يعود إلى العهد الروماني، وباب خارجيّ مُحدث، يعود إلى منتصف القرن السابع للهجرة، أيام الملك نجم الدين أيوب، وذلك بعد إنشاء سـور آخر لدمشق، مسايراً لمجرى نهر العقرباني (المشتقّ من نهر بردى) في المـنطقة الممـتدّة بيـن باب الفراديس في حيّ العمارة الجوانيّة، و باب الفرج بالمناخلية.. الأمر الذي أدّى إلى وجود سُويقة بين البابين، وبالتالي وجود زقاق بين السور الروماني القديم، والسور المحدث عُرف باسم محلّة بين السّورين.

وقد جدّد باب الفراديس أيام الملك الصالح نجم الدين بن أيوب سنة (639)هـ.

5-**الباب الصغير:**

يقع الباب الصغير، بالجهة الجنوبيّة من سور دمشق، سُمّي بالصغير لصغر حجمه، فهو أصغر أبواب دمشق، ارتفاعه (373) سم وعرضه (250) سم. وهو يعود إلى العصر الروماني، وقد جدّده نور الدين، وأقام عنده مسجداً ومئذنة وباشورة. ولا يزال المسجد والمئذنة إلى اليوم، ويحمل اسم جامع الباشورة. ويقع خلف (جنوبيّ) الباب الآن. وكان لباشورة الباب الصغير، باب خارجيٌّ هُدم أيام العثمانيين.

جُدّد الباب الصغير، زمن الملك عيسى بن الملك العادل سنة (623)هـ.

وتوجد فوق قوسه العربية من الداخل، قوس أخرى تحيط بالكتابات المؤرّخة لهذا التجديد.

وقد أطلق العثمانيون على الباب اسم باب الحديد، لأنه بابه مصفحاً بالحديد. ومنهم من يطلق عليه اسم باب الشاغور.

البابان الإسلاميان بسور دمشق:

أما البابان اللذان أنشأهما السلطان نور الدين فهما: باب الفرج وباب السلامة.

1-**باب الفرج:**

وهو أحد أبواب الجهة الشمالية من سور دمشق، مما يلي باب الفراديس غرباً، أمر ببنائه نور الدين وسمّاه باب الخلاص، للُيسر الناجم عن فتحه، وعرف باسم باب الفرج، لما وجَده أهل دمشق من الفرج بفتحه. وقد بلغ ارتفاعه (381) سم وعرضه (305) سم. وهو باب مزدوج. الداخلي منه في سور دمشق الروماني. وقد جرى تجديده، زمن الملك الصالح أيوب سنة (639)هـ، كما قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف، بترميم القسم الداخلي من هذا الباب سنة (1948)م.

وهذا الباب الداخلي مزيّن بنقوش جميلة محفورة على عضادته اليسرى. في حين أخفت الحوانيت الصغيرة المقامة أمام عضادته اليمنى تلك النقوش.

أمّـــا الباب الخارجي (لباب الفرج) فأنشئ بالسور المحدث الملاصق لنهر العقربانـــي المشـــار إليه، وهو باب ضخم مستطيل، أمامه عضادتان كانت تقوم عليهما قوس. وقد نُحتت على العضادتين من الشرق إلى الغرب زهرة اللوتس.

وبيـــن البابين قامت طاحونة، كما أُقيم بجوار باب الفرج الخارجي مسجد صغير يُعرف باسم مسجد باب الفرج.

وقـــد أطلـــق العثمانيون على هذا الباب اسم "باب البوابيجيّة" لقرب السوق الـــذي يُصـــنع فيه هذا النوع من النعال الرخيصة من الباب، ويطلقون عليه في أيامـــنا اسم باب المناخلية لقرب سوق المناخلية من الباب، ويختزل العامة الاسم إلى باب المناخ..

2-**باب السلامة:**

وهو المعروف في أيامنا باسم باب السلام، أحدثه نور الدين، بسور دمشق مـــن ناحـــية الشمال، بين باب توما وباب الفراديس، سمي باسم باب السلامة، تفـــاؤلاً، لأن القتال من جهته، كان يصعب على الأعداء... فهو حصين ومنيع، ويُخفي وراءه الأشجار الكثيفة والجداول والمياه، التي تعوق تقدّم الأعداء.

وهـــو مـــن أجمل أبواب دمشق على الإطلاق، وقد جُدّد أيام الملك الصالح أيـــوب ســـنة (611)هـــ، كما قامت المديريّة العامة للآثار والمتاحف بسورية بترميمه.

أبواب دمشق الدارسة:

وهـــي الأبـــواب التي سُدّت أو أزيلت، وتتمثل في ثلاثة أبواب هي: باب كيســـان، وباب النصر، وباب الجنيق، ويذهب بعضهم إلى اعتبار باب الفراديس من هذه الأبواب الدارسة.

1-**باب كيسان**

وهـــو يعـــود لأيام الرومان، وبقي من أبواب دمشق حتّى أيام نور الدين. ويقع في الجهة الجنوبية من سور دمشق.

وقـــد أمر نور الدين بسدّه، وفتح باب الفرج بالجهة الشمالية لسور دمشق، بدلاً عنه، رغبة من نور الدين في الإقلال من الأبواب التي يمكن استخدامها من الجهـــة الجنوبية من السور، لعدم توفر الحماية الطبيعية لها، لأرضها المنبسطة قليلة العوائق الطبيعية أمام الغزاة.

بين السورين

وبقـــي بـــاب كيسان مسدوداً، إلى أن أعاد فتحه نائب السلطنة المملوكي، سيف الدين منكلي سنة (765)هـــ، وجدّد في داخله مسجداً كان مهجوراً يُعرف بمسجد الشاغوري (الشاذوري)، وعقد عنده جسراً فوق الخندق.

وفـــي فترة الانتداب الفرنسي على سورية، أُقيمت عند الباب، كنيسة بولس الرســـول، جعلوا الباب مدخلاً لها، وذلك تخليداً لذكرى نزول القديس بولس ليلاً من هذا الباب وتمكّنه من النجاة.

2-**باب الجنيق:**

كـــان هـــذا الـــباب أحد أبواب دمشق السبعة القديمة التي تعود إلى العهود الرومانـــية، ويقـــع فـــي الجهة الشمالية من سور دمشق، بين باب توما وباب السلام، وكان يُطلق عليه اسم: باب الميلاد في العهد البيزنطي..

والجنيق محلّة كبيرة كانت قبالة الباب بظاهر دمشق، وهي المعروفة اليوم بالفرّائيـــن (مكـــان دباغـــة فراء جلود الخراف التقليدية، قبل أن تنشأ الدبّاغات الحديثة).

وقـــد سُد باب الجنيق قبل الفتح الإسلامي لدمشق سنة (14)هـــ. بدليل عدم ورود اسم من نزل عليه، عند حصار المسلمين لدمشق.

3-**باب النصر:**

بـــاب النصـــر أحـــد أبواب دمشق في العصور الإسلامية، كان موقعه في الطـــرف الغربي لسوق الأروام، عند مدخل سوق الحميدية، وكان يُعرف باسم بـــاب الجـــنان، لكثرة البساتين والمروج الوارفة بالخضرة، الكثيرة المياه. وقد أزاله العثمانيون لدى إنشاء سوق الحميدية.

❐

المصادر والأبحاث:

1-سـليم عادل عبد الحق وخالد معاذ: مشاهد دمشق الأثرية- المديريّة العامّة للآثار دمشق: 1945م.

2-صـــلاح الدين المنجد: دمشق القديمة، أسوارها، أبراجها وأبوابها، المديريّة العامة للآثار: 1950م.

3-عبد القادر ريحاوي: مدينة دمشق، تراثها ومعالمها التاريخية دمشق 1969م.

4-عفيف بهنسي: دمشق، أقدم مدينة في العالم، مجلة التراث العربي – اتحاد الكتاب العرب، العدد (55-56) 1994م.

5-قتيبة الشهابي: أبواب دمشق وأحداثها التاريخية وزارة الثقافة، 1996م.

6-محمد عيسى: أبواب دمشق، شواهد خالدة على عراقة مدينة دمشق القديمة، جريدة الكفاح العربي بتاريخ 1999/10/18.

7-يوسف نعيسة: مجتمع مدينة دمشق ج (1)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. ط (1) سنة 1986م.

■■

الفصل الخامس

أسـواق دمشـق

حياة تتجدّد.. ومعين عطاء لا ينضب!!..

توضّع أسواق دمشق:

قـبل أن يمـتد عمـران دمشـق، وينطلق سكانها من شرنقتها إلى خارج سـورها، دعت الحاجة إلى قيام الأسواق التي تتوفر فيها حاجات الناس، وتبادل السلع مع الريف المجاور، وبين المنتج والمستهلك من أبناء دمشق.

انتشـرت هذه الأسواق في جنوبي الجامع الأموي وعند باب البريد، وباب الجابـية وسـوق الطويـل المعروف في أيامنا بسوق مدحت باشا. ومع توسّع عمـران مدينة دمشق وتزايد عدد سكانها، انتشرت أسواق أخرى، خارج سور المدينة في منطقة مسجد الأقصاب (مزّ القصب)، والعمارة البرانية، والشاغور، والميدان، وباب السريجة، وسوق ساروجة والصالحية.

كـان كـل سوق من تلك الأسواق، أشبه ما يكون متخصّصاً، بحاجة من حاجات الناس، فأصبح يُعرف بتلك الحاجة.

ارتباط الأسواق بالحرف:

ويعود ذلك إلى أن الصناعات والحرف، التي كانت بمدينة دمشق، تخضع فـي ذلـك الحيـن إلـى مـا يُعرف بمشيخة الحرف (الكارات) المسمّى بنظام الأصناف.

يومهـا كانت حرف دمشق تنتظم في إطار سلّم حرفيّ محكوم بتقاليد تُدير هـذه الحـرف، مـن أجل انتظام العمل بالحرفة أو الكار، وتوطيد العلاقة بين

العاملين فيها، من معلمين وصناع وأجراء.. على أساس من المودّة والمحبّة والإخلاص للحرفة. وبالتالي الحفاظ على جودة المنتج، والوقوف في وجه كل من يحاول الخروج عن تلك الأطر.. وذلك فضلاً عن توفير الثقة بين المنتج والمستهلك.

مشيخة الكارات:

كان لكل حرفة أو كار مشيخة (رئاسة)، أي شيخ كار ينضوي تحت لوائه معلمو الحرفة.. أما الصناع والأجراء، فكان كل واحد منهم يتبع المعلّم، أي صاحب العمل، فلا يخرج عن طوعه في إطار ذلك العمل.

ويساعد شيخ الكار عدد من المساعدين، الذي كانوا بمنزلة صلة الوصل بين شيخ الحرفة والمعلمين من جهة، وبين شيخ الحرفة ومشيخة الكارات من جهة أخرى، وكان لشيخ الكار، من أجل الحفاظ على سمعة الحرفة ومكانتها، أن يُلجم بل يعاقب كل من يخرج على تقاليد الحرفة، ولو أدى ذلك إلى إغلاق المنشأة (الورشة) أو التشهير والتجريص بصاحبها إذلالاً وامتهاناً.

ولشيخ الكار أيضاً أن يُجيز انتقال (ترفيع) الأجير إلى مرتبة صانع، وانتقال الصانع إلى مرتبة معلم. وذلك بحضور معلمي الحرفة وصنّاعها.. وفق أسس ومعايير مهنية وأخلاقية سلوكية متعارف عليها.. مع الأخذ بعين الاعتبار، أنّ الانخراط في غالب الحرف الشامية كان متوارثاً.

سوق لكل حرفة:

وفي هذا الإطار، وحتى يكون جميع العاملين في الحرفة (الكار) تحت نظر وملاحظة شيخ الكار، تجمعت كل حرفة في سوق خاصة بها، وعلى هذا كان هنالك سوق للنحاسين، وآخر للحدادين أو النجارين والخياطين، ومثله للصاغة والصبّاغين والقباقبيّة والمحايريّة والدباغين والزرابلية.

وأسواقٌ للمواد التي تدخل في نطاق المواد الأولية للحرفة (الكار) كسوق الصوف وسوق الحرير، وأسواق للسوائم والرواحل وحاجاتها، كسوق الخيل والغنم وسوق الجمال. فضلاً عن أسواق الأشياء المستعملة كسوق النسوان المعروف بسوق (قميلة) ميلة.

انحسار دور مشيخة الكارات:

فضـــلاً عـــن الدور المهني، فقد كان لمشيخة الكارات دوراً سلطوياً أمنيّاً ودينـــيّاً أيضـــاً.. وكـــان الدور السلطوي بين مدّ وجزر، في أواخر عهد الدولة العثمانية.. حتى إذا كان شهر نيسان من سنة (1912)، صدر قانون ألزم بوجود نظـــام مكـــتوب لكـــل حرفة... وقد دقّ هذا القانون أول مسمار في نعش نظام مشيخة الكارات، لأنّه جعل سريان نظام أي حرفة على العاملين فيها، مشروطاً بموافقة المجلس البلدي، المكوّن من وجهاء الأحياء وأعيانها.

وقـــد ألغـــى هذا القانون وظيفة شيخ الكار ومساعديه، وجعل الأمر مناطا بجمعـــية عامّـــة للحرفة تنتخب مجلس إدارة يدير شؤون الحرفة. وعلى رأس المجلس رئيس لا يُتوارث عمله أو منصبه.

وكان للمجلس البلدي المذكور، رفض قرارات مجلس الحرفة إذا وجد أنها مخالفـــة.. وله أيضاً مراقبة مالية الحرفة.. وله أيضاً أن يحل مجلس الحرفة إذا رأى ذلك...

لكـــن رئـــيس مجلس إدارة الحرفة ما لبث أن استأثر بجميع السلطات التي كانـــت لشيخ الكار وأصبح أعضاء المجلس يمارسون عملاً يشبه عمل الشاويش والنقيب في مشيخة الكارات.

تحرر أسواق دمشق عن الحرف:

وإذا كنا في هذا البحث غير معنيين بمتابعة سير الحركة النقابية في البلاد، فـــإنّ ما يهمنا هو القول، أن أسواق دمشق تحررت من الارتباط بتلك الحرف، وإن بقـــي عـــدد من ممارسي تلك الحرف على ما كانوا عليه من التجمّع.. فقد امـــتدت أسواق دمشق في أنحاء شتّى من المدينة، لكن أهم هذه الأسواق تمحور في الأماكن التي تتمحور فيها الحياة العامة، ومن أهم تلك الأسواق:

1-سوق الحميدية وما يتصل به وما يتفرع عنه من أسواق.

2-سوق مدحت باشا وما يتّصل به وما يتفرع عنه من أسواق.

3-سوق البزورية.

1-سوق الحميدية:

يُعـــدّ ســـوق الحمـــيدية مـــن أهم المحاور التي تزوّد الناس بحاجاتهم من

الملابس والأقمشة الفائقة الجودة، والإكسسوارات النسائية والمطرّزات، والتحف والمصنوعات الشرقية النحاسية.. فضلاً عن محالّ بيع البوظة (الإيمع) العريقة، والوجبات السريعة.. وغير ذلك مما يُقبل عليه زوّار دمشق عرباً وسيّاحاً..

يمتدّ سوق الحميدية من سوق المسكيّة عند الباب الغربي للجامع الأمويّ (البريد) شرقاً، وحتى جادة السنجقدار غرباً بطول (600)م وعرض نحو (15) م.

وسوق المسكيّة، عُرف بهذا الاسم، لتجمّع باعة المسك فيه، وكان يعرف بسوق الورّاقين، أو الكتبيين، قبل أن يصبح سوقاً للقرطاسية والكتب التراثية والشعبيّة.

قام سوق الحميدية في العهد العثماني، وكان إنشاؤه على مرحلتين:

- الأولى، في عهد السلطان عبد الحميد الأول، حين كان محمد باشا العظم والياً على دمشق. وتشمل هذه المرحلة القسم الغربي مما يلي سوق العصرونية.
- أما المرحلة الثانية، فكانت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، في زمن ولاية راشد باشا.

ثم جرت تغطية السوق على شكل جمالون، بالحديد والتوتياء، وقاية له من الحريق.

الأسواق المتفرعة عن شمالي سوق الحميدية:

ويتفرع عن سوق الحميدية العديد من الأسواق نذكر منها:

سوق العصرونية وسوق البورص، وسوق نصري، وسوق باب البريد، وهذه الأسواق جميعها تتعامد مع الجانب الشمالي لسوق الحميدية، وتمتدّ جنوباً بشمال. أما عن الجانب الجنوبي لسوق الحميدية فيتفرع سوق الحرير، وسوق الأروام، وسوق الخياطين.

سوق العصرونية:

ينسب سوق العصرونية، للمدرسة العصرونية، لصيق دار الحديث الأشرفية. ويتّجه هذا السوق شمالاً بجنوب متعامداً مع سوق الحميدية، ونجد في هذا السوق الأدوات المنزلية، للمائدة والمطبخ، كما نجد في ناحيته الجنوبية، محال للمصنوعات الشرقية كالنراجيل وطاولات النرد. أما في ناحيته الشرقية، ومقابل باب قلعة دمشق الشرقي، نجد بعض محالّ ألعاب الأطفال ومحال تصنيع أغلاق الحوانيت. في حين تكون محال لوازم النجارين وإكساء البيوت في الجهة الشمالية من سوق العصرونية.

سوق البورص:

تعود تسمية هذا السوق إلى ما كان يُمارس فيه، من أعمال الصيرفة.. أما الآن فهو لمواد التجميل والعطور والنوفوتيه، والملبوسات النسائية.

سوق نصري:

ونجـد فيه محالّ الخياطين والأجواخ، ومحال إصلاح ما تلف أو مُزّق من الملابس والسجاد (رتي)، فضلاً عن محال لوازم الحلاقين وألعاب الأطفال..

سوق باب البريد:

كانـت لهـذا السوق شهرة كبيرة، وله تاريخ عريق، أشاد به المؤرخون. وكـان مـن أجمل أسواق دمشق وأحسنها.. وتنتشر فيه في أيامنا، محالّ الكتب والقرطاسـية، فضـلاً عن المطاعم السياحية، ومحالّ الوجبات السريعة الشعبية والعصائر..

الأسواق المتفرّعة عن جنوبيّ سوق الحميدية:

يـتفرّع عـن الجهة الجنوبية لسوق الحميدية، أسواق منها: سوق الأروام، وسـوق الحريـر، وسوق الخياطين الذي يتصل بسوق الحرير ممتداً إلى سوق مدحت باشا.

سوق الأروام:

كان سوق الأروام يشغل بالأصل من القسم الغربي من سوق الحميدية، ثم انحسـر إلى سوق ضيّق موازٍ لسوق الحميدية، من جهة الجنوب... وتنتشر فيه محـالّ بيع البسط والسجّاد، والمفروشات القديمة، ذات القيمة التراثية التي يجهد المطـربازيون (الدلاّلـون) بالتدليل عليها والترغيب بها، للمزايدة على سعرها، من قِبَل من لا يعرف قيمتها..

سوق الحرير:

وهو من أهم الأسواق المتفرّعة عن سوق الحميدية من جهة الجنوب، أنشأه درويـش باشا عام (1574)م ومدخله من آخر سوق الحميدية مقابل سوق باب الـبريد، وتشتهر محالّه ببيع الأقمشة والمطرّزات والعطور واللوازم النسائية.. كما أن فيه عدد من الخانات، التي أصبحت في أيامنا مجمّعاً لعدد من الحوانيت التـي تشتهر ببيع الأقمشة.. ولعل أطرف هذه المجمعات ما يحتلّ القسم البراني

من حمام القيشاني..

ويتصل بسوق الحرير ويتفرع عنه عدد من الأسواق، التي تمتدّ حتى سوق مدحت باشا، ومن هذه الأسواق:

سوق الخياطين:

أنشـــأه شمســـي باشا، وقد جاء اسمه، من وجود عدد من خياطي الألبسة التقليدية السورية للرجّال من سروال وميتان وصدرية وصاية وساكو (مانطو). ويقـــع ضـــريح نور الدين زنكي (الشهيد) بين سوق الحرير وسوق الخياطين، ويتمـــيّز هـــذا الضـــريح بقبّـــته الفـــريدة المثال. وخاصة مقرنصاتها الداخلية والخارجيّة..

كمـــا تقع قريباً منه مدرسة عبد الله العظم التي تشغل في هذه الأيام مجمّعاً لحوانيت الصناعات التقليدية وبخاصة النحاسية منها.

2-سوق مدحت باشا:

وهـــو مـــن الأســـواق الرئيسة التي تتمركز فيها فعاليات تجارة الأقمشة، ويعرف هذا السوق باسم سوق الطويل أيضاً، وقد أنشأه والي دمشق مدحت باشا ســـنة (1878)م ويمـــتدّ من الغرب عند باب الجابية ثم نحو الشرق، حتى سوق الـــبزوريّة، وهو مغطى بسقف على شكل جمالون من الحديد المغطّى بالتوتياء علـــى غـــرار سوق الحميدية، حتى لا يناله الحريق.. ولهذا السوق امتداد حتى باب شرقي.. فهو في ذلك يوازي سوق الحميدية تقريباً، ويعلو الطريق المستقيم الذي كان يخترق دمشق بين باب الجابية وباب شرقي.

ولهـــذا السوق مكانة كبيرة أيام المماليك، وكان يعرف بسوق جقمق، ومن أهـــم معالم هذه الفترة الخان المسمّى باسمه (خان جقمق)، ولا يزال هذا الخان قائماً إلى أيامنا.

ويقـــوم علـــى جانبـــيّ السوق، حوانيت تشتهر بالنسيج الوطني والأقمشة الحريـــرية، كالصـــايات والعـــباءات والكوفـــيات والعكل (م: عقال) والمفارش والمسابل للتخوت، بالإضافة إلى الأغباني والدامسكو..

كمـــا يقـــوم علـــى جانبي السوق خانات قديمة ذات أبواب مشرّعة جميلة وأقـــواس بديعـــة، ومن ذلك خان جقمق المشار إليه، وخان درويش باشا، والي دمشـــق، المعـــروف بخان الحماصنة، وهو يعود إلى سنة (1732) م وقد أُخلي

مؤخـــراً تمهـــيداً لترمـــيمه وتوظيفه مجدّداً.. على غرار خان اسعد باشا بسوق البزوريّة.

ويتمـــيّز امـــتداد سوق مدحت باشا، بعد مدخل سوق البزوريّة بعدم وجود الســـقف الـــذي للقسم الغربيّ منه.. وتتواجد فيه محالّ للصناعات التقليديّة، التي تعالج النحاس وتكفتّه (تُطعمّه) بالذهب والفضة، وفي هذا القسم تقع تلّة السمّاكة عـــند محلّة مئذنة الشحم، وتُعدّ هذه التلّة، شاهداً على مكان تشكل مدينة دمشق، قـــبل آلاف الســـنين... وفي أحد الأزقّة المتفرعة عن شمالي السوق في القسم المكشـــوف منه، يوجد بيت عنبر المعروف بمكتب عنبر، وكان مدرسة ثانوية فـــي العهـــد العثمانـــي (1887) وتخرج من هذه المدرسة، العديد من رجالات سورية.. وقد رمّم مؤخراً وأصبح قصراً للثقافة تابعاً لمحافظة مدينة دمشق، كما اتّخذ جانباً منه، مقراً لبلديّة دمشق القديمة...

ويتصل بسوق مدحت باشا من جهته الجنوبية عبر معابر ضيّقة (حارات)، عـــدد مـــن الأسواق الصغيرة المتفرعة عن سوق مدحت باشا، كسوق النسوان وسوق القطن وسوق الصوف.

كمـــا يـــتفرع عنه من جهة الشمال، سوق الخياطين المشار إليه، وأسواق أخرى كسوق القيشاني وسوق الحرير، والقباقبيّة.

3-سوق البزورية:

وهـــو مـــن الأسواق الهامة بدمشق، وله دور كبير في تموين المدينة بما تحـــتاج إلـــيه مـــن سمن وزيت ورزّ وسكّر، ومواد تموينيّة أخرى على مدار الحـــول، وبخاصة في شهر رمضان المبارك. رغم إنشاء سوق مماثل لـــه في منطقة الزبلطاني..

وتأتـــي أهمـــية سوق البزورية من موقعه في قلب مدينة دمشق القديمة، حيث يتوافد السياح والزوار إلى هذه المنطقة لزيارة معالمها الأثرية التاريخيّة.. مما جعل للسوق مكانة كبيرة، فكان مقصد السيّاح والزوّار العرب والأجانب حيث يجدون فيه جـــوّ الســـوق الشـــعبي، ومتعة التسوق والتجول بين أبناء البلد على تنوع ملابسهم ومشـــاربهم، وذلـــك فضلاً عن الأماكن التي يحرص الناس والزوار والسياح على زيارتهـــا كقصر العظم متحف التقاليد الشعبية وحمام نور الدين، وخان أسعد باشا والمواقـــع الأخـــرى.. ويضـــاف إلى ذلك اعتبار سوق البزورية مؤديّاً إلى المسجد الأموي الكبير الذي يحرص الجميع على زيارته والتمتّع بمعالمه.

ولسوق البزورية سقف من التوتياء والحديد، وقاية له من الحريق وحماية للسوق وروّاده من حرّ الصيف وقرّ الشتاء وأنوائه. وكان يعرف بسوق القمح، ثم أطلق عليه اسم سوق العطارين، لكثرة وتنوّع محالّ العطور المحليّة والمستوردة منها.

وتباع في سوق البزوريّة السكاكر والمربيات وعلب الأفراح، ومجامع الحلويات الشاميّة والكلاّج.... فضلاً عن أنواع التوابل والبزورات اللازمة للمائدة. وأنواع الملبس والشوكولا، والقمر الدين والنوكا وراحة الحلقوم.. وأيضاً الشموع لجميع المناسبات..

وفي جميع الأحوال، يلعب سوق البزورية في أيامنا دوراً سياحياً، أكبر من الدور التمويني التجاري الذي كان له. وذلك بسبب موقعه وطبيعة معروضات محالّه، وذلك الخليط الفسيفسائي من أبناء البلد والزوار والسياح كما رأينا. فضلاً عن تعدّد وتنوّع مشاهده الأثرية وأوابده التاريخية، التي تشدّ الإنسان إليها..

4-أسواق جديدة:

واليوم، وقد انفتح عمران دمشق على جهاتها الأربعة أفقيّاً وعمودياً.. ودخلت في حدود المدينة ضواحي وقرى كانت بالأمس القريب من ريف دمشق.

صار من البدهيّ أن يرافق كل توسّع في العمران، نشوء أسواق جديدة تلبّي حاجات الناس ومتطلبات حياتهم.. وهذا ما لحظناه في منطقة المزّة، وكفرسوسة، ودمر وأبو رمّانه والمالكي والقصور والتجارة وبرزة... حيث قامت أسواق متميّزة تتناسب ومتطلّبات سكان هذه المناطق وطبيعة حياتهم، فكانت الأسواق الشعبية والأسواق الحديثة، على طريقة المجمّعات التموينيّة، والسوبّر ماركات الشاملة، التي تلبي جميع الحاجات، من مأكل وملبس ومشرب، وأثاث..

❐

المصادر والأبحاث:

1-عـبد الكريم رافق: مظاهر التنظيم الحرفي في بلاد الشام بالعهد العثماني. مجلة دراسات تاريخية، العدد (4) سنة: 1981.

2-عـبد الودود محمد يوسف: مجلة الحوليات الأثرية المجلد (19) ج (1-2) 1969 طوائف الحرف والصناعات.

3-قتيبة الشهابي: أسواق دمشق. وزارة الثقافة.1990

4-لـيلى صـباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، وزارة الثقافة. دمشق: 1973.

5-منير كيال: فنون وصناعات دمشقية. وزارة الثقافة. دمشق 1958.

6-يوسـف نعيسة: مجتمع مدينة دمشق. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ط (1) سنة 1986.

■■

الباب الثاني

الجامع الأموي

- **بناء الأموي.**
- **كسوة الأموي.**
- **الأموي والفاس.**
- **كوارث الأموي ومآسيه.**

الفصل السادس
بنـــاء الأمـــوي

زيارة الأموي:

تعدّ زيارة الأموي بدمشق، غاية ما يصبو إليه زائر دمشق، وقبلة ما تهفوا إلـــيه نفســـه، وتجـــيش به مشاعره، على ما لدمشق من معالم وأوابد حضارية وتراثـــية، تحتل مكان الأولويّة، لكل زائر ومقيم. فصيت هذا الجامع ملأ الدنيا، مـــنذ أن شـــيّده الولـــيد بن عبد الملك الخليفة الأموي. سنة (705)م، في أوج عصر دمشق الذهبي، يوم كانت الدولة الأموية لا تغيب عنها الشمس.

آية فن العمارة:

لقـــد جعـــل الولـــيد هذا الجامع، آية في فنّ العمارة السورية، بناءً وبهاءً واحـــتفال تنمـــيق... فكـــان أعظم مساجد الدنيا، حسناً وبهجة وكمالاً، حتى إنّ المـــرء، لو عاش مئة عام، وكان كل يوم، يتأمل هذا الجامع، لرأى في كل يوم فيه، ما لم يَرَهُ من قبل، من حسن الصنعة، وبهاء التنميق والتزويق.

وفـــي ذلـــك يقول العمري: في القرن الرابع عشر الميلادي، مخاطباً أهل دمشق:

"... لا ينبغـــي لأحـــد أن يكـــون أشدّ شوقاً إلى الجنّة من أهل دمشق، لما يرون من حسن مسجدها".

أرض الأموي:

بُنـــي الأموي على أرض كانت للعبادة منذ القدم، فعلى هذه الأرض، كان معبد حدد الآرامي منذ ثلاثة آلاف من السنين، وعليها كان معبد جوبيتر الوثني

الدمشقي أيام الرومان. وفي القرن الرابع للميلاد، كانت كنيسة يوحنا المعمدان...

فلما كان فتح دمشق سنة (635)م تقاسم المسلمون والنصارى الكنيسة، فأصبح الجانب الشرقي مسجداً، وبقي الجانب الغربي كنيسة، وأصبح المسلمون يؤدّون صلاتهم مع النصارى، على رنين النواقيس وأذان المؤذنين.

وفي سنة (86هـ -705م) أراد الوليد بن عبد الملك، أن يكون لدمشق مسجد يتناسب مع عظمة الدولة الأموية، في عصرها الذهبي. فضمّ القسم الذي كان كنيسة إلى المسجد، ومضى في مشروعه.

استغرق بناء الجامع عشر سنين، حُشد فيها عدد هائل من مهرة المعماريين والبنائين والنجارين والمرخّمين، من حذّاق فارس والهند والمغرب وبلاد الشام..

ويذكر المقدسي أنّه اجتمع في ترخيم الأموي، اثنا عشر ألف مرخّم، فضلاً عن أساطين العمارة السوريين.

عروبة البناء:

أمّا ما روي عن إسهام إمبراطور بيزنطة في بناء الجامع وكسوته، فأمر مشكوك فيه، فقد أشار عدد من الرحالة والإخباريين الذين زاروا دمشق، إلى طلب الوليد من إمبراطور بيزنطة، إمداد دمشق بالعمال المهرة، وبخاصة الفسيفساء لإنجاز هذا البناء.... وإنّ إمبراطور الروم استجاب لطلب الوليد... لكن تأمّل الفترة التي كان فيها بناء هذا الجامع تجعلنا نرى برأي الدكتور سليم عادل عبد الحق من أنّ العلاقة آنذاك كانت سيّئة بين العرب وبيزنطة، ومن الصعب التسليم بأن أباطرة القسطنطينية أسهموا في بناء أو تزيين مسجد للمسلمين أنشئ في موضع كنيسة من الكنائس المشهورة لدى بيزنطة. إلى آخر ما هنالك مما سنأتي على تبيانه في بحثنا عن كسوة الجامع الأموي...

مفخرة دمشق:

بلغت تكاليف البناء، أكثر من أحد عشر مليون دينار ذهبي (من نقد تلك الأيام) قُدّرت بخراج الشام سبع سنين، مع ثماني عشر سفينة ذهب وفضّة أقلعت من قبرص.

قال الناس، يومئذ: أنفد (بدّد) الوليد بيت مال المسلمين، في غير حقّه.

فلمـــا بلـــغ الولـــيد ذلك، جمع الناس. ونودي أنّ الصلاة جامعة. ثم صعد المنبر وحمد الله وقال:

أيها الناس قد بلغني أنكم قلتم، بأنّي أنفقت بيت مال المسلمين في غير حق. ثم طلب إحضار أموال بيت المال، فإذا هي تكفي سبع سنين مستقبلة. لو لم يرد إلى بيت المال دينار واحد ثم قال:

"يـــا أهل دمشق، إنكم تفخرون على الناس بأربع، تفخرون بهوائكم ومائكم وفاكهتكم، وحماماتكم، فأردت أن أزيدكم خامسة، هي مسجدكم هذا".

فحمدوا الله وانصرفوا شاكرين.

وفـــي نفـــس الوقت كانت رغبة الوليد تجديد بناء المسجد النبوي بالمدينة المـــنورة. فطلـــب من عمر بن عبد العزيز عامله بالمدينة المنورة، بناء مسجد يحاكـــي مسجد دمشق بأقسامه وفخامته... وأرسل إليه المال والبنائين، والرخام والفسيفساء لإنجاز ذلك.

قواعد الأموي

وقـــد نـــزل العمـــال بأرضيّة البناء، إلى قواعدها الأساسية، وجُعل تحت المســـجد أقباء معقودة، وعُمد منصوبة، وعضائد أُحكم بناؤها، وشدّت بسلاسل الأســـاس معاقدها، دون أن يدخل من البناء القديم، إلا الجدار الخارجي والبرج الشـــرقي والغربـــي الأماميّين، وبرجين آخرين في جهة الشمال. وقد هُدم هذان الـــبرجان، واســـتخدمت حجارتهمـــا لترميم الجدار القبلي (الجنوبي) من جهته الغربية سنة (728هـ) في عهد تنكز، وقامت مئذنة العروس على أعتابهما.

أمـــا البرجان الأماميان، فقد قامت على كل منهما مئذنة. واحدة في الشرق وأخرى في الغرب.

أقسام الأموي:

يمكـــن أن نميز في بناء الجامع الأموي، بين وحدات عمرانية. هي الحرم، والصحن بما فيه من القباب، ثم الأروقة والمآذن، وأخيراً الأبواب.

1-حرم الأموي:

يشـكّل الحـرم قاعة واسعة، تمتد من الشرق إلى الغرب، بطول (136)م ومن الشمال إلى الجنوب، بعرض (37)م. وجُعل الحرم ثلاثة أجنحة عرضانيّة، تمتدّ من الشرق إلى الغرب، وينصّفها جناح متوسط معترض، من الجنوب إلى الشمال، فيصل ما بين الصحن والمحراب، حاملاً قبة النسر.

قامت الأجنحة العرضانية الثلاثة على صفين من الأقواس الموازية للجدار الجنوبي، الذي يحدّد القبلة. وهذه الأقواس محمولة على (54) عموداً، لها تيجان كورنثيه لم يبق منها الآن سوى (40) عموداً، نتيجة لما تعرّض لـه الجامع من زلازل وحرائق، وتلك الأقواس تحمل أقواساً أخرى أصغر منها، بوساطة أعمدة أصـغر وتـتخلل الأقـواس الكـبرى ثمانية أرجل جصيّة، واثنتان مرخّمتان ملتصـقتان بالجدار الشمالي للحرم، مما يلي الصحن. وأربع دعائم مرخّمة أبدع ترخيم، مرصّعة بفصوص من الرخام المشقف.

قبّة النسر:

نُظمت خواتيم، وصُوّرت محاريب وأشكال، في الجناح الأوسط المعترض للأجـنحة العرضانية لحمل قبّة النسر (الرصاص) مع القبة التي أمامها مما يلي المحراب الكبير، والقبّة التي تتصّل بالجدار الشمالي للحرم مما يلي الصحن.

ويُعـد ابـن جبير قبة النسر هذه، أبدع ما في الجامع، من عظَم استدارة، وسـمّو ارتفـاع. إذ يبلغ قطرها (16)م ويصل ارتفاعها إلى (45) متراً. وهي محمولة على أربع دعائم ضخمة، وترتكز على تلك الدعائم قناطر محدّدة بعقود محكمة على المحراب الكبير، ولها رقبة مثمنّة بكل ضلع فيها نافذتان مزججتان بزجاج ملّون بديع وهي مذهبة الباطن.. وأركانها من الرخام.

وقال فيها النابغة الشيباني:

وقـبّة لا تكـاد الطـير تـبلغها أعلـى محاريـبها بالسـاج مسقوف

لها مصابيح فيها الزيت من ذهب يضيء من نورها (لبنان) و(والسِّيْفُ)

وقد رسمت هذه القبّة وجدّدت، بعد حريق سنة (461هـ -1081م) في عهد نظـام الملـك وزير ملك شاه السلجوقيّ، كما جُدّد ركنان منها في عهد صلاح الديـن الأيوبـي سـنة (575هـ -1177م). وأصلحت دعائمها سنة (602هـ - 1202م) من جهة الشمال.

محاريب الحرم:

بالجدار الجنوبي للحرم أربعة محاريب، فبعد مدخل المئذنة الشرقية (مئذنة عيسى): المحراب المالكي، وهو المحراب الذي كان للجامع قبل أن يبنيه الوليد.. وهو المعروف بمحراب الصحابة.

وعند عمارة الوليد للجامع، أُنشئ المحراب الكبير، وخُصّ به الخطيب، وقد زُيّن أبدع تزيين، بالرخام المرصّع، بفصوص من الصدف والمرمر الملوّن، وهو أول محراب في الإسلام. وفي سنة (617هـ) نُصِبَ محراب الحنابلة بالرواق الغربي عند باب الزيادة. وعمل محراب الشافعي سنة (728هـ) بأمر من تنكز نائب السلطنة المملوكي.....

مقاصير الحرم:

وفي حرم الجامع ثلاث مقصورات، الأولى: مقصورة الصحابة، وهي أوّل مقصورة وُضعت في الإسلام، وإلى الشرق منها كانت خزانة من الكتب، بها مصحف عثمان (رضي الله عنه). وقد وضع معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي هذه المقصورة.. وبإزاء محرابها من جهة اليمين باب كان يدخل منه معاوية إلى المقصورة. ومنها إلى المحراب. وخلف تلك المقصورة دار معاوية الخضراء.

فلما شمل الجامع القسم الذي كان كنيسة، صارت مقصورة الصحابة طرفاً من الجانب الشرقي للجامع، وشمل ذلك المنبر والمحراب.

فأحدثت مقصورة أخرى، مكان الجدار الفاصل بين جانب الكنيسة والجامع.

كما أحدثت على الجانب الغربي من ذلك الجدار مقصورة أخرى هي مقصورة الحنفية، وبها يجتمعون للتدريس ويصلوّن. وبإزائها زاوية كانت محدقة بالأعواد، كأنها مقصورة صغيرة. وبالجانب الشرقي منها، زاوية أخرى على هذه الصفة، كالمقصورة، وكان وَضعها للصلاة فيها أحد أمراء العثمانيين، وهي لاصقة بالجدار.. فضلاً عن هذا، كان بالحرم عدّة زوايا...

سقف الحرم:

أما سقف الحرم، فتغطيه ثلاثة أسقف سناميّة، تمتّد شرقاً بغرب.

باستثناء مكان سقف الجناح الأوسط من الحرم الذي تُغطّيه قبّة النسر

والقبة التي إلى الجنوب منها والقبّة الأخرى التي بشماليها، فالسقف هنا يمتد جنوباً بشمال.

وتستند جسور هذه الأسقف (الجمالونات السنامية) على جسور عرضانية أفقية، تعمل على تخفيف الوزن عن القواعد الحاملة للسقف. وقد شدّت فراغات تلك الجمالونات، من الجهة المطلّة على الحرم بألواح من الخشب الثمين، مشكّلة أشبه بما يُعرف بالطوان الداخلي، وهو مطليّ بزخارف تزيينيّة وأزاهير وعروق نباتية جميلة.

سطح الحرم:

أما السطح الخارجي لتلك الجمالونات، فقد كسيت فوق خشب الطبق، بطبقة رقيقة من التراب الرطب المرصوص المسمّى (البلّة) فوقها طبقة أرقّ من التراب الأحمر المجبولة بالتبن وقشر القنّب المفروم. وغطي ذلك بشقاق (صحاف) من الرصاص. ويُذكر أنهم حين شرعوا بذلك، جمعوا الرصاص من البلاد، وبقيت مساحة، لم يوجد لها رصاص إلاّ عند امرأة أبت أن تبيعه إلا بمثل وزنه ذهباً، فقال الوليد: اشتروه ولو بوزنه مرتين، ففعلوا، فلما قبضت الثمن قالت:

إني ظننت أنّ صاحبكم ظالم في بنائه، فلما رأيت إنصافه، فإني أشهدكم أنّه لله، وردّت الثمن..

وجدير بالذكر توافق هذه القصّة مع قصّة بناء مئذنة العروس الآتي ذكرها.

حرم الأموي في أيامنا:

بقي أن نقول، أن ما أصاب الأموي، من زلازل مدمّرة وما حلّ به من حرائق، مما سنأتي على ذكره، إن حرم المسجد، على ما بذله أسلافنا، وما قامت به الجهات المختصة في عصرنا، إن هذا الحرم اليوم غير الحرم الذي قدمه لنا، أسلافنا من الرحالة والإخباريين.

فأعمدة الحرم اليوم أقلّ بعشرة أعمدة عن الأعمدة التي كانت للحرم يوم زار ابن جبير دمشق في القرن السادس للهجرة سنة (580)هـ.

وإذا كانت الدعائم المرخمة التي تتوسط الجناح الأوسط وتحمل قبّة النسر لا تزال قائمة، فإن كثيراً من المعالم في هذا الجناح قد استعيض عنها، ببدائل

غيّرت الشكل والتكوين الذي كانت عليه.

فالقبة الجنوبية التي تتقدم قبّة النسر، وتشكل رأس النسر، وكانت فوق المحراب، هذه القبّة لم تعد موجودة، وبالتالي أصبحت الأقواس الحاملة لتلك القبة تحمل سقفاً خشبياً، يرتكز على أعمدة خشبيّة عرضانية، وهو مكسّو بسجّادة بديعة من نقوش وزخارف الدهان العجمي. وبالتالي فإن الجدار الجنوبي في هذا الجناح، والأقواس التي تحمل ذلك السقف، خالية من الزخارف والنقوش بل والفسيفساء. ولم يبق في كامل الجدار الجنوبي للحرم إلا ثلاث نوافذ من الزجاج المعشق قائمه فوق المحراب. وفوق نوافذ الزجاج المعشّق هذه خمس نوافذ أصغر منها مزّجزة بألوان الزجاج، بشكل متناظر، وعلى طرفي الجناح الأوسط من الحرم، نوافذ أخرى بواقع (21) نافذة بكل جانب، ويقابلها في الجدار الشمالي العدد نفسه من النوافذ. وقبّة النسر نفسها فقدت رونقها الذي كانت عليه، وإن حافظت على شكلها العام. أمّا القبّة التي كانت إلى الشمال من قبّة النسر (مؤخرة النسر)، فقد أتت النيران عليها أيضاً واستعيض عنها بسقف مماثل لسقف القبّة الجنوبية، التي كانت فوق المحراب، كما أن بأعلى جدارها الفاصل بين الحرم والصحن ثلاث نوافذ من الزجاج المعشق مماثلة للنوافذ التي بالجدار الجنوبي.

2-صحن الأموي

صحن الأموي، فناء واسع طوله (122.5)م وعرضه (48)م. تتوسطه بحرة للوضوء في الوسط، وقبّة الخزنة في الغرب، يقابلها قبّة زين العابدين في الشرق، ويطيف به ثلاثة أروقة من الشرق والغرب والشمال.

بلاط الصحن:

أرض هذا الصحن كانت مفروشة كلّها بالفسيفساء (الحجرية)، لكن الحريق الذي ألمّ بالأموي سنة (461)هـ كما سنرى.. أتلف هذه الفسيفساء، وأبقى أرض الجامع طيناً في الشتاء، وغباراً في الصيف، إلى سنة (600)هـ فهدمت القنطرة الرومانية، ونشرت حجارتها، وبُلّطت بها أرض الصحن، في عهد صفي الدين وزير العادل.

ثم جُدّد البلاط سنة (623)هـ مما جعل سويّة أرض الصحن أعلى مما كانت عليه أيام الوليد.

كمـــا جـــدد الـــبلاط قبل حريق سنة (1300)هـ بعشر سنوات.. وفي سنة (1964)م بلّـــط الصـــحن بالحجر المزاوي المصقول ولا يزال حتى أيامنا. وقد روعي في بلاط سنة (1964)م أن يكون ارتفاع أرضيّة الصحن أقرب ما يمكن إلى سويّة الأرض أيام الوليد.

وحدثنـــي السيد أكرم الشوا، الذي قام بتنفيذ التبليط، أنه لاحظ في أكثر من مكان بالصحن بقايا رصف الفسيفساء التي كانت لأرضية الصحن أيام الوليد.

قباب الصحن:

***قـــبّة الخزنة:** في صحن الأموي، ثلاث قباب، أكبرها القبّة التي بناحيته الغربية، وهي أكبر القباب بالصحن، وتسمى قبّة عائشة أم المؤمنين (ﷺ).

تقـــوم هـــذه القـــبة على ثمانية أعمدة، لكل منها تاج كورنثي، وفوق هذه الأعمـــدة إفريـــز يشـــبه الأفاريـــز الرومانية. وبناء جذع القبّة يشبه الأساليب المعهـــودة فـــي بـــناء المنشـــآت البيزنطية، من ناحية "تتابع الأحجار المنحوتة المتعاقبة مع صفوف من الآجرّ.... وكانت هذه القبّة مكسوّة بالفسيفساء.

ويذكر ابن جبير أن هذه القبّة كانت مزخرفة بالفصوص والأصبغة، كأنها الروضـــة حســـناً، وعلـــيها قبّة رصاص، كأنّها التنوّر العظيم الاستدارة. وهي ترتفع إلى علو (9.95)م.

ويقال أن مال الجامع كان يخزن بها، وقد بلغت عائدات ومستغلاّت الجامع ومجابيه، خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً كل سنة.

أما تاريخ بناء القبة، فهناك من يذهب، إلى أن البناء يعود إلى زمن الوليد، علـــى حيـــن يُســـند العلموي البناء إلى الفضل بن صالح بن علي حاكم دمشق العباسيّ آنذاك.

فُتحـــت قـــبّة الخـــزنة ســـنة (922)هـ، أيـــام سيباي، فوُجدت فيها أوراق ومصـــاحف بـــالخط الكوفي، كما فتحت سنة (1306)هـ، فوجدت فيها مصاحف ومخطوطات نقلت إلى استنبول .

وآخـــر مـــرّة فتحت فيها القبّة كان سنة (1964)م أثناء التبليط الذي جرى للصـــحن في ذلك التاريخ، فأخرج ما كان فيها من أوراق وإيصالات وعمد إلى إحراقها، فتطاير الكثير منها.

سوق الحميدية بالألوان المائية

سوق الحميدية مؤخرا

سوق مدحت باشا

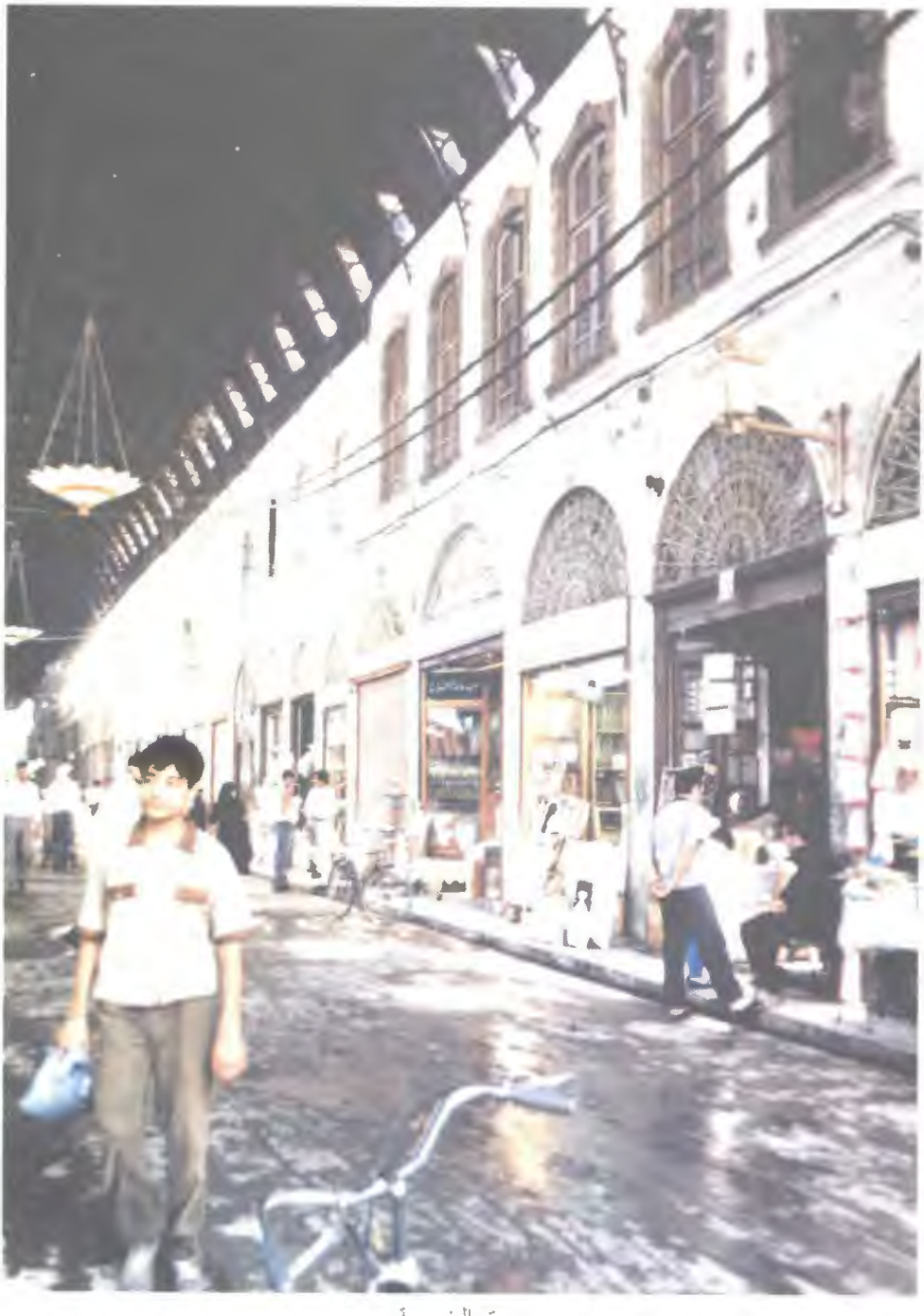

سوق البزورية

دمشق و الجامع الأموي باتجاه الجنوب

فسيفساء الجامع الأموي ، مدخل قبة النسر من الصحن

حرم الجامع الأموي .

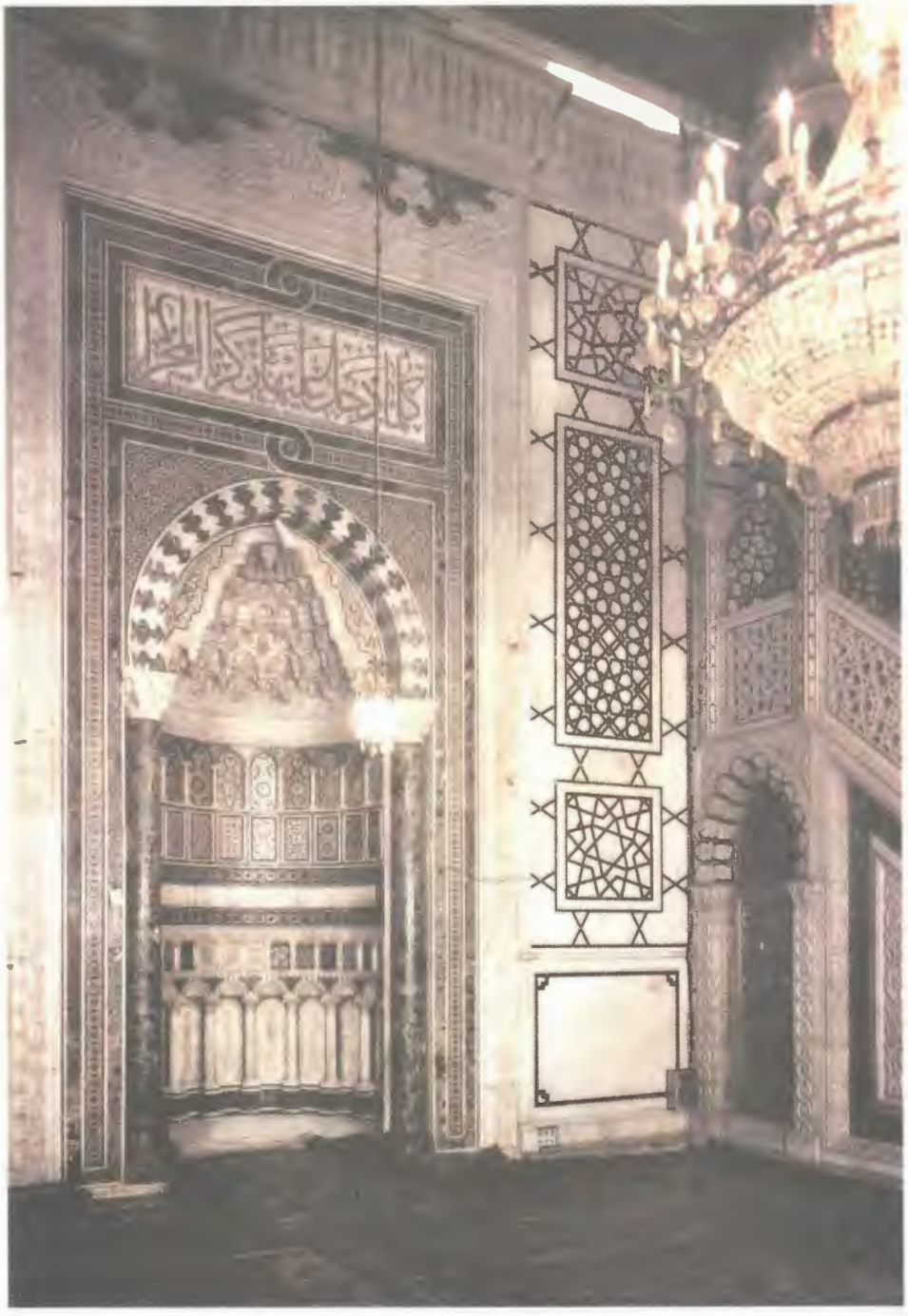

المحراب الكبير بالجامع الأموي .

قبّة زين العابدين:

تقـــع قـــبّة زين العابدين، شرقيّ صحن الأموي، كانت تُسمّى قبّة يزيد. ثم أطلق عليها اسم قبّة الساعات، لأن ساعات الأموي كانت تُحفظ فيها.

وهـــي أيضـــاً تقوم على ثمانية أعمدة ذات تيجان كورنثيّة، على هيئة قبّة الخـــزنة، إلا أنهـــا أصـــغر.... ويعـــود إنشاؤها إلى سنة (160)هـ أيام الخليفة المهدي.

قفص الماء:

والقـــبّة الثالـــثة في صحن الأموي، تقع في وسط الصحن، وتُسمّى قفص الماء وتقوم على أربعة أعمدة رخام صغار، وتحتها شبكة حديد مستدير حولها، فـــي وســـطه أنبوب من الصّفر (النحاس الأصفر)، قال عنه ابن جُبير أنّه يمجُّ الماء فيرتفع ويتثنى كأنه قضيب لجين، فيشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً وتحسُّناً.

الأروقة:

يستدير بصحن الأموي من جهاته الشرقية والغربية والشمالية، ثلاثة أروقة محمولـــة على سبع وأربعين ركيزة، منها ثلاث عشرة مربّعة مكسوّة بزخارف جصيّة، وهي في الواقع عضادات حجرية.

وهـــناك مـــن يذهب إلى القول: أنّ زخارف تلك العضادات كانت بمنزلة امـــتحان عمليّ يقدّمه الصانع في حرفة (كار) الزخرفة بالجصّ، أمام شيخ كار هـــذه الحـــرفة، بحضور عدد من معلمّيها وصنّاعها من أجل (شدّ) ترفيع ذلك الصانع إلى درجة معلم في سلّم مشيخة الكارات بتلك الحرفة.

أما الـــ (34) ركيزة المتبقية، فهي أعمدة أسطوانية، وبمعدل عمودين بين كـــل عضادتين مربعتين.. وعلى تلك الأعمدة والعضائد أقواس نصف كروية، تحمـــل فوقها أقواساً أصغر تقلّها أعمدة صغار ترتكز عليها سقوف الأروقة من جهة، وعلى الجدران الخارجية من جهة أخرى.

ويلاحـــظ أن الرواق الشمالي بالصحن يستند على عضائد فقط، في قسمه الأوســـط، مقـــابل باب الناطفانيين (الكلاسة)، بسبب إعادة إنشاء هذا الباب في القرن الخامس عشر للميلاد.

أمـــا جـــدران هذه الأروقة، فقد أُزرّت بالرخام الأبيض والمجزّع والأحمر

المنقّط، والأخضر المرشوش، والأسود الغرابي والأبقع.

الواجهة الجنوبية للصحن:

ينفتح حرم الأموي على الصحن بـ (22) قوساً متصلة على طول الجدار الجنوبي للصحن، وعلى تلك الأقواس قسيّ (نوافذ) جصيّة مخرّمة، وخلف الجصّ زجاج ملوّن (معشّق). وجميع تلك النوافذ، على هيئة الشمسّيات، فتبصر العين من اتصالها، أجمل منظر وأحسنه. وكان على تلك الأقواس، ستائر قماشية، احترقت بحريق الأموي، فاستبدلت بمصاريع خشبية.

أما القسم المعترض بالحرم، الذي تحت قبّة النسر، فينفتح على الصحن بباب ضخم واجهته مغطّاة بالفسيفساء.

3-مآذن الأموي

كان لمعبد جوبيتر الدمشقيّ، أربعة أبراج، بكل ركن من أركانه برج، فلما بنى الوليد الجامع، رفع فوق قواعد البرجين الأماميّين مئذنتين، واحدة في شرقي الجامع، والثانية في غربيّه. وبنى وسط الجدار الشمالي للصحن مئذنة ثالثة.

وقد هُدم البرجان الشماليان، في زمن تنكز سنة (728)هـ لترميم الجدار الجنوبي لحرم الجامع من ناحيته الجنوبية الغربية.

فللجامع والحال هذه ثلاث مآذن، واحدة في جهته الجنوبية الشرقية، والثانية في جهته الجنوبية الغربية، والثالثة في جهة الصحن الشمالية، وقد تعرضت لعمليات تجديد وترميم في مراحل مختلفة، نتيجة لما أصاب الأموي من كوارث وحرائق ونكبات وزلازل.

وكانت آخر عمليات الترميم خلال العقد الأخير من القرن العشرين في عهد الرئيس حافظ الأسد.

أ-مئذنة العروس:

أقامها الوليد وسط الجدار الشمالي لصحن الأموي، وهي تمثّل الأنموذج السوري لعمارة المآذن... الذي تأثّرت به بلاد المغرب والأندلس.

تُعرف هذه المئذنة بمئذنة الكلاّسة. لإطلالها على حيّ الكلاسة من قرب. كما تُعرف بالمئذنة البيضاء، لأنها كانت مطليّة باللون الأبيض. وقد جعلها

الوليد مذّهبة كلّها، من أعلاها إلى أسفلها.

وجـرى عليها ترميم وتجديد. فقد احترقت في حريق مدرسة الكلاسة سنة (570)هـ فجدّدهـا السـلطان صلاح الدين الأيوبي، كما جدّد قسمها العلوي في العهـد العثماني ومن هذه المئذنة، يرفع أذان الجماعة بالأموي، فتقتدي به مآذن مساجد دمشق وجوامعها.

وقد سُمّيت هذه المئذنة بالعروس لكثرة ما كانت تتلألأ بأنوار الفوانيس في المناسبات الدينية والأعياد.

ومن طريف ما ذكره الخياري لدى زيارته دمشق في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة، في تسمية هذه المئذنة بالعروس، قوله:

لمّـا تمّـت عمارة الجامع طلبوا رصاصاً لتغطية سقفه، فلم يجدوه إلا عند امـرأة من بنات التجار، فطُلب منها ذلك، فامتنعت عن بيعه، إلا أن تُعطى زِنته فضّة، فوافقها الوليد على ذلك. ووُزن لها ما طلبت، فلما رأت ذلك قالت:

هذا ملك عادل، وخطبته لنفسها، ثم أعطت المال لبناء هذه المئذنة.

2-المئذنة الشرقيّة

وهي المعروفة بمئذنة سيدنا عيسى عليه السلام، للاعتقاد أن السيد المسيح سيبعث في آخر الزمان، وينزل على المئذنة البيضاء شرقي دمشق.. كما تُعرف باسـم مـئذنة النوفرة، أو مئذنة جيرون نسبة لحي النوفرة المعروف قديماً بحيّ جيرون.

رفـع الولـيد هذه المئذنة على قواعد البرج الأماميّة الشرقية، التي كانت لمعـبد جوبيـتر الدمشقيّ. وجعل بابها من حرم الجامع، وكان بأسفلها دورات مـياه، وأماكـن وضوء واغتسال للمعتكفين والملتزمين بالجامع.. وقد تعرّضت هـذه المـئذنة لكثير من التهديم بسبب الزلازل التي ضربت مدنية دمشق. ومن ذلك:

زلـزال سـنة (570هـ -1201م) وزلزال سنة (1173هـ -1759م) اللذان أديا إلى سقوط هذه المئذنة كما تعرّضت لكثير من الحرائق أيضاً. ومن ذلك ما كان من حريق سنة (646هـ) فأعادها الملك الصالح أيوب وجعل ارتفاعها (65) متراً.

وهـي تخـتلف في شكلها عن ما تبقّى من قاعدتها الأصلية. وقد وصفها الخيّاري لدى زيارته، المشار إليها، إلى دمشق بقوله:

عظـــيم وضـــعها، شامخ رفعها، مربعة في أسفلها وأساسها، فشملت على أماكن كالأواوين.

3-المئذنة الغربية:

رفع الوليد هذه المئذنة، فوق قواعد البرج الأمامي (الجنوبي) لمعبد جوبيتر الدمشـــقي، مـــع المئذنة الشرقيّة. وتعرف بمئذنة المسكيّة، لإطلالها على سوق المسكية.. وقال عنها ابن جبير بأنّها كالبرج المشيّد.

وكانـــت تحـــوي علـــى زوايا يسكنها أقوام من الغرباء. وفي أعلاها كان معتكف أبي حامد الغزالي.

لم تنج هذه المئذنة من الكوارث والحرائق التي أصابت الأموي. ومن ذلك حـــريق (803هـ) الذي أضرمه تيمورلنك يوم أحرق المدينة واستباحها، فسقطت المئذنة.

ومـــن ذلـــك أيضاً حريق سنة (887هـ -1482)م وأدّى إلى انهيار المئذنة ثانـــية.. فـــرممها الســـلطان فايتـــباي المملوكـــي سنة (1488)م على الطراز المصـــري. وآخـــر ترميم لهذه المئذنة كان في أواخر القرن العشرين في عهد الرئيس حافظ الأسد.

4-المشاهد والزوايا وملحقاتها:

يوجـــد خلـــف أروقـــة صحن الأموي عدد من المشاهد والزوايا والغرف الملحقة بالجامع. وتتوزع المشاهد على أركان الأمويّ الأربعة وهي على أسماء الخلفاء الراشدين.

فعلـــى يمين الخارج من باب جيرون، مشهد على اسم أبي بكر (ﷺ) يقابله بالطـــرف الشـــمال الشرقي (على يسار الخارج من ذلك الباب) مشهد على اسم الإمام عليّ كرم الله وجهه.

وجـــواره فـــي زاويـــة الرواق الشمالي، مقصورة بها جماعة من الفقراء تُعـــرف بالحلبـــيّة ثـــم مدرسة الكلاّسة، وشمالها المدرسة الأشرفية ثم المدرسة العزيزية. وجوارها التربة الصلاحية.

وبالجهـــة الشـــمالية الغربية، مشهد على اسم عثمان بن عفان (ﷺ) وكان يصـــلّي فـــيه نائب السلطنة المملوكي. وبهذا المشهد كانت تُعقد مجالس الأحكام الأربعة للفصل من القضايا المعضلة، التي لا ينفرد فيها حاكم.

وقد جُدّد هذا المشهد قاعة للاستقبال.. يليه غرفة هي مستودع حالياً، وكانت تسمى بيت الزيت، الذي كان يُقدّم في موسم الحج الشامي إلى الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة صحبة موكب محمل الحج الشامي إلى الديار المقدسة. ويقابل مشهد عثمان(ﷺ) مشهد لعمر بن الخطاب (ﷺ) إلى يسار الخارج من باب البريد.

أبواب الجامع الأموي:

كان لمعبد جوبيتر الدمشقي، أربعة أبواب. باب شرقي يعرف باسم باب جيرون، وآخر يقابله بالغرب يعرف باسم باب البريد. وآخر من جهة الجنوب يقابله باب من جهة الشمال. وقد بقيت هذه الأبواب مداخل للكنيسة قبل فتح دمشق..

أ-الباب الجنوبي:

لهذا الباب متسع كبير له أعمدة عظام، ويتكون من باب كبير في الوسط، وبابان آخران على جانبيه.

وكان معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، والخلفاء من بعده، قبل بناء الجامع الأموي، يدخلون إلى المسجد من الباب الأوسط الكبير، المؤدي إلى المقصورة التي خلف المحراب.

فلما بنى الوليد الجامع الأموي، صار الخلفاء يدخلون من الباب الأيسر الذي على يسار المحراب الكبير.. ثم ألغي هذا الباب الجنوبي وأحدث باب جنوبي آخر إلى الغرب منه عرف باسم باب الزيادة، وكان يطلق عليه اسم باب الساعات، ثم انتقلت تسمية الساعات إلى باب جيرون بعد نقل الساعات إليه. وقد شاعت تسميه الساعات أيام نور الدين سنة (580هـ) وظلّت حتى عهد المماليك.

وقد عُرف باب الزيادة باسم باب القوافين بسبب وجود هذا السوق بالقرب منه. ولهذا الباب مصراعان بسيطان، وكان بأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد (ﷺ) يوم فتح دمشق ومنه يُفضى إلى دار الخيل.

وعلى يسار الخارج منه: سوق الصفارين، وهم من يشتغلون بتطريق النحاس الأصفر، وهو سوق عظيمة، ممتدة مع جدار الجامع القبلي، وكان من

أحسن الأسواق بدمشق. وبموضع هذا السوق كانت دار معاوية وقومه، وتعرف بالخضراء..

وبالرحبة المتصلة بهذا الباب دكاكين لكبار الشهود لأصحاب المذاهب، ويكون في الدكان، الخمسة أو الستّة من العدول، والعاقد للأنكحة من قبل القاضي.. وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الورّاقين الذي يبيعون الكاغد (الورق) والأقلام والمداد.

2-الباب الشرقي:

وهو أعظم أبواب الجامع، ويسمى باب جيرون، وهو الاسم الذي كان يطلق على باب معبد جوبيتر الدمشقي الشرقي.

وعرف في القرن الخامس للهجرة، بباب الساعات، كما عرف بباب اللبادين ويطلقون عليه اسم باب النوفرة نسبة للنوفرة التي كانت في فسحة بيوت خلاء الجيرونية..

وهو من ثلاثة أبواب من خشب الصنوبر البالغ المتانة. وكان مصفحاً بالنحاس وله مسامير كبار بارزة، فلما كان حريق سنة (753هـ) نقل إلى المستودع، ثم فُقد، وقد قدّر المؤرخون عمره قبل الحريق بألف سنة.

وإلى يسار الخارج منه مشهد، كان فيه رأس الحسين (ﷺ)، ثم نُقل إلى القاهرة. وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز (ﷺ).

وقد انتظمت أمام هذا الباب درُج يجلس عليها المنجّمون وأضرابهم... وينحدر ذلك الدرج، إلى دهليز قامت على جانبيه أعمدة، عليها شوارع فيها دكاكين البزازين، وحوانيت الجوهريين والكتبيّين، وصناع أواني النحاس.

وعن يمين الخارج من الباب يوجد باب الساعات، بعد نقلها من باب الزيادة، وكان للساعات نظام دقيق فريد وصفه لنا ابن جبير في رحلته إلى دمشق سنة (580هـ) لكنها احترقت سنة (681)هـ، فصنع ابن الساعاتي غيرها، وهي التي حدثنا عنها ابن بطوطة، في رحلته إلى دمشق سنة (726هـ) فقال:

باب الساعات غرفة لها هيئة طاق (قوس) كبير، فيه طيقان صغار، مفتّحة على أبواب، على عدد ساعات النهار. والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة، وظاهرها بالصفرة. فإذا ذهبت ساعة من النهار، انقلب الباطن الأخضر ظاهراً

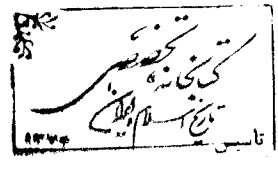

والأصفر باطناً.. ويقال: أن بداخل الغرفة من يقوم بذلك.

3- الباب الغربي:

يطلــق عليه اسم باب البريد، ويقع بمقابله الباب الشرقي (جيرون). وهذه التســمية نســبة إلى باب البريد الذي كان لمعبد جوبيتر، ولأنه ينفتح على محلّة باب البريد الآن.

كما يطلق على هذا الباب اسم المسكيّة لأن ينفتح على سوق المسكية، وهم باعة طيب المسك المتواجدون فيه.

وكان لهذا الباب دهليز، فيه حوانيت للشماعين، وسماط لبيع الفواكه. وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية، وبأعلاهُ أعمدة جوبيتر سامية في الهواء.

وهــو باب كبير لــه فرخان، عن يمين ويسار.. ولكلّ من الباب الأوسط الكبير والفرخين مصراعان، وهي جميعاً مصفحة بالصّفر المذهب. وعلى الباب والفرخيــن ثلاثــة أروقة، وكل باب ينفتح إلى رواق طويل عقدت قناطره على أعمدة رخام، وكسيت جدرانه رخاماً مجزّعاً لعلو قامتين، ثم الفسيفساء.

وقــد جدّد صلاح الدين باب البريد وباب جيرون (النوفرة) سنة (607هـ)، وركبــت عليها صفائح من النحاس الأصفر، كما جدد الملك الظاهر باب البريد سنة (673)هـ وفي سنة (719)هـ جلّيت الأبواب وحُسّنت.

4- الباب الشمالي:

ويعــرف أيضــاً باســم باب الناطفانيّين، وأطلقت عليه أسماء أخرى نذكر منها:

الفراديس لقربه من محلّة الفراديس بالعمارة.

السلسلة لوقوع دار السلسلة قربه، وكان الناس يستحلفون غُرماءهم على تلــك السلســلة فإن كانوا صادقين، بقيت على حالها. وإن كانوا غير ذلك ارتفعت!!!..

العمارة: لأنه يؤدي إلى حيّ العمارة.

الكلاسة: لأنه يفتح على حيّ الكلاّسة.

ولهــذا الباب مصراعان، وفي دهليزه زوايا على مساطب، كانت محاضر لمعلمــي الصبيان. وعن يمين الخارج منه، خانقاة الشميصاتيّة الصوفية. ويُقال

أنّها كانت داراً لعمر بن عبد العزيز (ﷺ).

وبالقرب من هذا الباب أقام عزيز عثمان بن صلاح الدين، المدرسة العزيزيّة وفيها مرقد صلاح الدين الأيوبي.. كما دفن فيها ياسين الهاشمي وعبد الرحمن الشهبندر وهما من رجالات دمشق.

ونشير هنا إلى الباب المحدث، بجوار الباب الشمالي، وهذا الباب المحدث يودي إلى مدرسة الكلاسة، التي أنشأها نور الدين سنة (555هـ). وقد احترقت بعد أمد يسير، فجدّدها صلاح الدين، وجدد مئذنة العروس.

ومن جهة أخرى لا بدّ من الإشارة إلى سقايات الجامع الأموي، فقد كان يستدير بالأموي أربع سقايات في كل جانب سقاية، وكل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية (دورات المياه) والماء يجري فيها.. وبطول صحن كل منها حوض مستطيل تصبّ فيه عدّة أنابيب من الماء.

وأكبر هذه السقايات، السقاية التي كانت بدهليز باب جيرون، المعروفة بالجيرونية حتى أواخر العقد الثالث من القرن العشرين. وكان فيها ما يزيد عن ثلاثين بيت خلاء....

ويأتي بعدها السقاية التي كانت بباب الناطفيين، والثالثة على يسار الخارج من باب البريد. والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة.

■■■

الفصل السابع
كسوة الأموي وزخارفه!!...

سخاء الوليد بن عبد الملك:

لـم يضنّ الوليد بالإنفاق على كسوة الجامع، وتزويقه وزخرفته. وقد ذكر ابـن حوقـل لـدى زيارته لدمشق في القرن الرابع من الهجرة أن الوليد "جعل أرض الجـامع رخامـاً مفروشاً، وجعل وجه حيطانه رخاماً مجزّعاً، وأساطينه رخامـاً موشّى، ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً، ودّور السقف كله ذهباً".. "وكان محـرابه مذهـباً مرصّعاً بالجوهر، وفي هذا المحراب وحوله فصوص عقيقيّة وفيروزجـية كأكـبر مـا تكون الفصوص.. أما السلاسل فقد جعلت من نحاس محلّى بالذهب، ورُتّب لـه من الشموع ما يوقد في أماكن مختّصة."

واصـطنع فـي صـحنه مجامر من أعمدة البخور.. ووكّل ذلك بأناس لا يفـترون لـيلاً ولا نهاراً... حتى كان يُشمُّ رائحة البخور من مسيرة فرسخين.. وكـان عدد شمسيّاته الزجاجية المذهبة الملوّنة (الزجاج المعشّق) أربع وسبعين، مـنها فـي القـبّة التي تحت قبّة الرصاص (النسر) عشر، وفي القبّة المتصلة بالمحراب عشر، وفي طول الجدار الجنوبي (القبلة)، عن يمين ويسار المحراب أربع وأربعون، وفي القبة التي بجدار الصحن ست...

رخاميّات الأموي:

يذكـر شيخ الربوة: أن ترخيم جدران الأموي من أعجب ما يراه الإنسان من أفانين.. كان من رخامه الملوّن العديد من الأنواع.

مـنها: الغرابـيّ، والمنقّط، والمشحّم، والأخضر، والسمّاقي "وقد عمل في ترخـيم الجـامع اثنا عشر ألفاً من المرخمين المهرة.. وتذكر الوثائق التاريخية

بكثـير من التفصيل أن جدران الأموي كانت مغطّاة بالرخام لعلوّ قامتين، ويدلّ علـى مكانهـا الآن، الثقوب التي كان الرخامون يحدثونها في حجارة الجدران والعضائد من أجل تثبيت ألواح الرخام على الجدران.

ومـن ذلـك مـا كان بطول (1 –2)م وهي مرصوفة بشكل متناظر مع تكويـنات هندسية رباعية أو دائريّة.. وكانوا يطلقون على ذلك الرخام المتناظر اسـم المجزّع، لوجه الشّبه بين الخطوط التي بشرائح الرخام مع الخطوط التي بشرائح جذوع الشجر.

ومن أعمال الرخام ما كان متمثّلاً بشريط زخرفي لعروق نباتية تفصل بين أعمال الرخام والفسيفساء.

وكانت كسوة العضائد والدعائم بالرخام تصل إلى السقف، وبخاصّة ما كان يحمـل مـنها قـبّة النسر والقبّة التي إلى الجنوب منها، والقبة التي إلى الشمال منها... وكذلك الدعائم التي بالجدار الفاصل بين الحرم وصحن الجامع.

أما عضائد الرواق الشمالي للصحن، التي تحمل الأقواس الحاملة للرواق، فقد كسيت بوزة من الرخام، تعلوها كسوة جصيّة ذات زخارف متقنة.

والملاحظ أن تلك الزخارف الجصيّة، لم تكن على نمط واحد، فهي مختلفة التكويـن بيـن عضادة وأخرى. وقد حدثني الشيخ حمدي الحلبي قيمّ الجامع في العقـد الخامس من القرن الماضي (العشرين)، أن زخرفة كل من هذه العضائد كانـت بمـنزلة امتحان عملي يجريه شيخ كار حرفة النقش على الجصّ؛ على الصنّاع المراد شدّهم في هذه الحرفة للانتقال من مرتبة صانع ليصبح معلماً في الحـرفة، وذلك بحضور شيخ كار الحرفة ومعلميها وعدد من الصنّاع بالحرفة. كما ذكرنا لدى الحديث عن الأورقة في الفصل السابق.

فسيفساء الجامع الأموي:

الفسيفسـاء مكعبات صغيرة حجرية أو زجاجية، ترصف بأشكال ورسوم وزخارف لتغطية أرض المعابد والقصور. وهي معروفة عند اليونان والرومان والبيزنطييـن. الذيـن استخدموا الفصوص الصغيرة من الحجارة الملونة لتبليط الأرض وتزيين الجدران....

وكانـت المواضيع التي يختارونها، مشاهد من الأساطير وصور الإنسان والحـيوان، وتخلـل هـذه المشاهد بعض الزخارف والتزيينات. أما الفصوص

الزجاجـــية، فقد شاع استعمالها في عهد البيزنطيين، وكانوا يزينون بها الكنائس والقصور.

ويعـــدّ القـــرن السادس للميلاد العصر الذهبي للفسيفساء، حيث كانت أهم أعمـــال الفسيفســـاء في مدن: رافنا، وروما وميلانو بشكل خاص.. فقد كسيت جـــدران في هذه المدن بمساحات واسعة من الفسيفساء الزجاجية الملونّة.. ومن ذلك كنيسة القديس فيتالي في رافنا. فلما كان عصر النهضة في أوربة استعيض عن الفسيفساء بالرسم الجداري والزيتي.

وبســـبب خضـــوع بـــلاد الشام لليونان ثم الرومان والبيزنطيين فقد عرف الصـــنّاع العرب الفسيفساء، وتعايشوا مع هذا الفن فأقاموا الأفران اللازمة لذلك فـــي بلادهم. وقد أظهرت الحفائر الأثرية عدداً من ألواح الفسيفساء. المحفوظة فـــي متاحف دمشق وأنطاكية والسويداء وحماة وشهبا.. وهي تعود إلى ما قبل العهـــد الأموي. مما يثبت مهارة الصنّاع السوريين وبراعتهم بالفسيفساء خلال عصور مُتعاقبة.. ومن هذه الألواح ما كان من الفصوص الحجرية، وبعضها لا يخلو من الفصوص الزجاجية..

فلمـــا جـــاء الإسلام حرّم تصوير كل ذي روح من إنسان وحيوان، فعمد الفـــنانون إلـــى تصـــوير مشاهد الطبيعة، وأتقنوا محاكاتها، وبرعوا في تركيب الألـــوان وتناســـبها، وصـــنعوا من أوراق النبات والأشكال الهندسية زخارف وأشـــكالاً بديعـــة. فأحدثوا بذلك شيئاً جديداً في فن الزخرفة والرسم ينسجم مع تعاليم الإسلام.

وقـــد استمرت الفسيفساء الحجرية زمن الأمويين، ففرش بها (بَلّط) صحن الجامع الأموي وربّما حرمه.

ثـــم شاع إنتاج المكعبات الزجاجية واتسع على نطاق واسع بفضل تشجيع الأمويـــين وولعهم بهذه الفسيفساء، وهذا الولع جعل الأمويين يدخلون الفسيفساء إلـــى مســـاجدهم وقصـــورهم بالبادية، ومن ذلك جوانب القنطرة المدوّرة وسط الواجهة الرئيسية لقصر الحير الغربي..

وقـــد تـــبدّى ولـــع الأمويـــن بهذا الفن أيام الوليد بن عبد الملك. بإدخاله الفسيفســـاء في تزيين الجامع الأموي بدمشق، بشكل لم يسبق لـــه مثيل.. الأمر الذي جعل الفسيفساء إحدى روائع تراثنا الحضاري.

تتمـــيّز أعمـــال الفسيفساء في الأموي بخصائص تقنيّة وتشكيلية وتعبيريّة

فريدة. فقد مكّن ارتباط هذه الفسيفساء بالبيئة والمعتقد والحياة.. من الكشف عن علاقة هذا الفن بالواقع، في مرحلة حضارية كان للعرب فيها تأثيرات عميقة في الحضارة الإنسانية على مختلف الصعد العلمية والفنيّة..

ولـــم تكـــن هذه الفسيفساء البتّة انعكاساً جمالياً لما يجيش في صدر الفنان المـــبدع.. بقـــدر مـــا كانت تصور الحياة بمنتهى الواقعية في تكوين من فريد الغنى.. مما يقدم وثائق هامة لتاريخ الفسيفساء إلى العالم.

دلـــت فسيفساء الأموي على مهارة فائقة قدمت درجات لونية وصلت إلى تســـعة وعشـــرين لونـــاً في اللوحة الواحدة، منها ثلاث عشرة درجة من اللون الأخضر، وأربع درجات من اللون الأزرق والذهبي، وثلاث درجات من اللون الفضي.

لقـــد انطلق خيال الصنّاع في أوصاف الجنان، فصوروا مشاهد منها على حيطان الجامع، وكسوا مساحات من هذه الحيطان أنهاراً وأشجاراً وقصوراً مع زخـــارف وكـــتابات على غاية من الحُسن والدقة ولطافة الصنعة.. حتى قلّ أن تكون شجرة أو بلد معروف في ذلك الحين إلاّ مُثّل على تلك الحيطان من خلال مـــناظر ومشاهد لأبنيه في حدائق غنّاء، لدمشق وقراها... وغيرها من البلدان المعروفة.. وقد أحيطت بأشجار باسقة تعلوها الأزهار والثمار.

وزيـــنوا الحائط القبلي (الجنوبي) لحرم الأموي، بكتابات لآيات وسور من القرآن الكريم، رصّعت بفصوص مذهبة لازودريّة.

كما زيّن فوق المحراب بمناظر للكعبة ومكة المكرّمة.. وإلى جانبها صور الكـــرمة (العنب) بأوراقها وعناقيدها.. حتى أصبح الأموي أعجوبة الدنيا وفتنة الناظريـــن.. وإنّ المرء ليعجز، عن وصف ما كان عليه فسيفساء هذا الجامع، إزاء مـــا تطلقـــه هذه الفسيفساء من بريق الذهب والفضّة، وما تشعّه من أنوار ولمعـــان، فـــي مشهد يُطبع في الذاكرة، ويستعصي على النسيان، لما يستشعره المرء من خشوع بين يدي العظمة، واندهاش أمام الإبداع.

شهادة ابن جبير:

وقـــد حدثنا ابن جبير الأندلسي في رحلته إلى دمشق سنة (580) هـــ عن هذه الفسيفساء بقوله:

"لقـــد أُلّفت فسيفساء الأموي على أحسن تركيب، وانتظام أقدار. فصوصها

متقــنة وصــنعتها مؤتلفة، وهي منزّهة عن صدر الحيوان، إلى صور النبات، وفــنون الأغصــان. تُجنى ثمارها بالأبصار، والثمار باقية على طول الزمان، مُدركــة فــي كل حين وأوان، لا يمسّها عطش على فقدان القطر، ولا يصيبها ذبول مع تصاريف الدهر.

وفي ذلك قول الشاعر:

إذا تفكــرت فــي الغصون وما ... فــيها، تيقّنــت حِــذق واضِعها

أشــجارها لا تــزال مــثمرة ... لا ترهــبُ الــريح فــي مدافِعها

كأنّهــا مــن زمــرّد غرســت ... فــي أرض تــبرٍ تُعْشِــي بفاقعها

فــيها ثمــار تخالهــا يَنَعَــتْ ... ولــيس يُخشــى فســاد يانعها..

تقطــف بــاللحظ، لا بجارحــة ... الأيــدي، ولا تجتــنى لــبائعها..

وقــد اســتمدّت هذه المشاهد من غوطة دمشق ونهر بردى، وعلى جنباته القصور والدارات ومشاهد الطبيعة، من أشجار وأمصار وأنهار.. وكتابات على غاية من الحسن والدقّة ولطافة الصنعة.... وهي تمثل المدن المعروفة في ذلك الوقت.

البقيّة الباقية من إرث الفسيفساء:

وإذا كانــت فسيفســاء الواجهة الجنوبية لصحن (باحة) الأموي وفسيفساء مدخــل بــاب البريد، والرّواق الغربي لهذا الصحن، هي خير ما نجده من هذه الفسيفساء في أيامنا، فإن هذه الفسيفساء كانت تغطّي كامل القناطر وباطن العقود بالجــامع.. وكانــت كســوة حيطان الحرم بالفسيفساء، تعلو كسوة هذه الحيطان الرخامية التي ترتفع إلى علوّ يقارب أربعة أمتار (قامتين) عن سطح الأرض.. وهــذا بالطــبع كان استكمالاً لأعمال التزيين التي أرادها الوليد لمسجده ليكون متناسباً مع عظمة الدولة الأموية في عصرها الذهبي.

عروبة الفسيفساء:

كان الصنّاع الذين استخدمهم الوليد في أعمال الفسيفساء قوماً من أبناء بلاد الشام، مهروا في هذا العمل، وتناقلوه عن أجدادهم.

أمـــا القـــول أن إمـــبراطور الروم (بيزنطة) استجاب لطلب الوليد بإرسال عمال للفسيفساء من بيزنطة.. فإن هذا القول مجاف للحقيقة، أو هو مشكوك فيه علـــى الأقـــلّ. وقـــد استغلّه المؤرخون الغربيون للتشكيك في أصالة وعروبة فسيفساء الأموي، ولنفي بل تجاهل باع العرب في هذا الفنّ.

لأن طبـــيعة العلاقـــات العربية البيزنطية في زمن الوليد كانت على درجة مـــن التأزّم والجفاء.. ويصعب القول أن أباطرة القسطنطينية أسهموا في تزيين جـــامع، يعـــتقدون أنـــه أنشئ في موضع كنيسة!!... مما أشرنا إليه في الفصل السابق.

فصفوة القول، أن الصنّاع السوريين الذين كانوا يتقنون الفسيفساء في فترة سيطرة اليونان والرومان والبيزنطيين على بلاد الشام... هم الذين أنتجوا ألواح زجـــاج الفسيفساء في ورشاتهم في هذه البلاد، وأن الصناع السوريين أيضاً هم الذيـــن قـــاموا بتقطـــيع هذه الألواح إلى مكعبات شكلت منها مشاهد الفسيفساء بالأموي...

كانـــت تلـــك الألواح تصنع من عجينة زجاجية بين الشافّة والشفافّة، وقد صـــبغت هذه الألواح بمختلف الألوان من الأخضر والأزرق والأسود والأحمر العقيقي.. أما المكعبات المذهبّة والفضيّة، فكانت من ألواح زجاجية شفافة تكسى بطـــبقة رقـــيقة من الذهب الخالص أو الفضّة النقيّة (روباص)، ثم تُغطّى بطبقة رقـــيقة من الزجاج الأبيض الشفاف، من أجل الاحتفاظ باللون الذهبي أو الفضّي برّاقاً على الزمان...

فالفسيفســـاء التـــي بـــالأموي، والحال هذه، من إنتاج أيد عربية تعمل في ورشـــات كانت تنتج الفسيفساء في بلاد الشام، في العهد البيزنطي وقد استمرت هـــذه الورشـــات بالإنـــتاج أيـــام الأمويين (بعد خروج البيزنطيين) وكان لهذه الورشات الدور الأكبر في إمداد الأموي بالفصوص الفسيفسائية.

ولمّـــا لم تكن هذه الورشات قادرة على تلبية الحاجات المطلوبة منها، فقد عمـــد الوليد إلى اجتلاب المزيد منها، من بلاد الروم، من خلال مبادرات غير رسميّة.

نكبات الفسيفساء:

ظـــلّ الأمـــوي يفخر ببنيانه ويتيه بزخارفة وفسيفسائه حتى عام (461)هـ حيـــث بـــدأت الكـــوارث والمصائب تتوالى عليه. فقد التهمت النيران الأموي

مـــراراً. وعصفت به الزلازل تكرراً، حتى تشعّث فسيفساؤه، وتغيّر وجه حُسنه وبهائه.

محاولات الترميم:

واســـتمرّت هـــذه الأحـــداث والكوارث، حتى كادت تقضي على فسيفساء الأمـــوي. وقـــد جمـــع مـــا أمكن، من هذه الفصوص في صناديق حفظت في مســـتودعات الأموي، وبقيت كذلك حتى أيام الملك العادل، حيث جرى ترميم ما أمكـــن ترمـــيمه من فسيفساء واجهة الرواق الشرقي المطلّ على صحن (باحة) الجـــامع.. كمـــا جرت محاولات أخرى للترميم في عهد الملك الظاهر بيبرس، شملت الجانب الجنوبي الغربي لمدخل باب البريد للجامع.

لكـــن هذه الأقسام المرمّمة لم تكن كالأقسام القديمة الباقية، سواء من حيث الجمال أم من ناحية دقّة الصنعة وفن الرصف وترتيب الألوان وانتقائها.

ولعـــلّ ســـبب ذلك، يعود إلى ندرة الفصوص الذهبية، التي استعيض عنها بفصوص من الحجر الحلبي الفاتح. كما أن أسلوب التركيب، لم يكن على درجة مـــن التماســـك، لأنهـــم رصفوا الفصوص على أرضيّة من الجبصين، مسلّحة بـــأعواد مـــن القصب لتقف عليها، في حين كان تركيب الفسيفساء القديمة، أيام الولـــيد، بـــأن تطلـــى الجدران الحجرية، بطبقة من لبن الكلس، الممزوج بالتبن وقشـــر القنّـــب المفروم (الطينة العربية)، ثم تحزّز سطوح هذه الطبقة، حتى لا تكون ملساء.. وبعد أن تجفّ هذه الطبقة، يُرسم عليها الخطوط الرئيسية للمنظر على الجدار.

وبعـــد ذلك يُعمد إلى جزء صغير من الرسم، فيُكسى بمعجون نباتي بطيء الجفـــاف، وعندئذ تعزز الفصوص في المعجون بسرعة، وفي حال وجود نقاط دقـــيقة فـــإن تفاصيل رسم هذه النقاط، تحزّز أو ترسم ثانية على المعجون، بآلة حادة.. ليصار إلى غرس فصوص هذه النقاط بسرعة.

وكـــانوا فـــي أعالـــي الجدار (الرسم) يغرسون فصوص الذهب أو الفضّة بمستوى مائل، بشكل يواجه الناظر إليها، فتبدوا أكثر توهجاً وأشدّ لمعاناً.

ويؤكـــد ذلك ما لاحظه عمال الترميم في أحد أقواس مدخل باب البريد من أن قطعـــة قديمـــة من الفسيفساء رُسمت عليها الرسوم فوق طبقة المعجون بآلة حادّة، ولم يتمّ غرس الفصوص فيها.. منذ أيام الوليد. حيث جرى استكمالها مع الأقسام التي جرى ترميمها. كما يلاحظ أن الصنّاع في عهد نور الدين، أضافوا

حادّة، ولم يتمّ غرس الفصوص فيها.. منذ أيام الوليد. حيث جرى استكمالها مع الأقسام التي جرى ترميمها. كما يلاحظ أن الصنّاع في عهد نور الدين، أضافوا إلى الألوان لوناً جديداً هو اللون الأخضر الكامد..

وفي العصور المتأخرة، قامت الجهات المعنيّة بتغطية ما بقي من الفسيفساء الضعيفة بطبقة من الكلس لحمايتها من التساقط. ومع ذلك فقد تتابع تساقط الفصوص يوماً بعد يوم، وقد جمع بعض منها في مستودعات الجامع، حفظاً لها من العبث أو الضياع.

وبعد الاستقلال، عمدت المديرية العامة للآثار والمتاحف، بالتعاون مع وزارة الأوقاف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الفسيفساء فشكلت لجنة للترميم، عملت على إعادة الفصوص المتساقطة، وإلى إنشاء فرن لصهر الزجاج، واستخدام الأكاسيد المعدنية الملوّنة.. أما فصوص الذهب والفضة فعُمد إلى استيرادها، وقد اعتمدوا في ذلك على حصيرة من الإسمنت المسلّح بالحديد.

■■

صحن الجامع الأموي .

قبة الخزنة

قبة زين العابدين

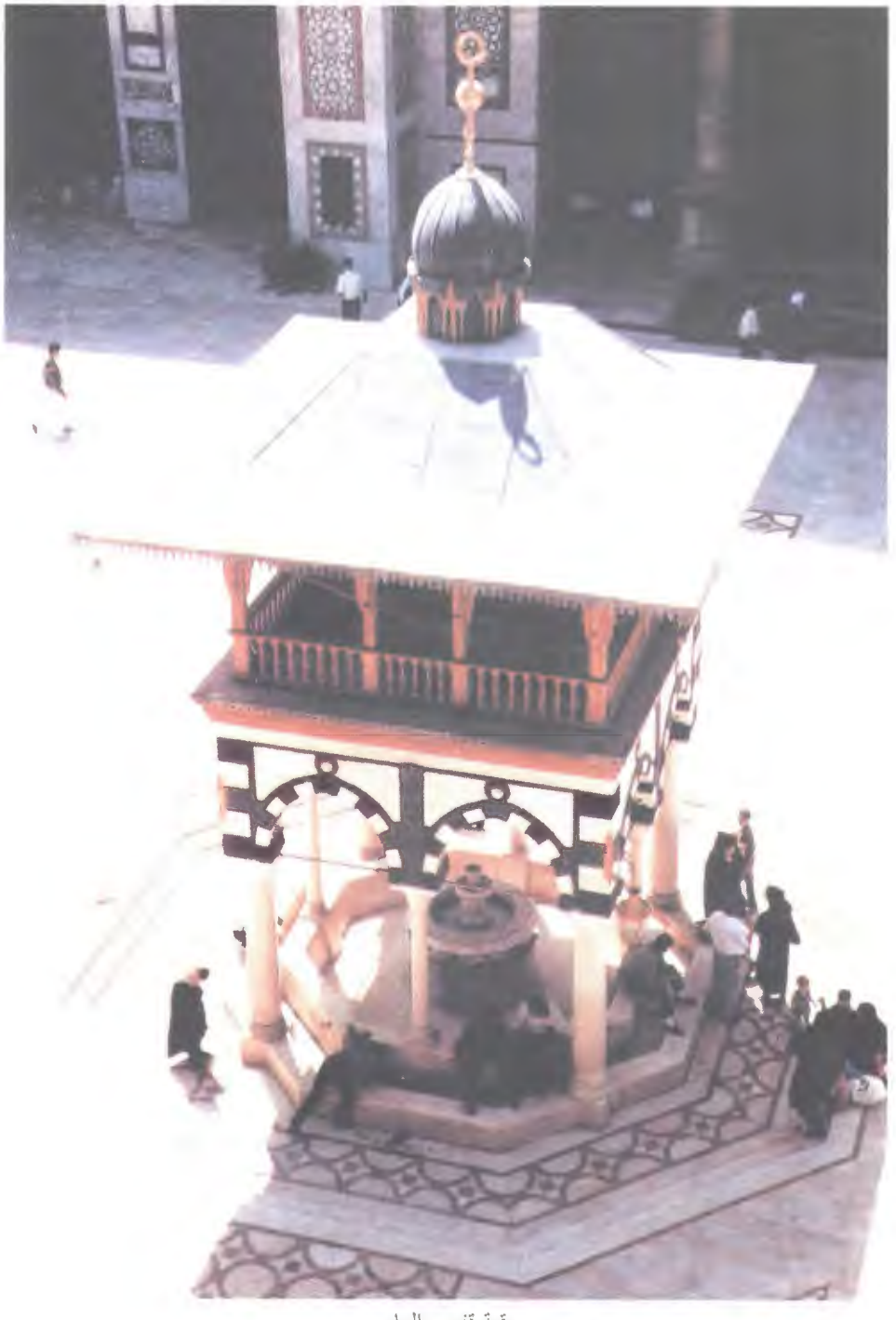

قبة قفص الماء

أروقة الأموي

مئذنة العروس

المئذنة الغربية

المئذنة الشرقية – (عيسى).

المدخل الشرقي للأموي (جيرون) مع قبة الساعات

المدخل الغربي للأموي (البريد)

من أبواب الأموي

رخاميات الجامع الأموي

اعلى: مدخل باب البريد أسفل: شهد ابو بكر (قاعة الشرف)

فسيفساء حجرية بيزنطية

فسيفساء واجهة قبة النسر المطلة على صحن الأموي

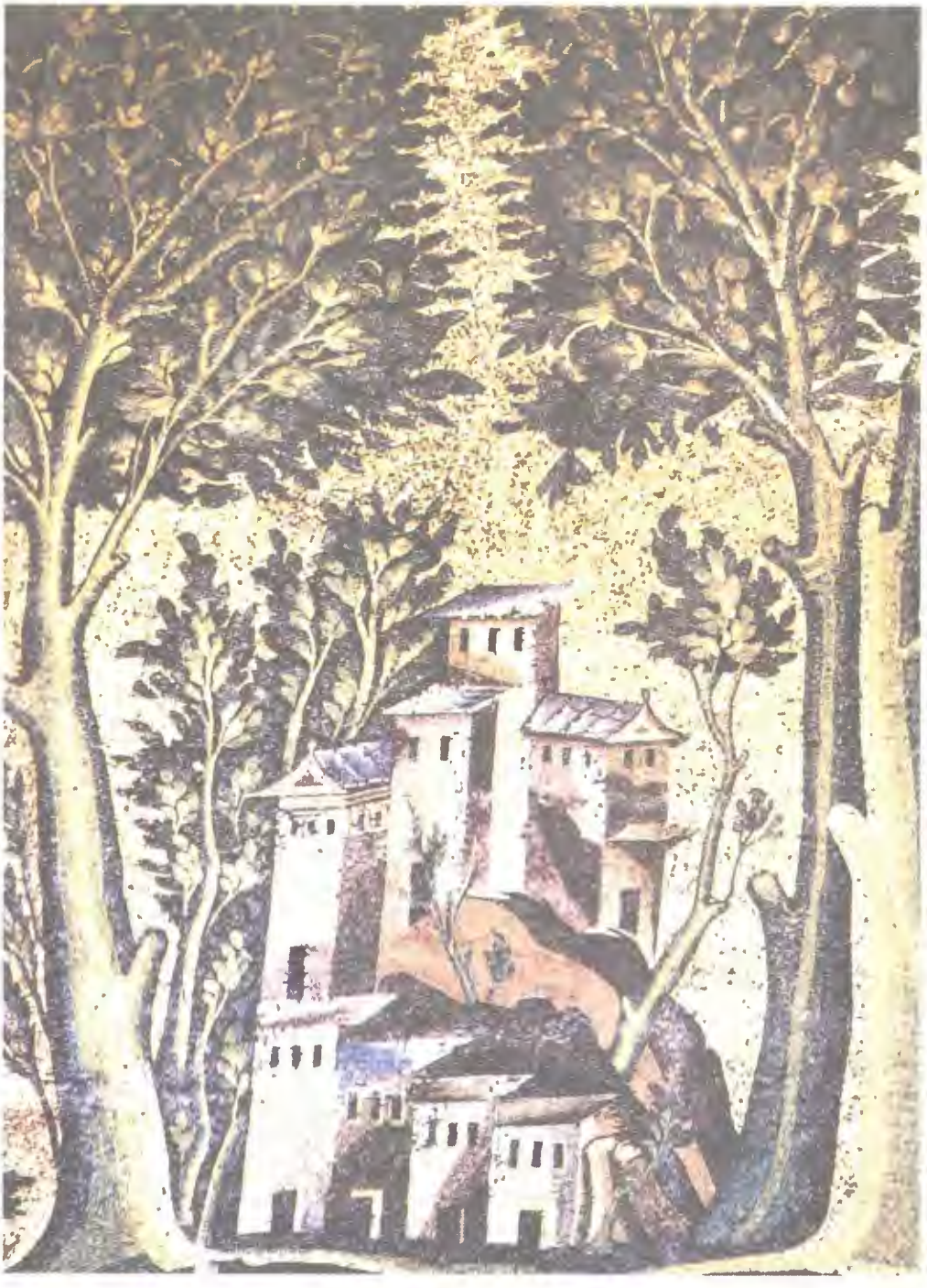

من فسيفساء الجامع الاموي

الأموي و ليل مساجد دمشق

الحريق المدمر للأموي سنة **١٨٩٣**م.

الفصل الثامن
الأموي... والنّاس!!..

مهامّ الأموي:

لم يكن الجامع الأموي عبر تاريخه الطويل، مجرّد دار عبادة وحسب، فقد اضطلع بمهامّ أخرى، علميّة واجتماعية، بل وسياسية، تمحوّرت حول حياة الناس والدولة...

ففي هذا الجامع. كان الخليفة يستقبل عمّاله ورسله، ويفصل في الأمور الجليلة.. وفيه كان أهل دمشق، يتسامرون ويتناقشون، في أمور دينهم ودنياهم، فقد ذكر الخياري أن الأمويّ كان "ملتقى أهل العلم والمعرفة، يَدرسون ويُدرّسون وكانت حلقات التدريس، تعقد في حرمه وصحنه وأروقته، أول النّهار وآخره، وبين العشائين.. فالخير كثير والفضل شهير، والفضلاء للطلب متوفرون، والعلماء للإفادة متقيّدون..".

ويحدثنا العمري في القرن الرابع العشر، أنّ الأموي معمور بالناس، ليل نهار، ففيه ما ليس في غيره من المساجد أو الجوامع، من الأئمّة والقرّاء ومشايخ العلم، والإقراء والافتاء، ووظائف الحديث النبويّ، وقرّاء الأسباع من القرآن الكريم.. فضلاً عن المجاورين من ذوي الصلاح.

"فهو على الدوام معمور بالخير، آهل بالعبادة، حتى قَلّ أن يخلو طرفة عين، في ليل أو نهار، من مصلّ أو جالس في ناحية للاعتكاف، أو مرتّل لقرآن، أو رافع عقيرته بأذان، أو دارس لكتاب علم، أو سائل عن دين، أو باحث في معتقد، أو مقرٌ لمذهب، أو طالب حلّ مشكل، من سائل ومسؤول، ومفتٍ ومستفتٍ، أو مستأنس لحديث".

على حين "يكون لصحن الجامع، برخامه الأبيض الباهي البريق واللّمعان

في أيام الصيف عشاياً، يعجّ فيها الصحن بالناس، يلتقون فيه في مشهد فريد من الإلفة ورفع الكلفة.. وإذا لَقِيَ أحدهم أحدَ كبرائهم من الفقهاء وسواهم، أسرع كل منهم نحو صاحبه بالتحيّة والسلام.

كنت تراهم، مجتمعين حلقاً حلقاً، وصفوفاً صفوفاً يتمشّون من طرف الصحن هذا، إلى طرفه ذاك، ومن ذلك إلى هذا، ذاهبين آيبين.. ومنهم من يقرأ أو يتحدّث، أو يشاغل نفسه بهذا المشهد البهيّ.

فصحن الجامع مجتمع الدماشقة في العشايا، وهو متفرّجهم ومتنزّههم كل عشيّة.. ولا يزالون على هذه الحال، من ذهاب ورجوع، وحديث ومسامرة، إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة.. ثم ينصرفون..".

ما أشبه اليوم بالأمس:

وهذا يذكرنا بما كان عليه الأموي في أواخر العقد السادس من القرن العشرين، يوم كان من علماء دمشق من يتخذ من صحن الجامع مكاناً لترشيد الناس إلى مناسك الحج، بعد أن يقدموا لهم الدروس والشروح اللازمة لأداء الفريضة، فيكون عملهم هذا بمنزلة الشروح العملية التطبيقيّة لهذه المناسك.

وكان من هؤلاء العلماء الشيخ أبو النور خورشيد، كان يرمز إلى مكان في صحن الجامع (للصفا) وإلى مكان آخر (للمروة)، ويُرشد الراغبين بأداء هذه الفريضة، إلى ما يترتّب على الحاج، خلال السعي بين الصفا والمروة من دعاء وقول وسلوك.

ويرمز إلى الكعبة بمكان في صحن الجامع، ويعلّم الناس أسلوب الطواف، ومكان البدء، واتجاه الطوف، وكيفية استقبّال الحجر الأسود، وأسلوب الطواف، وما يترتّب على الحاج من دعاء وتوجه إلى الله سلوكاً ومناسك خلال الطواف..

فإذا كان يوم عرفة فإنّهم يخرجون إلى جبل قاسيون، يتضرّعون ويدعون ويبتهلون، راجين الله، أن يكونوا من ضيوفه في قابل، لأداء هذه الفريضة.

وكان الناس في هذا اليوم (عرفة) يبقون مع أئمتهم بالأموي بعد العصر كاشفين رؤوسهم داعين خاشعين حتى المغرب.. كما كانت تقرأ في هذا اليوم قرارات تعيين القضاة.

الأموي والسلطة:

لعب الأموي خلال تاريخه دوراً مميزاً في العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مجتمع مدينة دمشق.

وقد ساعد موقعه في قلب هذه المدينة، على مقربة من سراي الحكم وقلعة دمشق على التقاء الحكام ووجوه دمشق وأعيانها في مناسبات الصلاة والعيدين والمولد النبوي.. وبخاصّة في شهر رمضان المبارك.

ونظراً لمكانة الأموي في نفوس أبناء دمشق، فقد كان ملاذ المستضعفين والنساء والأطفال، عند حصار المدينة أو مهاجمتها من الغرباء.

وكان الناس إذا حلّ بهم ظلم أو ضيم، يلجأؤون إلى الأموي مكبّرين مهللين. ولا ينصرفون، إلا بعد أن ينالوا ما جاؤوا من أجله، ومن جهة أخرى فإن العلاقة بين العلماء ورجال السلطة، ومن هم في مواقع المسؤولية.. قائمة على الاحترام والإجلال والخوف من الله. وكان العلماء لا يتوانون عن تقديم المشورة والنصح، لرجال الحكم الذين يجدون أنفسهم، في مجتمع يضمّ أكابر البلد من وجهاء وأعيان.. في وضع مهيب إزاء ما قد يوجّه إليهم من غمز أو لمز. الأمر الذي يفسر تهيّب أولئك الحكام من سخط العلماء عليهم.

فالأموي والحال هذه، وقف في وجه طغيان السلطة منذ الفتح الإسلامي أي قبل ظهور الجامع الأزهر بثلاثة قرون.

الوعظ والإرشاد:

وكان المدرّس الواعظ يجلس على كرسيّ مرتفع، بعد أداء فريضة الجمعة، ويستمر في ذلك إلى صلاة العصر، ويخصّص درسه لرجال الحكم، وهو في ذلك يراعي حال الحضور، من حيث اللغة المستعملة، ليسهل نقل ما يريد أن يصل إليهم.

الأموي وليل مساجد دمشق:

كان لليل دمشق جوّ روحاني متميّز، فقد قسموا الليل إلى ثلاثة أقسام، فعند مضي الثلث (الهزيع) الأول من الليل، كان يُضرب على كل طبل من طبول قلعة دمشق الثلاث، وعلى الطبول التي فوق أبواب دمشق السبعة ضربة واحدة إيذاناً بحلول الهزيع الأول من الليل.

وعند حلول الهزيع الثاني، ضُربت ضربتان على كل من هذه الطبول، فإذا حلّ الهزيع (الثلث) الثالث من الليل، طلع المؤذنون إلى مئذنة العروس بالأموي، وأوقدوا القناديل وعلّقوها، فيضرب على كل طبل من تلك الطبول ثلاث ضربات.

ومن ثم يسوق المؤذنون الثلث الأخير من الليل، بالتسابيح والابتهالات والمدائح النبويّة حتى مطلع الفجر.. وتتجاوب أصداء ذلك في أجواء المدينة، فتضجّ أركانها حتّى لكأن دمشق تستفيق على أصداء تلك التسابيح.

التراسل مع مساجد دمشق:

يبدأ عمل مؤذني الأمويّ بالتراسل مع مؤذني مساجد دمشق الكبرى، كجامع التوبة، وجامع محيي الدين بن عربي، وجامع السنانيّة، وجامع التكيّة السليمانية.. ويكون ذلك التراسل محكوماً بأوزان وألحان، خاصّة بكل ليلة.. وكان لهم أسلوب خاصّ في اللّيالي المميّزة، كليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، والمولد النبوي الشريف.

كما يُعرف من ذلك الأسلوب ما قد يكون قد ألمّ بالمدينة في تلك الليلة، من أرزاء وخطوب وما قد يكون طرأ عليها من أمور حياتيّة، أو إداريّة يكون لها وقع خاص على مشاعر الناس واهتماماتهم.

موسيقى وألحان المؤذنين:

وأوزان وألحان التراسل والتسابيح والمدائح النبوية، محكومة أيضاً بتقاليد متأصلة متوارثة تعتمد على القواعد التلحينيّة الموسيقيّة، وقد ذكر لي الحاج سهيل جبري، وهو من مؤذني الجامع الأموي، في العقد السادس من القرن العشرين، أنّ المؤذنين بالأموي في رفعهم للآذان أيضاً، يجرون على قواعد تلحينية لا خروج عليها، وظلّوا على ذلك، حتى أواخر الأربعينيات من ذلك القرن.

لحن لفجر كل يوم:

والفن الموسيقي أيضاً، كان يحكم أصوات المؤذنين لصلاة الفجر، ويجعلهم يؤدون ذلك على نهج خاصّ، شأنهم في ذلك شأن مؤذني مساجد القاهرة الكبرى ومن ذلك كان لحن:

يوم السبت العشّاق.

ويوم الأحد الحجاز.

أمـــا يوم الاثنين فنغمته سيكا، إذا كان أول يوم اثنين في الشهر، ونغمته بـــيات، إذا كـــان ثاني يوم اثنين في الشهر، ونغمته حجاز، إذا كان ثالث يوم اثنيـــن فـــي الشهر، ونغمته شورى على جركاه، إذا كان رابع أو خامس يوم اثنين في الشهر، أما نغمة يوم الثلاثاء فهي سيكا.

ونغمة يوم الأربعاء جركاه.

ونغمة يوم الخميس بيات.

وعلـــى هذا النحو، كان للمؤذنين بالأموي في إقامة الصلاة والترديد وراء الإمام.

آذان بقية الأوقات:

أما أذان وقت الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فيكون بما يُعرف بآذان الجوقـــة السلطاني، ويشارك في رفعه جماعة من المؤذنين، يؤذنون معاً، بحيث يؤذن كلّ منهم آذاناً كاملاً.. ويُرفع هذا الآذان من مئذنة العروس بالأمويّ.

ألحان التراويح في شهر رمضان:

وكـــان لإحـــياء ليالـــي شـــهر رمضان المبارك عناية خاصة. وقد حدثنا الموسويّ المتوفّى سنة (1660) م في رحلته: الشتاء والصيف، أنّ "إحياء ليالي هـــذا الشـــهر وإقامـــة صلاة التراويح بالأموي من محاسن الشام. فهم يؤدّونها بأحســـن أداء يورث النشاط، وإنّ المكبرين يلونون في التكبير بالألوان الحسنة، فيبتدؤون بمقام العراق، ويختمون بمقام العشّاق.

والإمـــام يصـــلّيها بســـورة الرحمن، ويلوّن فيها الصوت الحسن بالألحان الحســـان.. وفـــي أخريات الشهر، يصلّون مع الإمام اثنتي عشرة ركعة عُقيب صلاة التراويح يسمّونها صلاة الرغائب".

أداة ضبط مواعيد الآذان:

كانت مواعيد رفع الآذان، تُحدّد بوساطة آلة فلكية يسمونها: البسيط. وهي مثبـــتّة علـــى جـــدار الواجهـــة الجنوبية المطلة على صحن الجامع (من مئذنة

العـــروس). وقد صمم وصنع هذه الآلة، ابن الشاطر، رئيس مؤذني الأموي في القرن الثامن للهجرة.. وعندما انكسرت هذه الآلة سنة (1290)هـــ. صنع الشيخ محمد الشهير بالطنطاوي، إمام فنّ الهيئة والميقات في دمشق بسيطاً آخر، على الأفق الحقيقي لدمشق، وزاد فيه قوساً لميقات الفجر.

أوزان الترديد وراء الإمام:

كـــان لكلّ مذهب من المذاهب الإسلامية بالأموي، إمام يأتمّ به أتباعه، عند المحـــراب الخـــاص بالمذهب، وكان وراء كل إمام مردّد بكلّ وقت يردّد وراء الإمـــام تكبـــيرات الإمـــام، بلحن خاص لكل ركعة.. وهذا اللحن يتبدّل مع كل صـــلاة، وفـــي كـــلّ من أيام الأسبوع.. وبالطبع مع كل مذهب. والعارف بهذه الأمـــور يستطيع أن يحدّد لك مذهب الإمام ووقت الصلاة، وفي أي ركعة كان الإمام، بل في أيّ يوم هو، من أيام الأسبوع.

إقامة الصلاة بالإمام الكبير:

لا تـــنقطع إقامـــة الصلاة وتلاوة القرآن في الأموي ليل نهار.. من الفجر وحـــتى ســـاعة متأخرة من اللّيل. فقد كان للأموي أيام ابن بطوطه، ثلاثة عشر إماماً.

وكانـــت الصلاة بالأموي، تُقام حتى عام (694هـــ) مرّة واحدة لكل وقت، وهـــذا ما يُعرف بصلاة الإمام الكبير، فعند حلول الوقت يصلّي الإمام الشافعيّ، وهـــو خطيب الجامع، ثم تقام الصلاة في مساجد أخرى ملحقة بالأموي يُقيم بها طلـــبة العلـــم، هذه المساجد تعرف بالمشاهد، فما أن ينتهي الإمام الشافعي من صـــلاته، حـــتى يقـــيم إمام مشهد عليّ كرم الله وجهه، الصلاة، ثم مشهد الإمام الحســـين (ﷺ).. ثم إمام مشهد الكلاّسة، فمشهد أبي بكر (ﷺ)، ثمّ مشهد عثمان ابن عفان (ﷺ)، وبعد ذلك إمام المالكية ثم الحنفية ثم إمام الحنابلة.

وبعـــد هـــؤلاء، خمسة أئمة لقضاء الفوائت، وذلك بالتناوب لمن تأخّر من المصلين.

وبعد ذلك. اقتصر الأمر على أئمة الجامع الأربعة وذلك على النحو التالي: الشافعية فالحنفية، فالمالكية، فالحنبلية.

مجلس الكوثرية والسُّبُع:

ثـمّ إن بالجـامع الأموي مجلساً كبيراً، ينعقد كل يوم، إثر صلاة الصبّح، يجـتمع فـيه الـناس لقراءة سُبُعٍ من القرآن الكريم، ومجلس مثله عقب صلاة العصر، من كل يوم لقراءة الكوثرية، فيقرؤون فيه من سورة الكوثر إلى خاتمة القرآن.

وللحاضـرين في كلّ من هذين المجلسين، مرتّبات تُجرى عليهم، عن كل يـوم، فيدور عليهم كاتب الغيبة (مسجلّ الدوام).. فمن غاب قطع عنه عند الدفع من المرتّب، بقدر غيبته.. ويعيش من ذلك أكثر من ستمئة إنسان.

تعليم الصغار:

وعـند فـراغ المجلس السُّبعيّ من القراءة صباحاً، يستند على كل عمود (سـارية) من أعمدة الجامع، معلّم يجلس أمامه صبيّ، يعلمه القرآن. يومئذ كان التلامـيذ يتعلّمون في الجوامع والمساجد القراءة والكتابة وقراءة القرآن.. ومن أنس من نفسه الكفاءة، أو استغنى عن أهله، أكمل علمُه على الشيوخ أو العلماء. أو الـتحق بكار أسرته. ولكلّ من هؤلاء الصبيان جراية (أجر) معلومة، وكان الميسورون يُنزّهون أبناءهم عن أخذها..

كمـا كان للصبيان الأيتام، أوقاف كثيرة، يأخذ منها المعلم ما يقوم به، وما ينفقه على الصبيان بما يُقيم أودهم وكسوتهم..

ويكـون تعلـيم الصـبيان للقرآن بالتلقين، أما تعليم الخط فيكون بالكتابة، تـنزيهاً لكـتاب الله من ابتذال الصبيان لـه بالكتابة والمحو، وقد يكون الملقّن للقرآن على حِدَة، والمكتّب على حِدة، فينتقل الصبي من التلقين إلى التكتيب.

المجاورون الدارسون:

وفـي الأمـوي جماعة من المجاورين، لا يخرجون منه ليل نهار فيظلّون على الصلاة والقراءة والذكر، فلا يفترون عن ذلك.

وأهـل دمشـق يعينونهم بالطعام واللباس، من غير أن يسألوهم شيئاً عن ذلـك. فضلاً عن هذا، فإن مرافق الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة.. ومن ذلك أن كلّ سارية (عمود) من سواريه لها وقف معلوم، يأخذ منه المستند إلـيها للمذاكـرة والـتدريس. كما كان بالجامع عدّة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ

والدرس والانفراد عن ازدحام الناس.

وقد ساعد اتّساع الجامع وكثرة أوقافه على تعدّد مهامه العلمية، وارتقاء هذه المهام، إلى المستوى الأكاديمي، الأمر الذي يفسّر تزايد عدد مدرّسيه، وتنوّع حلقات التدريس، في أرجائه، وكانت تلك الحلقات تعقد في صحن الجامع وأروقته وداخل حرمه.

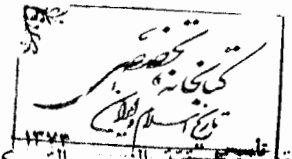

المدرس تحت القبة:

وأهم تلك الحلقات ما كانت تعقد تحت قبّة النسر، التي كان التعليم تحتها منوطاً بأكابر العلماء وواسعي المعرفة منهم، على وجه الخصوص.. حتى غدت الدراسة تحتها بمنزلة المرحلة العليا من الدراسة في أيامنا، بما تضمنته من المقررات، كالأصول، والفقه، وعلم الكلام، والمنطق والنحو.. ويذكر الخيّاري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر: أن علماء دمشق، كانوا يتزاحمون على التدريس في ذلك الموضع، ويفاخرون بذلك، ويسمّون المدرس تحتها: مدرّس تحت القبّة.

انتشار حلقات التدريس إلى محيط الأموي:

فضلاً عن هذا، فإنّ حلقات التدريس كانت تعقد أيضاً في أرجاء الجامع.. فيتحلّق الدارسون حول المحدّثين الذين يقرؤون الحديث الشريف وهم جلوس على كراسي مرتفعة.. أما مدرّسو القرآن الكريم فيستندون على سواري (أعمدة) الجامع عند أدائهم..

ولما ضاق حرم الجامع وضاق صحنه وأروقته عن استيعاب حلقات التدريس، انتشرت هذه الحلقات بجوار الجامع من جهة الغرب والشمال.

فكانت المدرسة الصادرية، أوّل مدرسة تخرج عن نطاق الأموي من ناحية الغرب، ثم قامت إلى جوارها المدرسة البلخية.. أما من جهة الشمال، فوجدت مدرسة الكلاسة ودار الحديث الفاضليه، والمدرسة العزيزية، والمدرسة الجقمقية والظاهرية والعادلية.

وهذا بدوره استدعى قيام أسواق تلبّي حاجات الدارسين، من المصاحف وكتب الحديث والفقه، والسيرة النبويّة.. وآداب اللغة العربية، والمخطوطات والأقلام والحبر والورق والتجليد، وما إلى ذلك من أمور. ومن هذه الأسواق سوق الكتبيين والورّاقين والحبّاكين.

ملتقى العلماء بالأموي:

وكان الأموي ملتقى علماء دمشق، والعلماء الوافدين من الأصقاع العربية والإسلامية.. كانوا يتناظرون في رحابة بالعلوم الإسلامية، من علوم القرآن، إلى علوم الأصول والكلام والحديث النبوي والسيرة النبوية وعلم الفقه..

وكانت العادة، إذا جاء عالم، لا يُقبل عليه علماء دمشق، إلاّ بعد استماعهم لدرسه في هذا الجامع.

فيعرفون من خلال ذلك مقدرته، وتمكّنه من علومه حقّ المعرفة، فيطرحون عليه الأسئلة المشكلة (العويصة)، لمعرفة أغوار معرفته وآفاق تبحّره في علومه.

ولم تكن سمعة ذلك العالم، أو ألقابه، أو مناصبه.. لتعفيه من هذا الامتحان.. فإن نجح احترموه وأقبلوا عليه.. وإلاّ أعرضوا عنه.. فلا يسعه إلاّ الرحيل.

الارتحال إلى جامع دمشق الأموي:

ثمّة عوامل وأسباب وجيهة، جعلت الأموي محجّ العلماء والدارسين، ومسعاهم المرتجى، وهدفهم المنشود. فكان الأموي مهوى أفئدة الدارسين القادمين من الأصقاع العربية والإسلامية.

ولعلّ من أهم تلك العوامل:

-انعدام الحواجز الحدودية بين دمشق وبلاد الوافدين.

-توفّر السكن المجاني لطلبة العلم من خلال المدارس والخانقاهات التي كانت الأموال المرصودة لها، تغطي نفقات الإقامة والطعام والكساء مجاناً لجميع الوافدين والدارسين المقيمين من طلبة العلم.. بما في ذلك القائمين على ذلك، من رعاية ومعرفة في شتى الميادين وهذا بالطبع يجعل الدارس يعيش في جوّ من الاطمئنان والأمان فلا يشعر بالاغتراب.

نظارة الجامع الأموي:

لم تكن المهام المنوطة بالأموي لتؤتي أكلها لو لم يكن للأموي جهاز يعمل

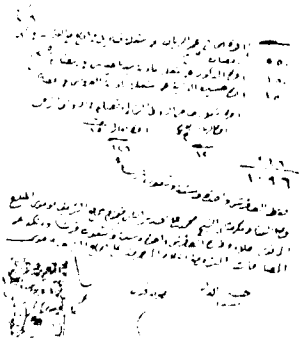

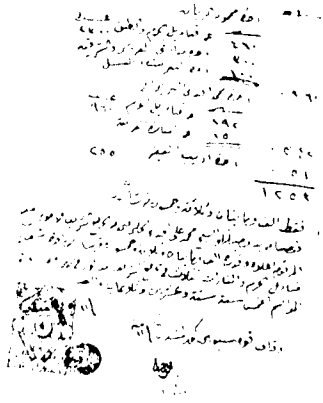

وصلني المبلغ المرقوم اعلاه وقدره غاية غرشه وفضلتاو الشيخ احمد افندي الحلبي
قائم مقام الجامع الاموي وذلك عن اداء قراءة القرآن المجيد بالجامع المذكور عن واجب
شهر رمضان المعظم سنة ثمانية وتسع ثمانية والف هجرية تحريراً في غايته

قبضت من واردات جامع السليمانية المبلغ المرقوم اعلاه وقدره مسمائة وخمسون
قرشاً عن معلوم رمضان المبارك عن قائمقامية جامع السليمانية المذكور عن واجب شهر رمضان
المبارك سنة سبعة عشر ومائتين وألف

غاية ما

تصديق كور لمدرسة باب ٢١٧

ليل نهار لتوفير المتطلّبات والأجواء اللازمة لذلك. وفي السياق نفسه، كان لا بدّ من إنسانٍ يتولى أمور هذا الصرح الكبير ويتولى أمور العاملين فيه..

وهكذا كانت للجامع الأموي نظارة أو قائم مقاميّة تتولّى شؤونه والسهر عليه، وهي وظيفة مباركة ومرتبة سامية، لا يرقى إليها إلاّ من كان على مقدرة للقيام بأعبائها.. لما يتطلبه العمل من إشراف على هذا الصرح الكبير وتهيئة مستلزماته كافّة، من مؤذنين وقرّاء، بل وخدم يعملون على نظافة الجامع وتعهّده بالترتيب والمتابعة، ليكون في جاهزية دائمة، لاستقبال المصلّين والعبّاد وطلبة العلم.

كما أن من مهامّ قائم مقام الأموي، السهر على انتظام إقامة الشعائر الدينية، وقراءة القرآن الكريم، بل وترميم بناء الجامع، كلما احتاج إلى ذلك.. ومن ثمّ إعطاء العاملين أجورهم ومرتباتهم في كل ما تقدّم.

وكان يساعد قائم مقام الجامع شيخ أو رئيس لكل ناحية، فهناك مريسة للشعالين، ومريسة أو شيخ للمؤذنين، ومثلها للتنظيف.. يعمل العاملين بكل منها على واردیّات ليل نهار. ويتعاظم هذا الأمر في أيام وليالي شهر رمضان المبارك وبخاصة ليلة السابع والعشرين، فضلاً عن المناسبات الأخرى كالأعياد والمولد النبوي الكريم وليلة (27) رجب وليلة النصف من شهر شعبان.

هل ستُحدث بالأموي جامعة؟

هذا هو جامع دمشق الكبير.. الأموي، مفخرة دمشق، ورمز سؤددها، ومنطلق إشعاعها الحضاري إلى العالم.. ومهوى أفئدة قاصدي دمشق من أقاصي المعمورة.. وقد تحدّى كوارث الزمان، ونوائب الدهر.. باق ما بقيت دمشق، تحبّه ويحبّها، تحضنه كما تحضن الأم فلذة كبدها، ويظلّها كما يظلّ الأب أبناءه ويعلّمهم دروس الحياة..

ولكن!!.. أليس من حقه علينا نحن أهل دمشق.. نحن الذين نعيش في أفيائه.. أن نعيد له ألقه الفكريّ ودوره العلمي، يوم كان منارة العلم والمعرفة، في علوم وآداب العربية والدين والأصول والفقه والكلام واللسانيات وسائر العلوم الإنسانية والكونية.

ليست صرخة في واد، ولا نزوة حالم.. لكنه نداء الواجب، تجاه هذا الصرح الحضاري، الذي ما بخل يوماً عن تزويد المرتحلين إليه، من كل حدب

وصـــوب، ليـــنهلوا من علومه ما طاب لهم ذلك.. ومن ثمّ ليعودوا إلى بلدانهم يفيدون بها أبناء جلدتهم.. يوم كان الأموي مَحَجَّ العلماء من المحيط إلى الخليج، ومن بلاد ما وراء النهر، ومن كل صقع إسلامي.. على هذا الكوكب يتزاحمون ليجد الواحد منهم مكاناً تحت قبّته، يفاخر به أنداده بتقديم علومه للدارسين، وفي خدمة الإنسان.. قبل أن ينهض الأزهر الشريف، بمثل هذه المهمّة بثلاثة قرون.

ســـيظلّ الأمويّ شامخاً شموخ تاريخه العريض، وسنظل نحن الذين تربوا في أفيائه.. مدعوّين لسداد دين للأموي في أعناقنا.

علّـــنا نجـــد فـــي الأموي يوماً، جامعة للعلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية والأساســـية، وعلـــوم الطب والعلوم المعاصرة الأخرى.. ليس ذلك بكثير على مسجد دمشق الكبير..

■■

الفصل التاسع
كوارث الأموي ومآسيه..

لـــم يـــنج الأموي من مصائب الزمان ونوائب الدهر.. بل لم يسلم من شرّ الإنســـان أيضـــاً.. فما أصاب الأمويّ من البشر، لم يكن أقلّ مما حلّ به بفعل الطبيعة.. فقد التهمته النيران مراراً، وعصفت به الزلازل تكراراً.

جرائم التتار والمغول:

لقـــد عبـــث التتار والمغول بالأموي مرتين.. مرّة في أواخر القرن السابع الهجري، يوم اتخذوه معسكراً لهم، ونصبوا فيه المنجنيقات، لرمي قلعة دمشق.. وارتكـــبوا فـــيه أشـــكالاً من الإثم والفجور.. ومرّة أخرى يوم أحرق واستباح تيمولنك دمشق وأهلها لجنده، سنة (803هـــ-1400م). فأتى الحريق على أحياء مـــن دمشق، وأصاب جوانب من الأموي، فانهارت المئذنة الجنوبيّة الغربية من الجامع..

الزلازل:

تعرّض الأموي لعدد من الزلازل، التي ضربت دمشق، ومن هذه الزلازل ما كان مدمّراً أو فاجعاً.

* ففي سنة (132هـــ- 749م) أصيب سقف الأموي وانشقّ على طوله، بسبب زلزال أصاب مدينة دمشق.
* وفـــي ســـنة (232هـــ-847م) أصاب الأموي زلزال آخر، نجم عنه انهيار إحـــدى المـــآذن، وتســـاقط حجارتها على المسجد، مما أدّى إلى تداعي جدار الجامع، وتراكم الأحجار والأنقاض، كأنّها جبل.

* كما تعرضت دمشق سنة (597هـ-1201م) إلى زلزال، ألحق بالأموي أشدّ الأضرار، ومن ذلك سقوط المئذنة الشرقيّة وتشقق قبّة النسر ثم انهيارها.
* وإثر زلزال سنة (702هـ-1302م) تفاقم تشقق الجدار الجنوبي للجامع من ناحية الغرب، فنزع رخام ذلك الجدار وهدم الجدار بكامله، وأعيد بناؤه من حجارة البرجين الشماليين.
* أما زلزال سنة (1173هـ-1759م) فقد أتى على أبنية كثيرة في دمشق، وتسبب بهدم الجدارين الشمالي والشرقي للجامع. وبعد شهر شهدت دمشق زلزالاً آخر، أتى على كثير من المباني، فانهارت المئذنة الشرقية للأموي، كما سقطت قبّة النسر، وانهار الرواق الشمالي من صحن (باحة) الجامع..

حرائق الأموي:

* تعرّض الأموي خلال (1300) سنة لعدد من الحرائق، محت آيات حسنة، وطمست وجه جماله، وصيّرته إلى حال يرثى لها.
* ففي سنة (461هـ-1080)م تعرض الأموي لحريق كبير، سببهُ أنّ أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، قدم من مصر إلى دمشق، في هذه السنة، فلما كان بعد عصر يوم نصف شعبان، وقع قتال بين المشارقة من أهل دمشق، وجيش المغاربة.. فضربوا داراً مجاورة للجامع بالنار، فاحترقت ثم امتدّ الحريق إلى الدور المجاورة.. ثم إلى الأموي.. فجلّ الأمر وعظُم.. ولم يبق من الجامع إلاّ الجدران..

لقد أتى الحريق على كل ما كان للجامع من حُسن وبهاء.. من رُخام وزخارف وفسيفساء.. وصارت أرضه بعد فسيفسائها التي تأخذ بالعقول، تلالاً من التراب.. فقد أتت النيران على قبّة النسر ووصلت إلى محراب الجامع.. فتساقطت فصوص الفسيفساء.. وبجهد كبير جمعت كميّات منها حفظت في صناديق أودعت في مشاهد الجامع.

وقال في ذلك ابن العين زربي:

لهف نفسي على دمشق التي كا ... نت جمالِ الآفاق والأقطار

وبقـــي الجامع على هذه الحال أربع عشرة سنة، حتى جرى تجديد عمارة السقف وقبّة النسر، أيام ملك شاه السلجوقي على يد الوزير نظام الملك.

وقد انتاب صحن الأموي بعد ذلك الحريق الإهمال حتى صار كأنه خان أو فندق، فامتلأ الصحن باللاجئين والمقيمين، وصار الرجل يجد لنفسه موضعاً في الصحن، يضع فيه حاجاته، فيقيم على نفسه مقصورة أو كوخاً يستقرّ فيه.. حتى بلـــغ ما في الصحن من المقاصير أكثر من ثلاثمائة.. كما اتخذت فيه حواصل ومســـتودعات لأغـــراض شـــتّى، فلما جاء الملك الظاهر، كانت على يده بداية إصلاحات الصحن، فطرد أولئك الناس، ونظّفه وغسل رخامه وفرشه. وأعادهُ.. للعلم والعبادة.

وقد جرى بلاط الصحن أيام الملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي سنة (600هـــ). وكانت عمارة الجدار الشمالي للصحن قد جدّدت في سنة (503)هـــ في عهد المستظهر العباسي.

* ومـــن طـــريف ما ذكره ابن جبير بصدد هذا الحريق، أنه "كان بالأموي قبل ذلـــك الحريق طلسمات لسائر الحشرات معلّقة بالسقف، فلم يكن يوجد بالجامع شيء منها قبل الحريق فلما احترقت الطلسمات، تكاثر وجود الحشرات.

ومـــن هذه الطلسمات، طلسم للسنونو، فلا تعشّش فيه، ولا يدخله غراب، ولا فأر، ولا حيّة (أفعى) أو عقرب أو عنكبوت".

* ومن الحرائق التي التهمت الأموي، حريق سنة (552هـــ-1154م) وقد شبّ هـــذا الحريق، في حي اللبادين بشرقيّ الأموي.. وسرعان ما امتدت النيران، إلى ناحية الجامع الشرقية، وأصابت جانباً من باب جيرون.

* وفي سنة (570هـــ-1177م) احترقت مدرسة الكلاّسة، بالناحية الشمالية من الجـــامع، فامـــتدّت النيران، إلى مئذنة العروس.. فقام السلطان صلاح الدين الأيّوبـــي بـــتجديد هـــذه المئذنة.. كما قام بإصلاح ركنين من قبّة النسر سنة (575هـــ).

* كمـــا احترقـــت ســـلالم المـــئذنة الشرقية (عيسى) و البيوت التي تحتها سنة (646هـــ-1246م) فأعاد إصلاحها الملك الصالح أيوب.

* وفي سنة (681هـ-1281م) شبّ حريق، في سوق اللبّادين وسوق جيرون، فامتدّت النيران إلى حيطان الجامع، ووصلت إلى قسم من السقف.

* أما في سنة (740هـ-1338م) فقد كان الحريق الكبير بدمشق وامتدّ هذا الحريق إلى القسم الشرقي من الأموي، وقد بدأ هذا الحريق بسوق الدهشة والطرائفيين، فتشعّث جدار مشهد أبي بكر بالجنوب الشرقي من الجامع، وتعلّت شرر النيران حتى وصلت إلى دائر المئذنة الشرقية (عيسى) فتداعى أعاليها، وتفطّرت حجارتها.. الأمر الذي استدعى نقضها وتجديد بنيانها.. فشرعوا بإصلاح ما وَهِيَ منها، فوجدوا أعاليها متداعية، وحجارتها مفطّرة.

وقال في ذلك الشاعر عن دمشق وجامعها الأموي:

جامعها جامع المحاسن قدّ ... فاقت به المدن في جوامعها

تُذكر في فضله ورفعته ... أخبار صدق راقت لسامعها

قد كان قبل الحريق مَدْهَشَة ... فغيّرته نار بلافعها

فأذهبت الحريق بهجته ... فليس يُرجى إياب راجعها

فعمدوا إلى نقض جدران المئذنة الأربعة، كما نقضوا الجدار القبلي (الجنوبي) والجدار الشرقي للمئذنة إلى الأرض، وحفروا ما بين الجدران، في وسط المئذنة عدّة قامات، وبُني ذلك لبنة (قطعة) واحدة، ثم بُنيت المئذنة بنياناً جديداً، لم يُبن من زمن الوليد، أجل منه ولا أوثق.

* وبعد حريق تيمورلنك لدمشق سنة (803هـ-1401م) واستباحته دمشق وأهلها.. التهمت النيران، أحياء من دمشق، وجوانب من الأموي، فأدّى ذلك إلى انهيار المئذنة الجنوبية الغربيّة.

* ثم شبّ حريق آخر سنة (887هـ-1482م) نجم عنه انهيار المئذنة المذكورة ثانية، كما انهارت الزاويتان الغربية والشمالية.

وقد رمّمت هذه المئذنة سنة (893هـ-1487م) من قبل السلطان قايتباي على الطراز المصري، فأصبحت تعرف بمئذنة قايتباي منذ ذلك الحين.

* أما أسوأ كوارث الحريق التي حلت بالأموي وأفدحها، فكانت سنة (1311هـ-1893م)، بأيام الحكم العثماني.

لقـــد أتى هذا الحريق على الأموي بكامله في أقلّ من ثلاث ساعات، كأنّه شعلة من الكبريت..

يُعـــزى سبب الحريق إلى أن عاملاً كان يقوم بإصلاح رصاص قبّة النسر فـــي ضـــحى يوم السبت رابع ربيع الثاني من ذلك العام، فأوقد ناراً امتدت إلى الجامع بكامله. فالتهمت النيران الجامع وأتت عليه وكأنّه في خبر كان.

ولـــم يـــبق من الجامع إلاّ المشهدان اللّذان على طرفي باب البريد. وأيضاً رواق الصحن الممتد من باب جيرون إلى باب مشهد الحسين.

فهـــال الأمـــر أهل دمشق، وسارعوا إلى إعادة الحياة إلى الأمويّ، ليعاود دوره الديني والفكري والاجتماعي في حياه دمشق..

حتّى إنه لم يكن في دمشق صاحب فنّ أو صنعة إلاّ وضع فنّه وصنعته في عمارة الأموي، بل لم يكن في دمشق عامل إلاّ كرّس عمله للأموي، ولا موسع عليه إلاّ قدّم المال بسخاء لهذا الجامع..

لدرجـــة أنه كان يعمل في الأمويّ كل يوم أكثر من خمسمائة عامل.. فما مـــرّت ســـنتان حتى كان حرم الأموي قادراً على استقبال المصلين.. ثم بوشر بإنجـــاز الصحن والمآذن والأروقة، وبعد سبع سنوات أخرى من العمل الدؤوب اكـــتمل البناء وجرى الاحتفال بذلك في الثامن مِن شهر جمادى الأولى من سنة (1320هـــ-1901م).

وهكـــذا فإن الأموي، ما كانت تُلمّ به كارثة أو تنزل به نازلة، إلاّ كان أهل دمشـــق يتســـابقون إلى مسح جراحه، ورأب صدعه وإعادة الحياة إلى أوصاله، ليعاود تألّقه علماً ونوراً وإيماناً، ومواكبة لحياة الناس، ولمّ شملهم ليصهرهم في بوتقة المحبّة والإيثار والتوادّ والتعاضد..

ولم يكن أحد من المسؤولين ليتلكأ عن القيام بذلك، حتى لكأنّ الأمويّ رمز لهذا التحابّ والتناصر والتعاضد..

وقـــد بقـــي الناس على هذا النهج للقيام بما يلزم للأموي من فرش وسجّاد وترمـــيم وتخديم.. فضلاً عن هذا، تقوم الجهات المسؤولة في وزارة الأوقاف، والمديرية العامّة للآثار والمتاحف بجهود لإعادة ما يمكن إعادته لرونق الأموي وبهـــاءه، فـــي إطار الحفاظ على مكانته التاريخية والحضاريّة ودوره في حياة الناس..

وظـــلّ الأمر كذلك حتى العقد السادس من القرن الماضي (العشرين) حيث

بوشـــر بإعادة تبليط صحن الأمويّ (باحته) وإعادة ترخيم مدخلي الجامع، لباب الـــبريد وبـــاب جـــيرون (النوفرة) (سنة 1964) على يد السيد أكرم الشوّا كما أشرنا في حينه.

ولعـــلّ من المؤسف، أن قام المسؤولون بالجامع، خلال عملية التبليط هذه، بفتح قبّة الخزنة بالصحن، وإتلاف ما فيها من أوراق، على ما لتلك الأوراق من قـــيمة وثائقـــية، تضـــيء لنا جوانب من حياة الأموي، من ناحية العاملين فيه، وتنظـــيمهم في مشيخات ومريسيّات، ودور كل واحد منهم وأجره، أيام الحول، وبخاصّـــة في شهر رمضان المبارك.. ولعلّ من المفيد سؤال السيد أكرم الشوا، علّـــه لا يـــزال يحتفظ بشيء من هذه الأوراق، لما فيها من انعكاس على الحياة العامة.. وإضاءة لأنماط العمل وتنظيمه بالأموي.

أعمال ترميم:

وقامـــت المديـــرية العامـــة للآثار والمتاحف بالتعاون مع وزارة الأوقاف بأعمال أخرى منها:

- ترخيم جدران باب البريد، وتركيب بلاط القاشاني.
- تركيب العمود الذي بالجهة الشمالية الشرقية من صحن الأموي.
- إصـــلاح المئذنة الغربية (قايتباي)، وفك الجزء المتصدّع من المئذنة الشرقيّة (عيسى).
- نـــزع الكلسة الواقية التي كانت تحمي ألواح الفسيفساء من تساقط فصوصها، لترميها، وإكمال النواقص من فسيفساء باب البريد والرّواق الغربي، وإصلاح الأقســـام الآيلـــة للســـقوط من الفسيفساء في قوس الزاوية الشمالية الغربية، بالإفـــادة مـــن الفصـــوص المحفوظـــة في مستودعات الأموي، التي لم ينلها الحريق.
- وتدعـــيماً لذلك، أنشئ فرن زجاجي صغير، لإنتاج فسيفساء جديدة من البلور لاستكمال أعمال الترميم.
- كما جرى تدعيم جدار الرواق الشمالي، وفكّ التالف منه، وإعادة تشييده.
- ورممت الواجهة الخارجية لباب جيرون (النوفرة).
- وجـــدّدت الأعمدة الأربعة المتصدّعة بالزاوية الشمالية الغربية للرواق مع قواعدها.

- كمـــا جـــدد بابـــي جيرون الخشبيين، وأعيدت زخارفهما النحاسية بعد إكمال نواقصها.

لفتة كريمة:

مع كل ما قُدّم للأموي من جهد ومال بعد حريق (1311هـ-1893م) فإن الأموي ظلّ يحتاج إلى المزيد المزيد من العطاء الذي يمكن أن يتناسب مع هذا الصـــرح المعمـــاري والمعلّـــم الديني، لأنّ جميع ما قُدّم كان حصيلة الظروف والإمكانـــات التقنـــيّة المـــتوفرة، وهـــي على جودتها كانت تفتقر إلى التقنيّات المتطورة، رغم توفر الخبرة والمهارة..

الأمر الذي لفت نظر السيد رئيس الجمهورية الرئيس حافظ الأسد، فأصدر القـــرار الجمهوري رقم (36) بتاريخ 1990/10/6م، القاضي بتشكيل لجنة من المؤرخيـــن والأثريـــن والمهندســـين، مهمتها إصلاح وتطوير الجامع الأموي وإعـــادة الألـــق والرونق إلى معالمه، كما كانت أيام الوليد بن عبد الملك، وقد مُنحـــت اللجنة صلاحيات لا حدود لها لإنجاز هذا العمل على أكمل وجه، على أن تأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

* الحفاظ على أصالة هذه الآبدة دون المساس بقيمتها التاريخية.
* تحقـــيق التوازن الدقيق بين المحافظة على أصالة الأموي ووظائفه الأساسية، وبين التطوير المزمع إحداثه.
* اعـــتماد جمـــيع الدراسات على الوثائق التاريخية قبل تنفيذ أعمال الإصلاح والترميم.

وبعـــد خمـــس سنوات من العمل الدؤوب، قامت اللجنة بكثير من الأعمال الدقـــيقة التي شملت البنى التحتيّة للأموي، كالأساسات وشبكة المياه، والصرف الصـــحيّ.. كما شملت المئذنة الغربيّة والبرج الذي تقوم عليه. وكذلك الجدران الخارجـــية المحـــيطة بالأموي، وقواعد الأعمدة وتيجانها، من خلال ترميم أو تـــبديل العناصـــر المعماريـــة الـــتالفة أو المهترءة، ومعالجة تصدّع الأحجار، واســـتكمال مواقعهـــا الساقطة من مكانها، وترميم تشقّق الجدران المائلة بتدعيم أساســـات القسم المائل منها، وفكّ الأجزاء المائلة من الجدران، بعد الأخذ بعين الاعتـــبار، مفاصل خط هذا التفكيك.. ومن ثم إعادة تركيب الجزء المفكّك، بعد اســـتبعاد الأحجار التالفة والمتصدّعة والمتشقّقة.. كما في شرق مئذنة العروس،

والواجهـــة المطلّة على مشهد أبي بكر، وجداري البرجين المطلّين على الجنوب والغـــرب، وأيضـــاً القسم العلوي من المئذنة الغربية والجدار الشرقي من مشهد علي.

أمّـــا الســـقوف، فقـــد جرت معالجة أخشاب (طَبَقْ) السقوف المائلة للحرم وأســـقف الأروقة، المغطّاة بالرصاص، وتبديل التالف من أخشاب ذلك الطّبَقْ، كمـــا جرى تجديد البلّة (التراب الرطب) التي فوق خشب الطّبَق، بحيث لا تزيد ســـماكتها عـــن (3) سم، وبالتالي تجديد الطينة الساترة للبلّة، وهي من التراب الأحمر الممزوج بالتبّن بسماكة (2) سم.

وجرى أيضاً تجديد الأقسام التالفة من صفائح الرصاص المغلّفة للأسطحة، وصهرها وإعادة سبكها، ثم سحبها لتكون بسماكة (2–3 مم).

كمـــا جـــرت معالجة أبواب الحرم الخشبية ونوافذه، بإصلاحها واستكمال نواقصها مع الحفاظ على القديم الجيد منها.

أمـــا أبـــواب الجامع الرئيسية، فقد عُمد إلى إصلاحها وتلبيسها بالزخارف النحاســـية.. وأنشئت مظلاّت لمدخل الباب الغربي وباب الزيّادة الجنوبي وباب الناطفييـــن الشـــمالي.. وذلـــك دون المساس بمعالم الجامع الرئيسية ومخططه وطرازه.

❐

ثبت المصادر والأبحاث:

1–ابـــن بطوطة: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار المعارف بمصر: 1985م.

2–ابن جبير: الرحلة، دار التراث، بيروت، 1968م.

3–ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ت. د. سامي الدهان. المعهد الفرنسي بدمشق: 1956م.

4–ابـــن طولون الصالحي: القلائد الجوهرية، في تاريخ الصالحيّة (ج: 1–2) ت محمد أحمد دهمان مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق ط (1) 1956م.

5–ابن فضل العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. دار الكتب المصرية: 1924م.

6–ابـــن كـــنّان الصـــالحي: المواكـــب الإسلامية فيْ الممالك والمحاسن الشاميّة. ت: حكمت إسماعيل. وزارة الثقافة دمشق 1993م.

7–أبو البقاء البدري: نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية بالقاهرة: 1341هـ.

8-أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية، ت: أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة: 1959م.

9-سيده إسماعيل الكاشف: عبد الملك بن مروان، سلسلة أعلام العرب (17) وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر: 1962م.

10-شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية 1955م.

11-عبد القادر بدران: حريق الجامع الأموي أيام العثمانيين. دمشق: 1953م.

12-عبد القادر ريحاوي: جامع دمشق الكبير، دمشق: 1960م.

13-علي الطنطاوي: الجامع الأموي بدمشق، مطبعة الحكومة، 1960م.

14-علي القيّم: الجامع الأموي من عهد الوليد إلى عهد حافظ الأسد. لجنة إصلاح الأموي وتطويره. دمشق: 1992م.

15-عفيف بهنسي: الجامع الأموي الكبير. دار طلاس: 1988م.

16-محمد عاطف وصحبه: أدبيات اللغة العربية، نظارة المعارف العمومية، مصر: 1906م.

17-منير كيال: رمضان في الشام أيام زمان. ط(2) مكتبة النوري دمشق: 1992م.

18-ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر بلبنان: 1995م.

19-أبحاث منشورة في كتيّب صادر عن حلقة التكامل الاجتماعي بدمشق بالتعاون مع وزارة الأوقات عن فسيفساء الجامع الأموي. سنة 1964م. للدكتور سليم عادل عبد الحق والمهندس عبد اللطيف قزّيها .

20-أبحاث منشورة في مجلة الحوليات الأثرية السورية للدكتور عبد القادر ريحاوي:

-فسيفساء الجامع الأموي المجلد، (11) سنة: 1964.

-رحلة الخياري إلى سورية المجلد (15) سنة: 1965.

-إسهام في دراسة الجامع الأموي المجلد 15/1 سنة 1995.

■■■

الباب الثالث:

العمارة والبناء

- القصور الدمشقية.
- الدور الدمشقية.
- حمامات دمشق.
- خانات دمشق.

الفصل العاشر
القصور الدمشقية

قصور بني أمية:

إن النصـــوص التي بين أيدينا عن القصور الدمشقية، في مختلف العصور الإســـلامية، قلـــيلة جداً، ولم تحفظ لنا الأيّام القصور التي كان خلفاء بني أ ميّة يحـــبّون الإقامـــة فيها. ونحن لا نعرف عن قصور بني أميّة، إلاّ ما كان منها خارج دمشق.. أمّا ما كان في دمشق، نعلم مكانه ونجهل صفته.

وقـــد ألّـــف ابن أبي العجائز، كتاباً عن قصور بني أميّة، نقل عنه ياقوت الحمـــوي الكثير، لكن هذا الكتاب لم يصل إلينا. كما ذكر ابن عساكر، عدداً من دورهـــم التي كانت بدمشق، عند الكلام عنهم، كدار هشام بن عبد الملك، ودار عمـــر بن عبد العزيز وغيرهما.. ولم يصف واحدة منها.. حتى الخضراء دار الإمـــارة التي بناها معاوية وسكنها أربعين عاماً لم يتعرّض إلى وصفها.. وفي زمـــن العباســـيين، بنى المتوكل قصراً بين: داريا والمزّة.. لم يُعرف شيء من صفته، ولعلّه المقصود في قول البحتري، عند ذكره دخول المتوكل إلى دمشق:

العـــيش فـــي ليل داريا إذا بردا والـــراح نمـــزجها بالمـــاء من بردى

قصور العهود الأخرى:

ثـــم بـــنى خمارويـــه فـــي الـــربوة قصراً.. وجاء الفاطميون والبويهيون والســـلاجقة والأيوبيون.. كلهم ولا شكّ بنوا القصور والدور.. وقد وصل ذكر بعضها إلينا، لكن صفتها كانت بعيدة المنال.

أمّـــا في زمن المماليك، فقد اشتهرت دور وقصور بعض الأمراء، ونوّاب

السلطنة المملوكية، ونحن نستطيع أن نتصوّر صفة دور وقصور هؤلاء الأمراء في زمن المماليك، من الدور التي كانت بمصر.. إذ من المحتمل أن يكون هؤلاء الأمراء، الذين كانوا بدمشق، قد قلّدوا في طراز دورهم، دور القاهرة..

غير أنّ أروع قصر بُني في دمشق، زمن المماليك، كان القصر الأبلق، وقد تسلّط على هذا القصر، السلطان سليم العثماني، فأخذ حجارته وبنى بها التكيّة المعروفة باسمه (التكيّة السليميّة). وهي لا تزال قائمة بدمشق حتى أيامنا.

العهد العثماني:

أما في العهد العثماني، فقد شهدت دمشق بناء الكثير من الأبنية الدينيّة كالمساجد والتكايا، والأبنية التجارية، كالقيسايات والخانات.. فضلاً عن الأبنية المدنية، من دور وقصور، وبخاصة في حيّ سوق ساروجة المعروف باستامبول الصغرى، وحيّ القنوات (الوردات) سكنى الأغوات والمسؤولين من رجال الدولة..

ويلاحظ في جميع هذه الأبنية، أثر طراز الأناضول المعماري واضحاً، في العمارة والبناء. وهذا أمر طبيعي، لأن الذين كانوا يبنون القصور والدور الفارهة المترفة كانوا ولاة، أو ممّن يلوذ بالسلطة من أصحاب السطوة والطَول.. وقد تأثر هؤلاء باستانبول، وقد يكونوا عاشوا فيها طويلاً.. ولا غروَ أن يستمدّوا طراز دورهم وقصورهم منها.

كما أن أعيان دمشق الذين يبنون البيوت الفارهة المترفة، انساقوا في هذا المنحى، يقلّدون الولاة فيما بنوه، على قدر استطاعتهم، فشيدوا كما شيّد أولئك الولاة، مع فروق في الزخرفة والأبّهة وكثرة الإنفاق. أما الهيكل العام للبناء فكان واحداً في جميع الأحوال...

المخطط العام للقصور:

وقد تأثرت تلك الدور والقصور في مخططها العام بحاجات صاحبها وبالغرض الذي أنشئت من أجله، وإذن فلا بُدّ من أن يكون في البناء قسمان. قسم عام لاستقبال الناس، أطلق عليه اسم (السلاملك). وقسم آخر للحريم والأزواج، كان يسمى (الحرملك).. يضاف إلى ذلك قسم ثالث في قصور الأمراء والولاة هو قسم الخدم (الخدملك).

وكل قسم من هذه الأقسام تأثر أيضاً بما أُعدّ له. فروعِيَ في (السلاملك) ما ينبغـــي أن يكون ، في مكان يجلس فيه الوالي للناس، ويستقبل فيه أرباب الدولة وأصحاب الأمر.

وروعـــي فـــي (الحـــرملك) ما ينبغي أن يكون في مكان أُعدّ، لتعيش فيه النساء.. (فالسلاملك) كان على درجة كبيرة من الفخامة والروعة، بما يضمّ من الأبهـــاء وقاعة الاستقبال الكبرى والإيوان الكبير. ليكون متناسباً مع ما أُنيط به من فخفخة وجاه..

أمـــا (الحـــرملك) فهـــو أعظـــم شأناً، لأنّ حياة الحريم السجينة آنذاك بين الجدران، لا تستطيع أن تطمح برؤية الخارج.. وكان من الضرورة بمكان أن يـــتوفر فـــي جناح (الحرملك) كل ما من شأنه توفير الراحة والهناءة والمسرّة لســـكان هـــذا الجـــناح، بل كل ما يرغب في البقاء.. من غرف باتجاه الشمس، وأخـــرى يجـــثم بها الظل، وغرف فيها الطراوة والرطوبة، يجوبها الإنسان من لـــذع القيظ، وأن يكون في هذا (الحرملك) صحن (فناء) واسع، أرضه مفروشة بالـــرخام، وفي وسط ذلك الفناء الواسع بحرة كبيرة يتدفق فيها الماء، ويتشامخ من نافورتها فينشر رذاذها نشوة ومتعة، وفي الأطراف من ذلك الفناء أحواض الزهر والورد والأشجار المثمرة.

وإلـــى جانـــب هذا كله، لابد من إيوان (ليوان) واسع يطل على الصحن، يســـتقبل نســـيمات الهـــواء العلـــيل في حرّ الصيف القائظ.. وقد زيّن ذلك كله (القاعات والإيوان والجدران) بالرخام الملون المجزّع والمفصص المشقّف. أما الخشـــب الـــذي يغلـــف جدران الإيوان والقاعات (الحلقة الخشبية) فإنه مدهون بـــأغلى الأصـــباغ ومزخرف بأبدع الزخارف الهندسية والنباتية، مع أبيات من الشـــعر الغزلـــي والدينـــي اللطـــيف والأمثال والحكم موزعة في أعالي الحلقة الخشـــبية بالغـــرف والإيـــوان وعلـــى جوانب الخرستانات (الكتابي) بالغرف. وبالطبع فإن القصر والدور الفارهة، لا تخلو من حمام، فيه أمكنة للمياه الحارة والباردة.. واصطبل للخيول ومكان للعربات.

قصر أسعد باشا العظم:

ولعـــلّ قصـــر أســـعد باشا العظم، أكثر هذه القصور والدور اتصالاً بالفن الإســـلامي فـــي دمشق، وهو أنموذج فريد للقصور الدمشقية التي يُعتدّ ببنائها، لمعرفة ماكانت عليه القصور في دمشق في القرن الثامن عشر.

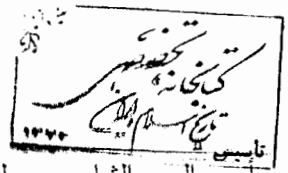

أعمال أسعد باشا العمرانية:

كـــان أسعد باشا العظم، والي الشام وأمير الحج الشامي، مولعاً بالعمران، وقـــد تميّز عن غيره من الولاة العثمانيين، بالأعمال العمرانية، التي قام بها، في كثير من الأماكن، سواء ماكان منها في سورية، أو على طريق الحج.

مـــنها: الخـــان الشـــهير في معرّة النعمان لأبناء السبيل، والخان والحمام والـــبركة الكبـــيرة لأبـــناء السبيل في خان شيخون قرب المعرّة، والخان لأبناء السبيل ودار الحكومة في حماة.

كمـــا بنى بركاً عظيمة، وقلاعاً على طريق الحج، منها ماكان في المعظّم، والأخضر، والنخلتين، وقلعة المداين.

أمـــا في دمشق وريفها، فقد قام ببناء أبنية كثيرة منها: مقام السيدة زينب، وجســـر الكســـوة، والخـــان المعروف باسمه في البزورية بدمشق، ويعدّ أعظم خانات دمشق، راحة وجمالاً وبناءً.

علـــى أن أعظم وأروع وأبهى ما تركه في دمشق، فهو قصره الذي أراده لســـكناه.. وهو في أيامنا مقصد السياح والزوار العرب والأجانب، وبخاصّة بعد أن اتخذ متحفاً للتقاليد الشعبية السوريّة...

بُنـــي هـــذا القصـــر في قلب مدينة دمشق القديمة، على مقربة من الجامع الأمـــوي فـــي منتصـــف القـــرن الثامـــن عشر (1749م) على أرض ساحتها (5500م2). وهـــو يشـــغل قسماً من صحن معبد جوبيتر الدمشقي، كما يشغل مكـــان دار الفلوس في صدر الإسلام، ومكان دار الذهب التي بناها تنكز نائب الســـلطنة المملوكـــي بدمشـــق.. وفي مكان هذا القصر.. أنشئ زمن الأيوبيين والمماليك كثير من المدارس والأبنية التاريخية الأخرى.

1- مواد بناء القصر:

أما المواد التي بني منها القصر، فقد أخذت من أمكنة متعددة، أو اغتصبت من أناس متعددين، ويذكر البديري في حوادث سنة (1163هـــ) أخباراً تكاد لا تصـــدق، عـــن الأسلوب الذي اتبعه أسعد باشا، للحصول على الرخام والأعمدة والأخشاب التي تطلبها بناء القصر. ومن ذلك:

شهادة أحمد البديري الحلاّق:

"وفـــي تلـــك الأيام (سنة: 1163هـــ). أخذ الوزير أسعد باشا، دار معاوية

ومـــا حولهـــا مـــن الخانات والدور والدكاكين.. وشرع في عمارة داره السرايا (القصـــر) المشهورة، التي هي قبلي الجامع الأموي.. وجدّ واجتهد في عمارتها لـــيلاً نهاراً.. فقطع جملة من الخشب، اثنا عشر ألف خشبة، وذلك ما عدا الذي أرســـلوه لـــــه أكابـــرَ الـــبلد والأعيان.. ورسم على حمامات البلد أن لا يباع (قصـــرملَ)[1] لأحد، بل يُرسل لعمارة السرايا، واشتغلت بها غالب معلمي البلد (أي معمـــاريّ البلد) ونجاريها، وكذلك الدهّانين.. حتى قلّ أن يُوجد معلّم متقن، أو دهـــان.. إلاّ والجمـــيع مشتغلون بها. (يقصد القصر). وجلب لها البلاط من غالـــب بيوت المدينة.. وأينما وجُد، بلاط أو رخام أو غير ذلك، مثل عواميد أو فساقي.. يُرسل يقلعهم، ويرسل القليل من ثمنهم"...

"وكـــان في قرب قرية البرامكة، قصر يُقال لـــه الزهرانية، قيل أنه يعود لأيّـــام الملـــك الظاهر، وكان متنزّهاً فيما مضى، وقد تهدّم غالبه، وبقربه مدفن علـــيه قـــبّة مـــن حجر.. فأمر أسعد باشا بهدمها ونقل حجارتها لإتمام قصره. وكذلـــك الحـــال بطاحون الرهبان، التي كانت بوادي كيوان، بعد أن قطع مياه الـــنهر عـــن أصحابها اثني عشر يوماً. كما أمر بقطع ثلاث سروات ليس لهم نظير في الشام، كانت في دار ابن قرنق بالصالحية".

فضـــلاً عـــن هـــذا "نقل أحجاراً وأعمدة من بصرى، وأعمدة غلاظاً من مدرســـة الملـــك الناصـــر التـــي في الصالحية، جيء بهم على عربات تجرّها الأبقار.. وهدم سوق الزنوطيّة التي فوق حارة العمارة، وكان كلّه أقبية معقودة فأمر بفكّه ونقله إلى قصره.. ونقل أيضاً أعمدة من جامع يلبغا...".

وكان كلما سمع بقطعة نادرة أو تحفة من رخام أو قيشاني أرسل من يأتي بها رضي صاحبها أم أبى..

وقـــد أخـــذ قدراً كافياً من مياه نهر قنوات، مما تسبّب في قطع المياه عن السبلان وعن عدد من الجوامع والحمامات".

2- مخطط القصر وأقسامه:

أما مخطط القصر، فلا يخرج عن المخطط العام لقصور العثمانيين، الذين أتيـــنا على تفصيله، وبخاصة ارتباط هذا المخطط بحاجات المقيمين في القصر،

---

[1] *القصـــر مـــل: هو رماد وقود حمام السوق بدمشق، يوم كانوا يُوقدون روث الحيوانات، وهذا الرماد يخلط بنسبة من لبن الكلس، ويستخدم ملاطاً للبناء. قيل أن يُعرف الاسمنت.*

وبالغرض الذي أنشئ من أجله القصر.

فهو والحال هذه مؤلف من قسمين (السلاملك) للرجال، و(الحرملك) للنساء ومن قسم ثالث للخدم والأتباع.

السلاملك:

يدخل الزائر من الباب الغربي للقصر إلى دهليز معقود، فيجد على يمينه مصطبة صغيرة، يقابلها إلى اليسار غرفة البوّاب، فإذا مشى سبعة أمتار، انعطف نحو اليمين، متوجهاً نحو السلاملك، فيصادف على اليمين حديقة صغيرة، وكان مكانها غرفتان تهدمتا عندما احترق القصر سنة 1925م خلال أحداث الثورة السورية الكبرى. ثم نصل إلى فناء واسع (صحن) في وسطه بحرة مستطيلة، وفي صدر هذا الفناء، إيوان فيه زخارف هندسية مكفتة وملوّنة. وعلى جانبيه غرفتان، وفي غرب الإيوان غرفة خشبها مدهون، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الغرفة نجد المقرنصات الخشبية. وإلى الغرب من هذه الغرفة مطبخ صغير.

والبناء الحديث الذي نراه في السلاملك، بناه الفرنسيون، وكان داراً لمدير المعهد الفرنسي، يوم كان القصر معهداً للدراسات الشرقية.

الحرملك:

أما جناح الحريم في القصر، فقد أُعدّ بشكل يتلاءم والعادات والتقاليد الإسلامية من جهة، وعادات ذلك العصر من جهة أخرى. لأنّ المرأة آنذاك كان عليها أن تبقى قابعة في البيت، لا تخرج منه... كما يجب أن لا يراها الناس.

لذا فإن الحرملك كان يُدخل إليه عبر دهليز متعرّج، له ثلاثة أبواب متعاقبة.. وفي هذا الجناح، كلّ ما يُرغّب بالبقاء، من غرف تدخلها الشمس، وأخرى تنعم بالفيء والظلّ.. وإيوان للأمسيات، وصحن مترف بالورد والزهر والريحان والياسمين، وأنواع الأشجار المثمرة.. وأرض بلطت بالرخام البديع الملون (المشقّف)، وبحرة كبيرة مستديرة تتشامخ المياه من نافورتها.. ثم تتقصّف ناشرة رذاذاها على ما حولها بشكل بديع أخّاذ.. فضلاً عن البحرة الأخرى المستطيلة التي تمتدّ شرقاً بغرب ولا ننسى الحمام بأقسامه الباردة والحارة وأجرانه الأنيقة المترفة بالنقوش النافرة...

قاعة الاستقبال الكبرى:

أهـم مافـي هذا الجناح قاعة الاستقبال الكبرى، التي كانت، أروع قاعات قصـور دمشق، إذ يبلغ طول واجهتها سبعة عشر متراً، وقد بنيت من الحجارة الملونـة بواقـع، مدمـاك من الحجر الأبيض، يعقبه مدماك من الحجر الأسود البازلتـي.. وفوق الباب والنوافذ، زخارف متنوعة من الحجارة المكفّتة بالجصّ الملون وهذا التناوب بالمداميك هو ما يُعرف بالأبلق.

وبـاب القاعة محاط بإطار من الرخام المشقف المصدّف، فوقه لوح عليه أشعار بمديح أسعد باشا وتاريخ بناء القصر.

وقـد كسـيت جدران القاعة بوزرة من الرخام الملوّن، فوقها إطار (حلقة) خشـبي مدهـون بطريقة الدهان العجمي بألوان متناسبة نافرة لأشجار وأزهار وعروق نباتيّة، ويتخلل ذلك بالأعلى، كتابات بحروف من ذهب لأحاديث نبوية، وحكم، وأشعار.

وفوق تلك الحلقة تبدو الجدران بيضاء، تستريح فيها العين لتفاجأ بالسقف، الذي كان قبل حريق سنة (1925)، رائعاً بألوانه الجميلة الحيّة كسجّادة عجمية.

وفـي صـدر القاعـة يكـون الجدار مكسوّاً بألواح من الرخام المحفور والمذهـب، وفـي وسـط ذلـك الجـدار نجد محراباً على جانبيه عمودان من الغرانيت.

وإذا تسـاءل أحدنـا عن سبب ذلك الاهتمام بهذه القاعة، فالقول لأنها أهم مافـي جناح الحرملك، كونها قاعة المناسبات السعيدة والاستقبالات والسهرات والأفراح والليالي الملاح..

أمـا مـا تبقّى من غرف هذا الجناح، فقد كانت كل غرفة منها لواحدة من نساء الباشا وخدمها..

ولعـل أهـم ما يميّز قاعات القصر، وبخاصة القاعة الكبرى، كون أرض القاعـة من مستويين.. أحدهما منخفض يُعرف بالعتبة، والآخر مرتفع عنه بعلوّ نحو (50 سم). ويُدعى هذا القسم العلوي بالطزر، وقد تكون القاعة بطزرين أو ثلاثـة، كمـا أشـرنا. وتكـون أرضية الطزر من الملاط البسيط، الخالي من التأثـيرات الزخرفـية. وقد تكون هذه الأرضيّة مدفّة لعزل الرطوبة، وفي كلا الحالتيـن تفـرش أرضـية الطزر بالحصر أو اللباد، ومن ثم بالسجاد العجمي

التبريزي أو السيراجي.. على حين تحيط بالجدار الصدراني والجانبين، طراريح (حشوات) مجلّلة بقماش حريري مقصّب، وموشّى باللون الفضيّ والذهبي. وعدد من طربيزات الموزاييك المصدّف. وفي الكتبيّات صمديات من الأواني الصينيّة الودع، والأواني الفضيّة.

أما العتبة بالقاعة، فهي مبلّطة بالرخام الأبيض والوردي، المؤطّر بأميال سوداء رخامية، وتحتل الزوايا تشكيلات رخامية رباعية، تتوسطها تكوينات رخامية دائريّة ملونة.

ويتوسط العتبة فستقيّة من الرخام المشقّف، المكوّن من قطع صغيرة من الرخام مجموعة بطريقة الفسيفساء، وحول تلك الفستقية، مساحات من الرخام تأخذ شكل المثلث، تجعل الإطار المحيط بالفستقية رباعياً. وهذه المثلثات من الرخام المشقف البديع التكوين.

وفي جدار العتبة مصبّ رخاميّ بديع التكوين ينساب منه الماء، فيتكامل خرير ماء هذا المصب، مع صوت انبعاث ماء نافورة الفستقية، مما يبعث في النفس الشعور بالسعادة والانتعاش وراحة الأعصاب.

3ـ تزيين القصر:

لقد ضمَّ القصر ست عشرة قاعة، وتسع عشرة غرفة، في الطابق الأرضي، وتسع غرف بالطابق العلوي، وثلاثة أواوين، ورواق بخمسة أقواس، وأربعة أقبية كبيرة.. وأربع برك (بحرات) كبيرة، وتسع عشرة فستقيّة ماء أرضيّة أ و جدارية.. وجميعها يستمد مياهه من نهر قنوات (أحد فروع نهر بردى).. وذلك فضلاً عن الحمام المشار إليه آنفاً. وهذا بالطبع غير إصطبل الخيول، ومرآب الحناطير.. وقد أتت هذه القاعات والغرف في أبدع صورة من التألّق والتفنّن... وتبدّى ذلك: في الرخام والمرمر، وفي الخشب، وفي زخارف الحجارة.

1- أعمال الرخام:

استخدم الرخام في فرش الأفنية (الباحات) كلها بالرخام، وقد ركّب الرخام بأشكال هندسيّة متعدّدة وبألوان منوّعة، فأنت تجد في هذه الأشكال، المستطيلات والمثلثات والدوائر والمنحنيات، وتجد اللون الأبيض والأحمر والأسود.. وفي بعض الأماكن تجد زخارف الرخام محفورة بالرخام وقد أحيطت بخيوط ذهبيّة.

الحرملك في قصر العظم

الرواق الشمالي الشتوي بقصر العظم

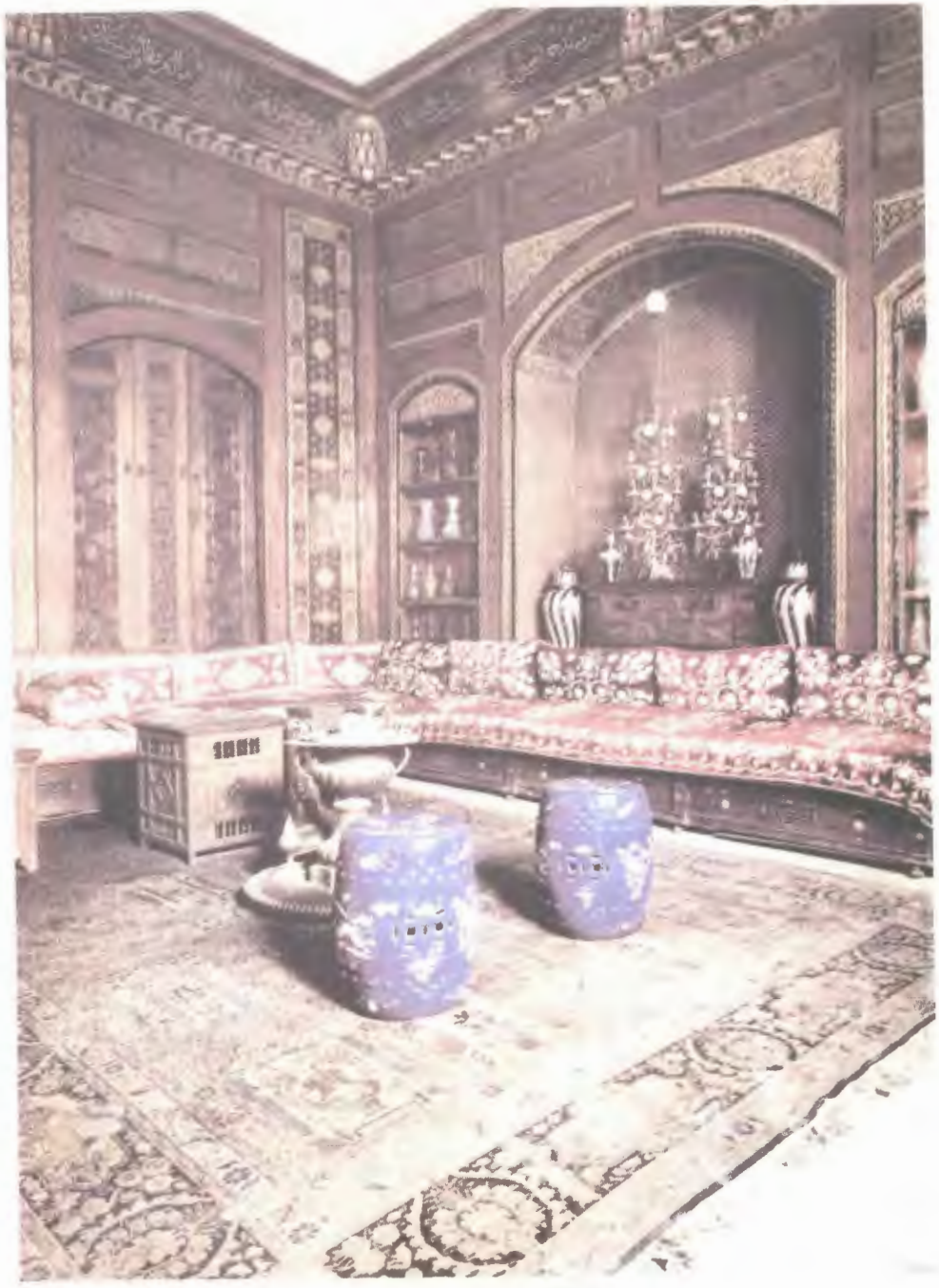

الحلقة الخشبية بقصر العظم

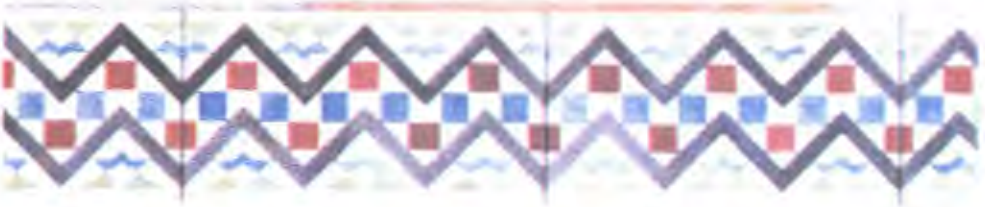

بالأعلى: زخارف الأفاريز في أعلى الجدار .

بالوسط: الرخام المشقف في العتبات . بالأسفل: تكفيت الحجر على الأقواس .

محمل الحج الشامي

قصر العظم: مشهد جلوة العروس

فناء بيت نظام

فناء بيت سقا أميني

2 ـ الخشب :

أمّـا الخشـب فقد كان استعماله لتغطية عمدان السقوف، وكسوة الحيطان حتى أنصافها بما يعرف بالحلقة الخشبية، فضلاً عن الأبواب والنوافذ.

فالخشـب في السقوف والجدران دُهن بأصباغ متعددة، فيها توافق وانسجام وذوق، بأشـكال هندسية أو نباتية، ومن ذلك: ضروب من الزهور، وأنواع من الفاكهـة وأغصان الزرع، وهذا ما يعرف بالعجمي... ونميّز بالعجمي المذكور نمطين؛ نباتيّ وحريري.

الدهان العجمي:

فالـنمط النباتـي يعـتمد علـى تـنزيل عجينة لدنة ((قوامها من: الزنك، والاسـبيداج، والكثيرة، والغراء، والجبصين)) فوق رسوم الزخارف التي على أخشـاب الحلقـة الخشـبية المغلّفة للجدران، والألواح الخشبية المغلّفة لعمدان السـقف فتصـبح نافرة. وبعد أن تجف هذه العجينة تُطلى بألوان ترابية مناسبة للرسـم.. ثم يُطلى العمل بالورنيش، أو اللّكر، وهذا ما نجده في الحلقة الخشبية. أما النمط الحريري، فيعتمد على تنزيل الألوان الترابية فوق مواضيع الزخارف علـى الألواح الخشبيّة دون أن تشكّل طبقة نافرة.. ثم تُطلى بالورنيش أو اللّكر. على غرار ما نجده في السقوف.

دهان السقوف:

وتمتاز السقوف بأناقة ونضارة لا مثيل لها، فتارة يكون السقف على شكل جسور صغيرة بارزة، تُفصح عن الجانب الإنشائي للسقف، وهي مطليّة بالدهان ومذهـبة. وتارة تكون ألواح الخشب مغلّفة لعمدان السقف، وهي مدهونة، على شـكل رسوم نباتية بأشكال متعدّدة، كالنجمات والزهور، ذات الألوان المعتدلة، التـي تبرزها الألوان الذهبية المحيطة بها. ومن السقوف ماكانت زخارفها على شـكل سـجّادة تستر الأعمدة والجسور الحاملة للسقف. ويلاحظ تنوع السقوف، ووجـود الكثير من الأشكال الهندسيّة النافرة والغائرة، لدرجة أن هذه السقوف، تُعدّ آية من آيات الزينة.

كمـا يلاحـظ وجود أبيات من الشعر حول الحيطان وفي أطراف سقوف الغـرف وفـوق كتابي الصمديات، بالحلقة الخشبية المغلّفة للجدران وأغلب هذا الشـعر فـي مديـح الرسـول (ﷺ) مـن بُردة البوصيري، فضلاً عن الحِكم والأحاديـث النـبوية.. وقد نجد في حيطان الحلقة الخشبية أيضاً زخارف نباتية

علـــى شكل باقات من الزهر، تحيط بها خيوط من الذهب، خُيّل لايكوشار أنها مأخوذة، عن مواضيع إيطالية، كانت رائجة ومنتشرة في القرن الثامن عشر.

ونجـــد فـــي (السلاملك) ظاهرة جديرة بالملاحظة، وهي أن بعض الخشب مطعّم بزجاج وخرز أو مرشوش بالذهب والفضّة..

3 ـ زخارف الحجر:

ونعني بذلك، زخارف الجدران المطلّة على الباحة، سواء في قصر العظم أو سائر البيوت والدور الدمشقية، ولما كانت هذه الجدران معرّضة للأنواء، من حـــرّ وقـــرّ وســـعة حرارية واضحة بين الليل والنهار، والصيف والشتاء، فإن المـــناخ الـــذي يســـود مدينة دمشق بحرارته اللاهبة في فصل الصيف، وبرده القـــارس فـــي فصـــل الشتاء.. هذا المناخ يلعب دوراً أساسياً في طبيعة الترف والزخرفة على هذه الجدران.. لما للأنواء من أثر على هذه الجدران.

ولـــيس معـــنى ذلك خلوّ تلك الجدران من المسحة الجمالية، التي تتسم بها أفنية (باحات) الدور والقصور الدمشقية.

فقـــد عمـــدوا إلـــى بناء الجدران المطلّة على فناء الدار(أرض الديار) من مدامـــيك متناوبة من الحجر البازلتي الأسود، والحجر الأبيض والأصفر الكلسيّ والوردي المزّاوي.. وفي حال عدم توفر هذه الألوان، كانوا يعمدون إلى طلاء تلـــك الجـــدران بمـــلاط من الكلس المطفي (لبن الكلس) والجصّ، وقشر القنّب المفـــروم (الكتكـــت)، ونســـبة قلـــيلة من القصْرمِلّ. ومن ثم صبغها بالأصباغ المرغوبة، وهذا ما يعرف باسم الكلسة العربيةَ.

وفـــي الحـــالات العاديـــة، غالباً ما تكون هذه الكلسة على جدران الطابق العلـــوي مـــن الفناء، كما قد تغطّي جدران الغرف، في المساحات التي لم تكن تغلّفها الحلقة الخشبيّة.

وهـــم يعمدون إلى تزيين المساحات الجدارية الكبرى، والأقواس التي فوق الأبـــواب وفـــوق الـــنوافذ، وبواطن أقواس الأواوين والأروقة بزخارف كانت واســـعة الانتشار في القصور والدور الدمشقية المترفة في القرن الثامن عشر. وهو ما يعرف بالتكفيت على الحجر. أو التنزيل.

ويعـــتمد هـــذا الضرب من الزخرفة، على حفر المواضيع الحجريّة المراد زخرفتها (تنزيلها) ومن ثمّ ملؤها بملاط ملوّن وفقاً لتلك الزخارف. ويغلب على

المواضيع المنفذة الأشكال والخطوط الهندسية، الدائرية، والمستقيمة، والمنحنية والمتعرّجة، والمتقطّعة، بأشكال النجوم والعروق النباتية والأزاهير المتناسقة.

فقد حفلت الأقواس التي فوق الأبواب والنوافذ (الشبابيك) المطلّة على الفناء (أرض الديار) والأقواس التي على مداخل الأروقة والأواوين، حفلت بوحدات زخرفية تأخذ بالألباب بطابعها الجمالي المترف، الفائق الإبداع والدقّة.. ومن هذا الوحدات الزخرفية ما يأخذ أشكال الزنابق والورد، والأشكال الهندسية التي تنحو منحى (الأرابسك) العربي، الذي تغطي زخارفه كامل الوحدة الزخرفية، دون أي فراغ، ودون المساس بالموضوع الأساسي.. فقد أتت الأشكال الهندسية متماثلة متناظرة ومتساوية ومترابطة، ومتداخلة بخطوط مستقيمة ومنحنية ومتشابكة في انسجام لا يصدّق، حتى لكأن المتأمّل يكاد يتيه في تتبع تفاصيل الوحدة الزخرفية. ويشعر وكأنه يسبح في ذلك التكوين اللا منتهي، كصوفيّ يشطح في ملكوت الله جل وعلا...

وقد يعمدون إلى تزيين الأقسام العليا من الجدران بمحاذاة السقوف، بإفريز زخرفي يغلب عليه الخيط العربي والأشكال الهندسية الرباعيّة والمثلثة، والزنابق.. محاكاة للإفريز الذي وضعه المهندس المعماري سنان باشا كبير المهندسين العثمانيين، للتكية السليمانية التي بناها بدمشق سنة (1754م) وإزاء هذا كله، يجدر بنا القول: إنّ هذه الأعمال الجمالية المبدعة التي قام بها إنساننا العربي في دور وقصور دمشق.. دليل على الأصالة المتجذّرة في بلادنا، ودليل على المران والمراس والمهارة التي تميّز بها هذا الإنسان، وهي سمة فريدة تميّزت بها دمشق في تزيين دورها وقصورها.

***

متحف التقاليد الشعبية السورية:

وبعد: هذا قصر أسعد باشا العظم، آية فن العمارة السورية بدمشق، في القرن الثامن عشر، وانطلاقاً من النهج الذي سلكه المؤرخون في أيامنا، القائم على الاهتمام بالشعب وحياته اليومية، وبكل ماهو أصيل فيه، ويتكرر في حياته، ويصبح صفة ملازمة له، وخاصة من خواصية، يُعرف بها في فترة زمنية، أو عصر من العصور.. في هذا السياق، أنشيء هذا المتحف، ليكون صورة صادقة لحياة شعبنا في سورية، الآهلة بالتجارب التي توارثتها الأجيال عبر التاريخ، وكشاهد لحب الإنسان للوطن والحياة.. تحول القصر إلى متحف

للتقاليد الشعبية السورية.

كان هذا القصر حتى أواخر العقد الثاني من القرن العشرين مسكناً لبعض آل العظـم، وكـان البناء في حالة يُرثى لها من الإهمال، حتى أن التداعي أخذ يمتدّ إلى بعض أركانه..

استملاك القصر:

فعمـدت سـلطات الاحـتلال آنذاك إلى استملاك قسم من القصر، جعلته مركـزاً لدراسـة الفـنون، وبعد ترميمه تحول هذا القسم إلى معهد للدراسات الشرقية، وفي عام 1953م جرى استملاك كامل القصر، وقامت المديرية العامة للآثـار والمـتاحف، بترميم لكامل القصر، وبخاصّة ما تهدم منه خلال أحداث الـثورة السـورية الكـبرى عام 1925م، حتى إذا كان يوم (13 أيلول 1954) افتـتح المتحف، بعد أن جرى جمع واقتناء محتوياته من مختلف أنحاء سورية.. وأُعـدت لهـا مجسمات وتماثيل للعرض المناسب. وكان للأستاذ شفيق الإمام محـافظ المـتحف آنـذاك الدور الفاعل.. وقد تجلّت براعة الأستاذ الإمام في الاختيار والانتقاء والعرض، بشكل لا يمسّ جماليّة البناء، وقيمته كآبدة تاريخية متمـيّزة.. وقد وصل عدد المقتنيات في ذلك الحين إلا ما يزيد عن عشرة آلاف من القطع والنفائس النادرة.. فضلاً عن الأزياء والمطرّزات البديعة.. بالإضافة إلى ما قدمه المواطنون من مقتنيات على سبيل الإهداء، إيماناً منهم بارتباط هذا المتحف مع ذكرياتهم، ومأثوراتهم.. فالتوثيق ذاكرة المجتمع..

إقبال منقطع النظير:

ومـا إن باشر المتحف استقبال روّاده، حتى لاقى إقبالاً منقطع النظير، من المواطنيـن والأشـقاء العـرب.. ومن السيّاح الأجانب، حتى بلغ عدد الزوّار اليومي في ذلك الحين، إلى ما يزيد عن أربعة آلاف زائر، فكان بذلك من أكبر المراكز السياحية ارتياداً في المشرق العربي.

ويمكن أن نعزو ذلك إلى أسباب، لعل من أهمها:

1 ـ أهمـية مديـنة دمشـق كأقدم مدن العالم المسكونة. وقد انعكس ذلك على مـتحف التقاليد الشعبية كمركز سياحي في مدينة كدمشق. سيّما وأنّه لم يبق من قصور حكام دمشق، عبر تاريخها الطويل غير هذا القصر...

2 ــ اعتبار القصر أنموذج للعمارة العربية الإسلامية، بالمشرق العربي، خلال القرن الثامن عشر.

3 ــ موقع القصر في مركز تجاري في قلب المدينة، جعل المتحف بمنزلة استراحة لروّاده.

4 ــ فضلاً عن هذا فإن روّاد المتحف من المواطنين والأشقاء العرب، يرون في معروضاته، ما يشدّهم إليه، لارتباط المعروضات والمقتنيات. بالحياة المعاشة عند السلف، وبخاصّة ما يرتبط منها بالعادات والتقاليد، والأزياء، والصناعات اليدوية التقليديّة.. لما في ذلك من قدرة على إثارة الذكريات والحنين إلى الماضي...

فالمتحف والحال هذه يشكل جسراً للتواصل بين السلف والخلف.

زيارة المتحف:

إذا سنحت لك الفرصة، وقمت بزيارة لمتحف التقاليد الشعبية، في قصر العظم بدمشق، فإنّك ستجد نفسك بين أناس وفدوا من أصقاع شتّى من المعمورة.. جمعهم الشوق للوقوف بإجلال، أمام ما قدمت الأيدي الوفيّة من عطاءات تحمل اسم سورية في المعارض والأسواق العالمية.. ستجد نفسك أمام صناعة الزجاج اليدوية التقليدية (النفخ)، وصناعة الأكمار وأطباق القش والبروكار والأغباني.. وأمام خراطة الخشب.. بل ومع نماذج من المفروشات الخشبيّة من صناديق وكراسي، وقنصليات، وبيرو... وكراسي الولادة (الداية)، والقباقيب الشبراويّة والعرايسيّة، المحفورة أو المطعّمة والمنزّلة، بالصدف والعاج والقصدير.. وفي ركن آخر من المتحف، ستجد جناحاً للصناعة المعدنية، وبخاصة صواني (صدور) النحاس المحفورة والمنزّلة (المكفّتة) بالذهب والفضة.. وجناحاً لنفائس لا حصر لها من المنسوجات النسائيّة، والرجّالية، لعدد من المناطق السورية، من الصاية إلى الدامسكو والبروكار والديما والألاجة والشال والشملة والأكمار..

وهكذا فإنك ستجد نفسك منساقاً للانتقال من مشهد إلى مشهد، ومن ركن إلى ركن من المتحف حتى لكأنّك تطوف بأرجاء سورية.. فتارة تكون في غرفة مفروشة على الطراز العربي، المكوّن من دكّة خشبيّة تحيط بالجدران وفوقها طراريح (حُشيات) صوفية أو قطنيّة مجلّلة بنسيج الدامسكو الدمشقي، وقد نسّق في كتبياتها مجموعة من القماقم والنراجيل والأباريق وزهريات

الكريســـتال والأوبالين المزيّن بالمينا المموّه بالذهب، وقد تدلت من السقف ثريّا من النحاس المخرّم المنزّل بالفضّة.

وتــارة تكــون فـــي غــرفة (قاعـــة) لمشهد يمثّل حياة النساء اليومية في ســـمرهنّ.. في هذه القاعة سيدة جالسة أمام منقل (موقد) نحاسي به دلّة (ركوة) القهـــوة، وهي تحتسي قهوتها، وترقب سيدتان تلعبان البرجيس.. وقاعة أخرى للمفروشـــات الخشـــبيّة، بها طقم مصنوع من خشب الجوز المحفور والمنزّل، بـــالعظم والعاج، وبالقاعة قنصلّية تعود لمطلع القرن العشرين، وفيها أيضاً طقم من المقاعد. كان للملك فيصل الأول بعد تتويجه ملكاً على سورية سنة (1918 م) وكلا الطقمين من صنع المعلم عبده النحات.

ولمـــا كان للحج الشامي إلى بيت الله الحرام، أهمية كبرى في حياة دمشق، فقـــد خصصت قاعة لمحمل الحج الشامي، والسنجق على جمل، وأمامهما أمير الحـــج الشـــامي، وفـــي الكتبيّات نماذج من الهدايا التي كان يأتي بها الحاج من الديـــار المقدســـة. مـــن طاسات مكّاوية، وقماقم ماء الزهر، وطاسات الرعبة، والمسابح ومطرات ماء زمزم..

وثمـــة قاعـــة أخـــرى لمقهى شعبيّ، به مسرح لخيال الظل (الكركوزاتي) وراء خيمـــته، والحكواتي على منصّته، والتخت الموسيقي أمام خيمة كراكوز، وفـــي جانـــب مـــن القاعة، مشهد لصندوق الدنيا (عجايبك عجايب) وشخصان يلعبان لعبة المنقلة بالحصى.

ولـــم يغـــب عن بال القائمين على هذا المتحف تخصيص قاعة لنماذج من الســـلاح في سورية، وبعضها يعود للقرون الوسطى، وبعضها الآخر من القرن الثامـــن عشـــر، ومن ذلك الغدارات والطبنجات، التي تقدح بحجر الصوان، أو الكبســـولة، وهـــي مكفّـــتة بالذهـــب، فضلاً عن نماذج، من الدروع، والخوَذْ، والدبّوس، والطبر، والرماح والسيوف الدمشقية المكفّتة أيضاً بخيوط من الذهب.

ولعلّ أمتع المشاهد التي يشاهدها الزائر في هذا المتحف، ويحرص الزوّار علـــى مشـــاهدته، وبخاصّـــة النســـاء منهم: مشهد جلوة العروس، وإلى جانبها صديقاتها وأمامها الماشطة، تعزف لها على العود، وأمامها صندوق (الماكياج) الزينة المعروفة بعلبة مكيّ.. التي لولاها لكانت الحال (حال العروس بلا زينة) بتبكّي.. وكذلك صندوق المصاغ المسمّى بـــ(الشكمجيّة).

ومـــن هذه المشاهد، قاعة الباشا مع وكيله، الذي يصور لنا البون الشاسع بين حياة الباشاوات الحافلة بالترف والبطر، بالقياس لحياة العامّة.

وهـــناك مشـــهد لأسرة من ريف حوران بالأزياء الشعبيّة، ومثلها لمضافة جبل العرب، ولمضافة البادية، في خيمة بدوية.

ونظراً للدور الذي يمثّله هذا المتحف في ذكريات الناس، ولحرص السياح علـــى ارتياده، فإنه من الضرورة بمكان، أن يصار إلى دراسة جدّية لجدوى ما يقدمه لزوّاره.. ليكون مواكباً لأمثاله من متاحف العالم، بجعل نماذج الشخوص فيه من الشمع، أو أن ينشأ متحف للشمع رديف لمتحف التقاليد الشعبية السورية.

■■

الفصل الحادي عشر
الدور الدمشقية

فـــي أحياء دمشق القديمة، القيمرية (الهند الصغرى)، والشاغور الجواني، والقنوات (حي الوردات)، وحيّ سوق ساروجة (استانبول الصغرى)، ثروة من الـــدور الدمشـــقية مخبوءة في خفايا الحارات والأزقّة، لا يكاد يعرفها إلاّ النزر اليسير من الدمشقيين.. وبعض الدارسين المهتمين الأجانب..

يعـــود معظـــم هـــذه الدور إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر.. وكان يسكنها أسر ميسورة الحال، يوم كانت الأسرة أشبه بالقبيلة تضمّ الجدود والآباء والأحفـــاد.. يأكلون من طبخة واحدة، ويعيشون عيشة المحبة والإلفة والإيثار.. السعد فيها دار، والهناء والنعيم المقيم شعار.

المشهد العام للدار الدمشقية:

إذا تجـــول المرء في أحياء دمشق القديمة، يلفت نظره ظاهرة تعانق دور دمشـــق، وتراكـــبها وتداخلهـــا، في حارات ضيّقة، بجدران عالية لا تلفت نظر المـــرء إلـــى مـــا وراء تلـــك الجدران.. إلاّ من بعض النوافذ العالية المسيّجة بأخصـــاص (شبك) خشبية تسمح برؤية من بالباب، دون أن تسمح للمارّة رؤية مـــن وراء تلك الأخصاص، حتى لكأنّه يتمنّى لو يتغلغل عبر الجدران الصمّاء، ليـــتأكد أنّ ذلـــك المظهـــر الخارجي، يخبئ وراءه ما يأخذ بالألباب، ويخطف الأبصـــار، مـــن مـــاء وظـــلّ ظليل، وورد وأزاهير، وفلّ وريحان وياسمين.. وأفانيـــن، تجعل المرء يتساءل أهو في حلم، أم زاغت الأبصار.. لما حوت تلك الـــدور، مـــن زخارف مطليّة بالذهب، ونقوش وزخارف على جدران الباحات، وحلقـــات خشبيّة مزركشة بالدهان العجمي، تغلّف جدران غرف القاعات على تعـــدد طـــرزها.. وبحرات وفساقي موزّعة هنا وهناك.. أما الأسطح فلا تكاد

تكشـــف أفانين تلك الدور، لأنّها تحوّلت إلى تعاريش غطّيت بالنباتات الخضراء المتشابكة.. والأشجار اليانعة الثمار..

نماذج من هذه الدور:

ومســـاحة الدار غالباً ما تكون كبيرة، وقد نجد فيها باحات واسعة تتراوح بيـــن: (600 ــ 800م) ويشغل بعضاً منها مساحة تبلغ أحياناً (2000م^2)، كما أن بعضـــها يضمّ (30) غرفة، كدار، خالد العظم في حي سوق ساروجة، ودار عنـــبر فـــي حي القيمرية.. ونجد أغلب تلك الدور متوضّعاً في دمشق القديمة؛ بجـــوار الجامع الأموي، كدار سقا أميني، والهاشمي، والخطيب، ومنها ما كان بحـــيّ الشاغور الجواني، كدار: الصفدي والبيّلي، ودار فخري البارودي، بحيّ القـــنوات. وتعـــدّ دار سعيد باشا القوتلي، بالكلاسة، شمالي ضريح صلاح الدين الأيوبـــيّ، مـــن أجمل هذه الدور وأوسعها، فهي على مساحة نحو (2000م2). وتضـــم عـــدداً مـــن الغرف والمخادع والقاعات بالبراني والجواني، فضلاً عن الحمام والاصطبل..

وإذا كـــان نمـــط هـــذه الدور إسلامياً، فإنّها في واقع الأمر متأثرة بأنماط العمارة العثمانية مع بعض الملامح الفارسية والأوروبية، وبخاصّة الإيطالية.

ويمكـــن القـــول إن الســـمّة المميّزة لهذه الدور، هي تشابه مخطط بنائها، وتماثل نسيجها المعماري، وإن تباينت المساحة التي تشغلها هذه الدور، ذلك أن الداخل إلى الدار الدمشقية لابد أن يلحظ الأقسام التالية:

أقسام الدار الدمشقية:

1 ــ الباب البسيط (المدخل).

2 ــ الدهليز.

3 ــ الفناء (أرض الديار).

4 ــ الليوان (الإيوان).

5 ــ القاعات الصيفية.

6 ــ القاعات الشتوية.

وفـــي جمـــيع الأحوال لابُدّ من القول: إنّ كلّ من هذه الدور، به جناح براني للـــرجال، يقوم مقام (السلاملك) في القصور، وجناح آخر للأسرة يُعرف بالجواني،

في مقابل (الحرملك) في القصور، وقد يكون لكل من الجناحين مدخل خاص.

المدخل:

فـــالمدخل (الـــبَاب) بسيط لا يلفت النظر، باستثناء دور المترفين، حيث أن أبوابها تنمّ عن رفاه أهل الدار وترفهم بما يتضمّن الباب من زخرف أو تدكيك، وما يتوّج قوس الباب، من قفل غني بالزخرف أيضاً..

الدهليز:

أمـــا الدهلـــيز فطويل وضيّق مع بعض التعرّج، لحجب أنظار المارة عن داخـــل الـــدار، ولا نرى في سقف أو جدران الدهليز، ما يلفت النظر من فنون البـــناء أو التزييـــن، لأن وظيفة الدهليز، هي بالأصل التمهيد للدخول إلى باحة الدار.

أرض الديار:

وهـــذه الـــباحة تـــنفرج أمام المرء على مساحة واسعة، لمنظر بهيّ يضمّ أغراس الشمشير، والورد والياسمين والفلّ، وأشجار النارنج والكباد والليمون، وعـــرائش العنب، فضلاً عن نوافير المياه التي تتشامخ منها المياه، لتتقصّف في بحرة رخامية بيضاء أو مزيّة.

لذلك تُعدّ أرض الديار في الدار الدمشقية، ركن أساسيّ في حياة أهل الدار، فهـــي جنّـــتهم، ومتـــنزّههم وملاذهم.. وعلى ذلك فهي موضع عنايتهم، ومبلغ تعهدهـــم بالتنظيف والسقاية والغراس.. وفي الطرف الجنوبي من أرض الديار، ينفتح الليوان بارتفاع ثمانية أمتار تقريباً.

الإيوان:

ويـــتألف الليوان (الإيوان) بشكل عام من عتبة بمستوى أرض الدّيار، ومن صـــدر يُرقى إليه بدرجة أو درجتين، وفي الجدار الجنوبي من الإيوان محراب إلـــى يمينه، فجوة يوضع فيها نسخة من القرآن الكريم، وإلى يساره فجوة مماثلة لقنديل أو كاز للإنارة.

ولهـــذا الإيـــوان، دور في حياة الأسرة، فهو ملتقى أهل الدار وضيوفهم، وبخاصـــة فـــي فصل الصيف، وقد يستخدم للنوم في ليالي الصيف القائظة فهم

يتقّون فيه أشعة الشمس، ويتلقون النسيم الشمالي المنعش..

وقد نجد في دور المترفين، إيواناً آخر في الجهة الشمالية لأرض الديار، للإفادة من شمس الشتاء الجنوبية، أو قد يكون في مكان هذا الإيوان (الشمالي) رواق كما هي في دار عنبر بالقيمرية ودار سعيد باشا القوتلي بالكلاسة، فضلاً عن دار سقا أميني.. حيث تبدو في ذلك الرواق أناقة الأعمدة وروعة الصنعة.ويرتكز سقف الإيوان من الناحية المطلّة على الباحة، على قوس عال متقاطع، أو على شكل نعل فرس، وهو من الحجر النحيت المزخرف، بما يتلاءم مع زخرفة جدران أرض الديار.

أما سقف الإيوان، فيرتكز على عُمد موزعة بانتظام، وقد تكون تلك العُمد مغلّفة بطوان من قماش الخام، المبطّن بطبقة من الغراء البلدي والنشاء، وفوقها طبقة من الكلسة العربيّة، التي تُعدُّ من لبن الكلس وقشر القنّب المفروم مع نسبة من (القصرملّ) رماد وقود الحمامات كما أشرنا.

يرسم في وسط ذلك الطوان مجموعة زخرفيّة من الأزاهير والورد، يحيط بها، على مقربة من الجدران، إطار من الخيط العربي مرسوم بالدهان، وفي زوايا الطوان عروق نباتيّة تربط بين أضلاع ذلك الخيط. وقد يكون السقف مغلّفاً بغلاف خشبي من الطَّبُقْ، يحيط به إطار بأفاريز تنتهي بزوايا خشبيّة، والسقف في هذه الحال يكون مدهوناً بزخارف نباتية بديعة على شكل سجّادة من الدهان العجميّ.

بلاط أرض الديار:

أرض الديار، مفروشة (مبلّطة) بدروب من الحجر الأسود البازلتي المتناوب مع الحجر المزّي الوردي. وقد نجد في البيوت المترفة، الرخام يغطي كامل أرض الباحة مع أميال من الحجر الأسود، كما في دار البيّلي بالشاغور الجواني.. أما حول البحرة الكبرى، في أرض الديار، فالأرض مفروشة بتشكيلات من الرخام الملوّن (المشقّف) البديع التكوين، حتى لكأنّه يحاكي الموزاييك الخشبي، وقد يكون ذلك الرخام على شكل تشكيلات هندسية بأسلوب الخيط العربي. وفي الدور المتوسطة الغنى يكون بلاط أرض الديار فيها بالحجر الأسود البازلتي المتداخل مع الحجر المزّي الوردي.

الجدران:

أمـــا الجدران المطلّة على أرض الديار، فقد أمعنت الأيدي الفنيّة الممارسة بهـــا تزويقاً وتزييناً بالزخارف الهندسية، وبخاصّة فوق النوافذ والأبواب المطلّة علـــى أرض الديـــار، التي ظلّلت بأقواس مقرنصة. أو بتزيينات نباتيّة، أو على شـــكل تيجان يحيط بها خيط مضفور من الزخارف ويلاحظ التناظر في توزيع الأبـــواب والـــنوافذ المطلّة على أرض الديار حتى لكأن تلك الجدران مخصصة لتلك الأبواب والنوافذ.

الغرف والقاعات:

الغـــرف والقاعـــات في البيت الدمشقي، صيفية وشتويّة، فالقاعات الشتوية تطـــلّ على جهة الجنوب، المعرّضة لأشعة الشمس، أما القاعات الصيفيّة فإنها موجهّـــة علـــى جهة الشمال من أرض الديار، ومنها قاعتان، واحدة عن يمين الإيوان، وواحدة عن يسار هذا الإيوان. ويُدخل إليهما من عتبة الإيوان.. فضلاً عـــن هـــذا لا بُدّ من وجود قاعة كبرى ينفتح مدخلها على أرض الديار، وهي بمنزلة قاعة الشرف للأسرة.. فهم يستقبلون في هذه القاعة الضيوف المميزين، وفـــيها يحيون مناسبات الأسرة. وبخاصّة ليالي الأفراح والاستقبالات النسائية.. وجميع قاعات وغرف الدار الدمشقية، الصيفية منها والشتوية، مزخرفة السقف والجـــدران، ويكون ذلك بحسب أهميّة القاعة وسعتها، لكن العناية تكون أكبر، بالقاعتيـــن اللتين على يمين ويسار الإيوان، وبالقاعة الكبرى المطلّة على أرض الديار. أما بقيّة القاعات، فإنها لا تخلو من مسحة من الزخرفة.

ويكون سقف القاعة الكبرى إما بطزر واحد أو بطزرين أو ثلاثة طزرات ولا بُـــدَّ من الإشارة، إلى أن كون القاعة بطزر أو أكثر، لا يميّزها عن غيرها مـــن القاعات، والقاعة ذات الطزر الواحد ليست أقلّ شأناً من ذات الطزرين أو الـــثلاثة.. ذلـــك أنّ كون القاعة على أحد هذه الأنماط، يحكمه مخطط البناء لا أكثر..

طزرات الغرف والقاعات:

وفي جميع الأحوال يمكن القول أنّ القاعة ذات الباب الجانبي، كالتي على أحـــد طرفـــي الإيوان، تكون بطزر واحد، أمّا القاعة الكبرى، كالتي تنفتح على أرض الديـــار، فإنهـــا تكون بطزرين أو ثلاثة. ونجد أن القاعة ذات الطزرات

الـثلاثة، قـد يُتخذ الطزر الصدراني منها، كجناح خاص لاستراحة واستجمام ضـيف عزيز على الأسرة، وذلك بأن تُفصل مساحة ذلك الطزر، بما يشبه باب على شكل كتبيّة، أو نحو ذلك، بحيث لا يؤثر على جمالية القاعة، أو يكون ذلك علـى شكل باب سرّي يشبه باب الخزن التي بالقاعة.. وبالطبع فإن العناية بهذا الجـناح من القاعة، لا يقلّ عن العناية بباقي القاعة. كما أن جدران هذا الجناح مغلّفة بحلقة خشبيّة على غرار القاعة الأم أيضاً..

وبالتالي فإن تلك الحلقة، تغلّف القاعات الأخرى، إلى علو يقارب منتصف الجـدران، وتتشـكل تلـك الحلقة، من أطناف مقرنصة بالأعلى، وهي تمسك بإطـارات، الأبـواب والكتابي (المكتبات)، بلّ والنوافذ، المطلّة على الباحة.. وجمـيع هـذه الأطـناف، والإطارات الخشبية، والأبواب مزخرف بما يناسب زخـارف السقف العجميّة النافرة. التي تعتمد على الحفر والتلوين، بألوان هادئة وزاهـية مذهبة. فضلاً عن هذا، فإن من الممكن، أن يكون للقاعة الكبرى، باب سـرّي آخـر لا يمكـن تمييزه.. ويوصل هذا الباب إلى درج يؤدّي إلى غرفة صـغيرة علوية، تصلح لأن تكون لمنامة رب الأسرة. وقد تخصّص هذه الغرفة للضيفان، حيث أنها في معزل تام عن باقي أقسام الدار..

كما قد يكون بهذه القاعة الكبرى باب للخدمة.. وعلى هذا النحو، قد يوجد باب آخر (مخرج) يوصل للإصطبل.

السقوف:

والسـقف، في قاعات وغرف الدور الدمشقية، التي نحن بصددها، لا يقلّ عـن مـا ذكـرناه في سقف الإيوان من ناحية دقّة الصنعة، وتناغمها وتوازن الواحدات الزخرفية وتلاحمها... وبالتالي، فإن ذلك لا يخرج عن ما وجدناه في تزييـن جـدران وسقوف قاعات وغرف وإيوان قصر العظم.. إذا أخذنا بعين الاعتـبار الإمكانـات المادية والمعنوية بين الباشا والوالي، ومن نهج نهجه في بـناء داره مـن الموسرين بدمشق. فقد انصبّ التزيين في دور دمشق المترفة علـى فناء الدار (أرض الديار) والليوان (الإيوان) وقاعات الاستقبال.. وماكان منها على جانبي الإيوان.. فضلاً عن القاعة الكبرى التي تتصدر أرض الديار.

ويلاحـظ ارتفاع سقوف تلك الغرف، إلى نحو سبعة أمتار، وهذه السقوف مزخرفة بأسلوب الدهان العجمي النافر، أو بأسلوب الدهان الحريري... فعندما يكـون السـقف مرتكزاً على عُمُد ظاهرة، فإن الزخرفة تكون بأسلوب الدهان

الحريـــري.. أمـــا عـــندما تكون عمد السقف مغلّفة بالدفّ، فإن الزخرفة تكون بأســـلوب الدّهـــان العجمـــي النافر، وتكون زخرفة كل طزر على شكل سجادة عجمـــية، وهـــذه الزخارف تكون على شكل وحدة (دوحة) مركزية تتدلى منها مقرنصـــات خشـــبيّة جمـــيلة، تنتهـــي بمـــا يشبه فانوس من الخشب المحفور، والمدهون على نحو يتّسق، ويتناغم مع زخارف السقف.

ويحيط بكل طزر أفاريز متتابعة ترتبط مع زوايا قرن الطزرات مما يشكل حلقة انتقال من السقف إلى الجدران.

وإزاء هـــذه السمفونيّة من الألوان، والمتاهة من الأفانين التي تأخذ بمجامع الإحساس والإيقاع، فإن المرء لا يكاد ينفلت من استغراقه الصوفيّ بتلك الأفانين ويســـرح نظره بتلك المساحة البيضاء التي تفصل بين زخارف السقف بطزراته وأفاريزه ومقرنصاته. وبين الحلقة الخشبية بأبوابها وأطرها وكتابيها وأطنافها.. إلاّ ويجد نفسه مأخوذاً إلى المصبّ الرخامي بعتبة القاعة.. ولا يلبث أن تأخذ به الحيرة ويسائل نفسه:

هـــل العتـــبة بمصـــبّها الرخامي، وما يشيع ماؤه من رخاء وبرودة.. وما يـــتجاوب فـــي ســـمعه مـــن خرير ماء ذلك المصبّ أمتع.. أم الحلقة الخشبيّة وتزّيينات السقف أكمل وأفخم!!..

برانيّ وجوانيّ بالدار الدمشقية:

وإذا تأثـــرت القصـــور الدمشـــقية، في مخططها العام بحاجات صاحبها، وبالغرض الذي أنشئت من أجله.. فإن هذا الوضع ينسحب على الدور الدمشقية أيضـــاً. وقياساً على ذلك، أمكن التمييز بين قسمين رئيسيين في الدار الدمشقية. قســـم أطلق عليه اسم: البرّانيّ، وهو بمنزلة (السلاملك) في القصور. الدمشقية، وقســـم آخر أ طلق عليه اسم الجوّاني، ووظيفته كوظيفة (الحرملك) في القصور الدمشقية.

البرّاني:

فـــي ذلـــك البرّانـــي يســـتقبل عمـــيد الأسرة، ضيوفه من رجالات الحي والصـــحب، والمعـــارف والجوار والأهل للتداول في أمورهم، ومعالجة ما قد يطرأ من إشكالات تواجههم.. وللسمر أحياناً.. وتزجية الوقت أحياناً أخرى..

ونظراً للدور الذي أُنيط بهذا الجناح، فلا بُدّ وأن يكون على درجة تتناسب ومقـام عمـيد الأسـرة من الفخامة والعناية والترتيب.. وهكذا فإن هذا البراني يـنفرد بفـناء (أرض ديـار) ململمـة أنيقة مفروشة بالرخام أو الحجر الأسود والـوردي، ويتوسـطه بحرة بيضوية أو مضلعة من الرخام أو الحجر المزّي الـوردي.. ولا يخلـو هـذا البرّاني من شجرة كبّاد أو نارنج وعريشة (دالية) وياسـمينة.. وبعـض أصص ورق الصالون والأرطاسيا وقد يضم هذا البرّاني إيوان على غرار ما نجده في الجواني (الحرملك).

أمـا قاعـة الاستقبال فتتميّز بالفخامة والأناقة والبساطة من نفس الوقت. ويُـرقى إلـى القاعة من العتبة بدرجة أو درجتين.. أما الأثاث فيتكوّن من عدد مـن الدواويـن (الطواطي) المحيطة بجدران القاعة، وهي مغطاة بحشيات من الصـوف أو القطن، مجللة بالدامسكو، فضلاً عن مساند محشوّة بالقطن ومنجّدة بالدامسكو.. ولا تخلو الجدران من كتبيّات للتحف والصمديات.

الجواني:

أمـا الجوانـي، فيضـم أهم أقسام الدار الدمشقية وأوسعها، وأكثرها ترفاً، وبخاصّـة القاعـة الرئيسة والإيوان والرواق.. وقد يكون لهذا الجواني مدخل منعزل عن مدخل الرجال بالبرّاني.. ويُعدّ هذا الجواني متنزّه النساء ومتنفسهنّ، بما يضمّ من غرف معرّضة لأشعة الشمس، وأخرى يجثم فيها الظلّ والطراوة، ولاسيّما في فصل الصيف.

وعـندما اعتاد الناس على بناء طابق علوي في الجهة الشمالية من أرض الديار، اتخذ هذا الطابق للنساء في فصل الشتاء، لتعرّض قاعاته لأشعّة الشمس، ولأن التـنقّل بيـن تلك الغرف والقاعات يكون عبر ممر (دهليز) مغطّى غير معرض للسعات برد الشتاء.

وبقي الطابق الأرضي بقاعاته وإيوانه ورواقه وفنائه (أرض الديار) لفصل الصـيف، ذلـك أن ارتفـاع سـقوف إيوان وغرف وقاعات الطابق الأرضي وتوضّـعها في جهة الجنوب.. وما تتلقاه من نسيم عليل شمالي، وما تبثه نوافير المـياه من طراوة وانتعاش.. كل ذلك يجعل هذا الطابق في فصل الصيف ملاذاً للنسوة وسلوة لهن تخفّف من الشعور بالأسر، بين جدران البيت بعيداً عن العالم الخارجي.

فناء البيت الدمشقي عن جيرار

إيوان البيت الدمشقي عن جيرار

قاعة بثلاث طزرات عن جيرار

الحلفة الخشبية بدار سعيد القرنلي

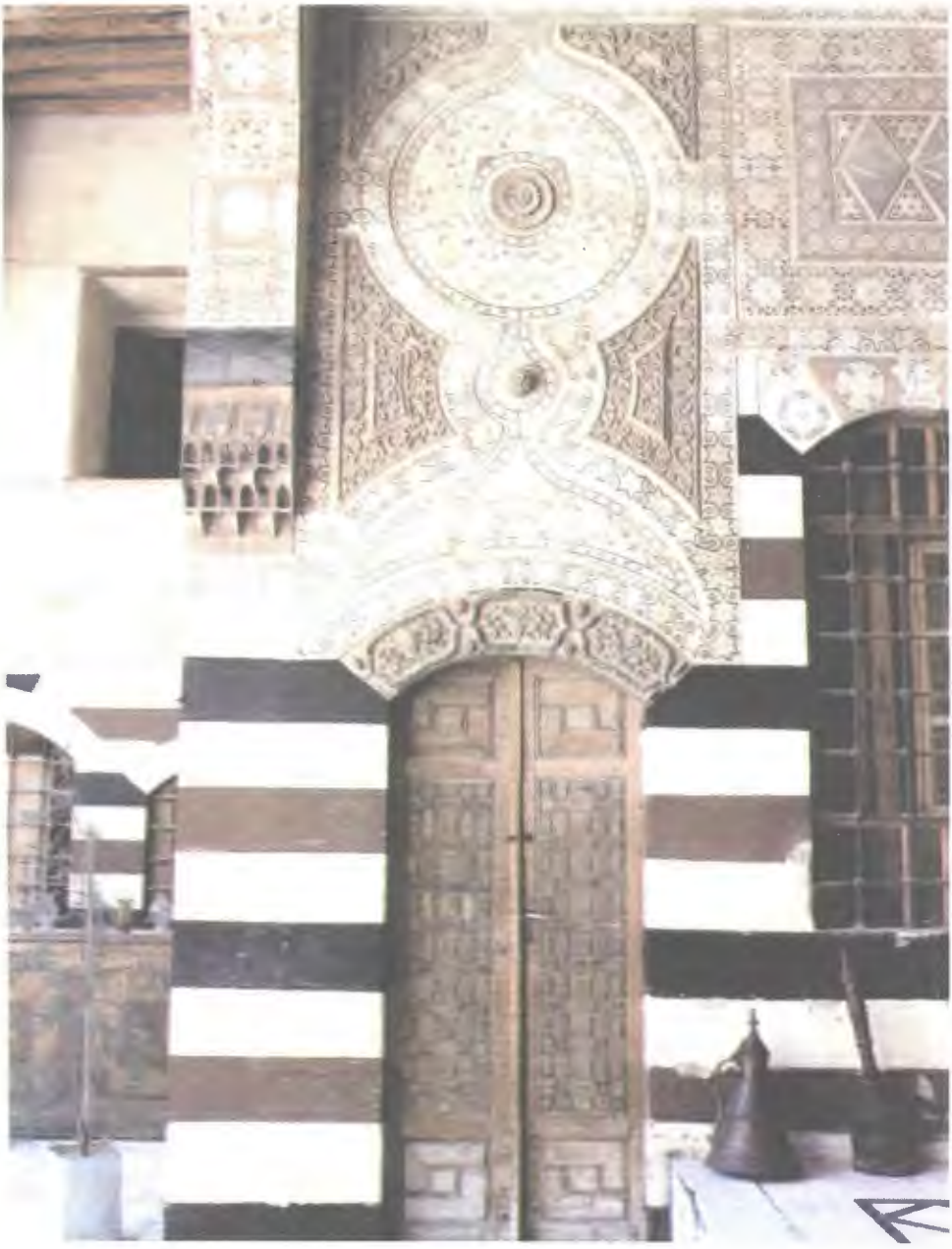

تيجان الأبواب في دار العظم

زخارف الجدران في دار عنبر

الرواق في دار عنبر

جناح البراني في الحمام الدمشقي

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران
IRNP

وبئر ماء أيضاً:

وإذا كانت دور دمشق تتمون في ذلك الحين، من مياه نهري بانياس وقنوات (المشتقّين من نهر بردى) ضمن نظام الطوالع التي أتينا على ذكره في بحثنا عن تموين دمشق بالمياه.. فإن حصة الدار قد لا تكفي من عدان توزيع المياه عبر الطالع لتلك الدار.. وقد حلّت هذه المشكلة بحفر بئر أو أكثر في كل من دور دمشق.. وكانوا يستجرّون المياه من البئر بواسطة دلو يربط بحبل يُلَفُّ على دولاب يدويّ كلما أرادوا سحب دلو من الماء.. وقد يجمعون تلك المياه في (مصنع) حاووظ صغير لاستعمالها عند الحاجة إليها. ثم استعاضوا عن ذلك الدولاب بكبّاس (طرمّبة) يدوية لاستخراج المياه من البئر.

مستقبل الدور الدمشقية:

لعل من المحزن أن يكون مآل هذه الدور في أيامنا إلى الزوال، فقد اقتضت سنّة الحياة إلى تخلّي هذه الدور عن وظيفتها، بعد أن هجرها قاطنوها.. وأصبح غالبها آيل إلى التداعي والاندثار.

فقد تزايد عدد سكان دمشق، وامتدّ عمرانها أفقياً وشاقولياً. وأصبح سكان تلك الدور، يجدون صعوبة في الوصول إلى مراكز عملهم، وبالتالي فإن انفراط عقد الأسرة التقليدية الدمشقية، وجنوح الأبناء إلى الاستقلالية في حياتهم.. بأن يكون للواحد منهم مسكناً خاصاً به. وبزوجه وأولاده.. جعل خدمة الدار الدمشقية عبئاً كبيراً على من بقي من السكان، وبالتالي صعوبة الحفاظ على رونق وبهاء تلك الدور، كما أن تكاثر الورثة جعل من الصعوبة بمكان تعايشهم في الدار الواحدة، فعمد الميسور منهم إلى السكنى في الدور الحديثة، ولجأ من بقي منهم إلى ركن سليم من الدار يقطنه، ويتحاشى الأمكنة الآيلة للسقوط.. وقد امتدت يد كثير منهم إلى الدعامات والنفائس الخشبية، فيحرقونها لدرء برد الشتاء عنهم. وإذا اقتضت الضرورة إلى القيام بالترميم، فإن القاطنين يمتنعون على الأغلب عن الانفاق لهذا الغرض.. وإذا حدث ذلك الترميم فإن ذلك يكون على حساب القيمة الأثرية للدار ونسيجها العمراني. وفي جميع الأحوال تكون النتيجة مخزية.

ولعل من المفيد أن يلحظ المسؤولون في أمانة العاصمة بمحافظة مدينة دمشق، الاهتمام بموضوع ما بقي من دور دمشق، وتوظيف أفضلها حالاً، في مجالات يفيد منها المجتمع، كنواد ومكتبات، ومراكز ثقافية، ومقارّ لاتحاد

الكـتاب العرب والمنظمات الشعبية والنقابات المهنية، أو مستوصفات، على أن لا يمـسّ ذلـك ولا يؤثـر، علـى نسيج الدار العمراني أو مخطّطها، ونفائسها الزخرفية والجمالية، ولنا في ذلك من دار عنبر بحيّ القيمرية مثال يحتذى..

❐

المصادر والأبحاث:

1 ــ أبـو الفرج العش: الدور الدمشقية الخاصة بدمشق، مجلّة الحوليات الأثرية المجلد /3/ لسنة 1953.

2 ــ أحمـد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية، مخطوط بالمكتبة الظاهرية، نقّحه الشيخ محمد سعيد القاسمي.

3 ــ أحمد محروقه: أسعد باشا العظم، حياته وعصره، رسالة جامعية لنيل درجة الإجازة في التاريخ من الجامعة السورية سنة 1955م.

4 ــ جـون ويـتمر فري: مقال البيت الدمشقي في القرن السابع عشر والثامن عشر. مجلة العمران. ص(19 ــ 24).

5 ــ سـيده اسماعيل الكاشف: عبد الملك بن مروان. سلسلة أعلام العرب العدد (17) وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للكتاب (1962م).

6 ــ شفيق الإمام: دليل متحف التقاليد الشعبية والتقاليد اليدوية، قصر العظم ــ دمشق.

7 ــ صلاح الدين المنجد: وقف أسعد باشا العظم دمشق 1953م.

8 ــ صلاح الدين المنجد: ولاة دمشق في العصر العثماني دمشق 1947م.

9 ــ محمد سالم قدور: قصر العظم بدمشق، متحف التقاليد الشعبية، دمشق 1997م.

10 ــ محمد كرد علي: خطط الشام (ج: 1 ــ 2)، دمشق 1925م.

11 ــ منير كيال: فنون وصناعات دمشقية وزارة الثقافة 1958م.

12 ــ نعمان قساطلي: الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء. بيروت 1979م.

■■

الفصل الثاني عشر
حمامات دمشق
مأثرة حضارة وتراث

الحمامات عبر العصور:

اشتهرت سورية بحماماتها العامّة، التي تعود إلى مختلف العصور. وتدلّنا الأوابد من هذه الحمامات، على جمالها، وبراعة بنائها، في أقسامها وتوزيعها وجرّ المياه إليها.. وهي خير شاهد على أهميتها في الحياة الاجتماعية والصحيّة. والرياضية في تلك العصور.

لأن هذه الحمامات لم تكن للاغتسال فحسب، بل وأماكن نزهات ونواد رياضية وثقافية واجتماعات.. وفيها يتبادل المستحمّون مختلف الأحاديث، ويتناولون شتى المواضيع الحياتية والاجتماعية.

وإن التأمل في بقايا الأقنية المنتشرة في سورية، يدلّ على أهمية الخبرات التقنيّة، التي كان يتمتع بها أسلافنا الأوائل، ومدى اهتمامهم بإيصال المياه النظيفة إلى الحمامات العامة.

الحمامات الرومانية:

ففي العصر الروماني كثرت هذه الحمامات العامة، وتُعدُّ مبانيها من روائع فن العمارة.. ويُنسب فضل بناء بعضها، إلى الأباطرة، الذين أرادوا أن يعبّروا ببنائها عن مودتهم للمواطنين.

وهكذا شيدت حمامات إنطاكية في عهد "كاليغولا" (37-41م) و"هارديان" (117-138م) و"أنطونان" (138-161م). ويذكر دوني فضل يوليوس قيصر

(101- 44) ق.م وأمـــره ببناء حمام لسكان الاكروبول مزوّد بقناة كما أظهرت أعمال التنقيب الأثري في آفاميا على وجود حمامات تطلّ واجهاتها الشمالية على شارع المسرح. فضلاً عن هذا، فقد كانت تدمر تزهو بمباني حمامات، منها حمام ديوكليسيان (284-305)م كما كان في بصرى حمامان عامان ربما كان أحدهما للجند والآخر للسكان. وتُعدّ حمامات شهبا من أجمل الحمامات القديمة.

وكان الحمام في ذلك الحين يتألف من ثلاثة أقسام:

1-القسم البارد : Frigidarium.

2-القسم المعتدل الحرارة : Teidarium.

3-القسم الحار : Caldarium.

فضـــلاً عـــن غرف الملابس، والأجنحة المخصصة للرياضة والمطالعة. وتجدر الإشارة إلى قسم الموقد لتسخين المياه المعروف بالإقميم.

وقد تميّزت هذه الحمامات بفخامة مبانيها، التي تعكس ذوق العصر، وميل مجتمعه إلى الفخامة.. ويبدو ذلك في تزيين الجدران بلوحات الفسيفساء وكسوة الأرض بالرخام.. مع ملاحظة الحدائق التي كانت تحيط بمنى الحمام.

حمامات العصور الإسلامية:

وفـــي العهـــود الإســـلامية، ازداد الاهـــتمام بالنظافة والصحة والاغتسال والطهـــارة. واعتـــبرت النظافة من الإيمان. فكثُر بناء الحمامات في الحواضر الإســـلامية، وكان لكثير منها أوقاف تعيش عليها، على اعتبار أنها من المرافق ذات النفع العام.

ويذهـــب بعـــض المؤرخين إلى اعتبار حمام قصر الحير أقدم حمام ينسب إلى العهود العربية الإسلامية.

وتُعـــدُّ الحمامات التي تعود إلى العهود الأيوبيّة والمملوكية والعثمانية.من روائـــع فـــن العمـــارة العربـــية الإسلامية. التي شدّت أنظار الرحالة، وأثارت إعجـــابهم، واحتلّت مكاناً بارزاً من اهتماماتهم ودراساتهم وذكرياتهم وانطباعهم عن الشرق وسحره.

وكـــان موضـــوع آداب الحمـــام أثـــيراً عند كثير من الباحثين، فقد ذكر الكوكبانـــي في كتابه: حدائق النمّام في الكلام على ما يتعلق بالحمام. عدد ممّن ألف في هذا المجال:

ومن هؤلاء:

-أبا إسحق الحربي، المتوفّى سنة: (285هـ) في كتابه: الحمام وآدابه.

-عبد الكريم السمعاني، المتوفّى سنة: (562هـ) في كتابه: آداب دخول الحمام.

-محمد بن عبد الله الشبلي، المتوفّى سنة: (712هـ) في كتابه: آداب الحمام.

-محمد علي بن حمزة، المتوفّى سنة: (765هـ) في كتابه: الإلمام بآداب دخول الحمام.

حمامات دمشق:

ودمشق، وهي إحدى أمّهات الحواضر العربية، عُرفت واشتهرت بحماماتها العامة. وكان أهل دمشق يفاخرون بهذه الحمامات زمن الأمويين. وذكر أن الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك. لما بنى مسجد دمشق الكبير (الأموي) تحدث إلى أهل دمشق بقوله:

"تفخرون على الناس بأربع خصال، تفخرون، بمائكم وهوائكم وفآلهتكم وحماماتكم، فأحببت أن يكون مسجدكم هذا الخامسة".

وقد اشتهرت حمامات دمشق في الشرق كلّه، وإنّك لتجد منها، ما هو من روائع فن العمارة الإسلامي بطرزها وريازتها ونقوشها.. فقد تفنّن الدمشقيون بهذه الحمامات، حتى جعلوا منها آية فنيّة.. رصعوا جدرانها بالقاشاني، ورصفوا أرضها بالرخام الملون (المشقّف)، وعقدوا على أطراف قبابها، وقرن مقاصيرها عقود الجص النافرة، برسومها وتزييناتها. كما أقاموا في القسم البارد منها (البراني) البحرات التي تتشامخ منها نوافير المياه على أشكال بديعة.

وقد تحدث عن حمامات دمشق عدد غير قليل من المؤرخين والباحثين والدارسين من مختلف العصور:

كان أولهم ابن عساكر في تاريخه الكبير (ت: 571هـ) ثم ابن شداد (684هـ) في أعلاقه الخطيرة، ثم الأربلّي (726هـ) وكان عدد الحمامات بدمشق في أيامه مئة وسبعة وثلاثين حماماً، منها أربعة وسبعون داخل مدينة دمشق (ضمن السور)..

ومن المهتّمين بهذا الموضوع: ابن عبد الهادي (909هـ) في كتابه: آداب الحمام وأحكامه. وكتابه عدّة الملمات في تعداد الحمامات. ومنهم أيضاً النّعيمي الدمشقي (923هـ) في: الدارس من أخبار المدارس، وكذلك ابن طولون

الصالحي الدمشقي (953هـ) في: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية.. وبعد قرنيـــن من الزمان تعرّض ابن كنان في: المروج السندسية الفسيحة، للحمامات وعلّق على ما ذكره ابن طولون.

وفـــي أوائـــل العقد الخامس من القرن العشرين، أفرد المهندس الفرنسي: إيكوشار Ecuchard وزميله لوكور Le caeur، كتاباً بحمامات دمشق.. وبعد سنوات أصدر الدكتور صلاح الدين المنجد بحثاً عن هذه الحمامات. وكان كتابنا الحمامـــات الدمشـــقيّة الذي صدر عام 1986 بطبعته الثانية خاتمة المطاف بما كتب عن حمامات دمشق.

أقسام الحمام:

إن المرء إذ يسير في أزقّة أحياء دمشق القديمة وحاراتها، لا بدّ وأن يلفت انتـــباهه منشفة أو أكثر منشورة على حبل يعترض الزقاق، للدلالة على وجود حمـــام.. وفي جميع الأحوال تتماثل حمامات دمشق في مخططها العام، فالحمام الدمشـــقي، في جميع العهود، التي مرت عليه، لم يخرج عن كونه ثلاث أقسام، تـــتدرج فيها الحرارة من البراني إلى الوسطاني فالجواني، والمقاصير المتفرعة عن كل من الوسطاني والجواني.. وذلك فضلاً عن الإقميم مكان تسخين المياه.

1-البراني:

فالبرانـــي هـــو القســـم المخصص لاستقبال الزبُن، وبه يخلعون ويرتدون ملابسهم قبل وبعد الاستحمام، ويتناولون المرطبات، من قهوة وشاي وعصائر. كمـــا أنهـــم، وبخاصـــة النساء، يُحيين في هذا البراني بعض مناسباتهم المتعلّقة بتقاليد، حمام الخطبة والنفاس والغمرة.

وتخـــتلف بنية البراني المعمارية، وأسلوب بنائها عن باقي أجزاء الحمام، التي تتطلب الحفاظ على الحرارة وعدم تبديدها.

وفـــي جمـــيع الأحوال، يشكّل البراني باحة رباعية الشكل، غالباً ما يكون سقفها على شكل رقبة لقبّة، وتحيط بهذه الرقبة نوافذ، كل نافذة منها مقسّمة على شكل زخارف وتشكيلات هندسية بديعة،.. وفي كثير من الأحيان، يكون زجاج الـــنوافذ المذكـــورة بـــألوان زاهية، وفق شبكة هندسية من الخيط العربي منفذة بـــالجصّ أو الخشـــب المدكّك، تحكم تلك الزخارف والتشكيلات التي بكل نافذة، ممـــا يسمح بدخول أشعة الشمس إلى البراني بألوان ذلك الزجاج، بشكل جميل

أخّاذ، وهذا ما يعرف بالمعشّق.

وتلك الرقبة محمولة عن مثلثات كروية ناجمة من تلاقي الأقواس التي تتوضع بجهات البراني الأربع. وعلى تلك الرقبة تستند القبة التي تشكّل سقف البراني، وفي أعلى قفلة القبّة منور (قفاعة) ترتفع مشكّلة ما يشبه البرج المحاط بالنوافذ.. ومن سقف هذه القفّاعة تتدلى سلاسل السُّرج والمشكاوات والوسائل الأخرى التي يُنار بها البرّاني.

أرض البراني مرصوفة بحجارة مصقولة من الحجر الأسود البازلتي والوردي المزّي، وذلك على أشكال بديعة.. وقد تتخللها تشكيلات جميلة من الرخام الملون المعروف بالمشقّف، المحاطة بأميال سوداء.. وتتوسط أرض البراني بحرة مضلّعة من الحجر الوردي، أو بيضوية.. ويتوسط تلك البحرة كأس ترتفع في مركز البحرة، ومن هذه الكأس تنطلق نافورة حاملة المياه إلى الأعلى لتعود ناشرة الرذاذ الذي ينشر الرطوبة والطراوة بالبراني، وقد تنطلق هذه المياه، من أفواه تماثيل نحاسية أو رخامية لحيوانات.. كما يوضع على أطراف البحرة، أصص نبات الصالون، كالهوا الخشن والشنشارة وراخي شعره.. وفي أحد جوانب البحرة العلوية، بالوع يصرّف المياه الفائضة للإفادة منها في دورات المياه.

وكان قسماً من هذه المياه (يوم كان الحمام يتغذّى من عدّانه الوارد من الأنهار) يذهب إلى حلل الماء لتسخينها، ومن ثم تمدّ الأجران بالماء اللازم للاستحمام. وجدران البراني مزدانة بالصور والرسوم والسجّاد، والآيات القرآنية، والحِكَم والمرايا، وعبارات الترحيب بالزبائن.

وتحت الأقواس المشكّلة للمثلثات الكروية الحاملة لرقبة القبّة، أواوين يصعد لكل منها بدرجتين أو ثلاث. وفي كل إيوان مساطب مجللة بحشيات محشوّة بالقطن ومساند محشوّة بالقش، وهي منجّدة أو مجلّلة بقماش الدامسكو البديع، وقد تكون تلك المساطب مجلّلة بالمناشف والفُوَطْ المقصّبة أو المزركشة.. وفي كل مسطبة أيضاً، عدد من المشاجب لتعليق ملابس الزبن خوف تجعدها بالطيّ، أمّا الملابس الأخرى فتوضع في بقج خاصة تحفظ بخزن تكون في عهدة الناطور.

وفي جدران البراني أيضاً فتحات بها رفوف ولها أبواب زجاجية، توضع بها المناشف والفُوَطْ.

وغالباً ما يوجد في برّاني الحمام مشلح (جناح) خاص منفرد، يسمّى القصر، وهو مخصّص للزبن المتميّزين الميسورين (الأكابر)، ويصعد إليه بدرجات مجللة بالسجاد. وإلى جانب من المدخل الخارجي إلى البراني سدّة (تخت) خاصة بالمعلم، يرحّب منها بالزبائن القادمين، ويودّع الخارجين من الحمام عقب استحمامهم، ويبارك لهم استحمامهم بقوله: نعيماً. ويتقاضى منهم أجر (وفا) الاستحمام، ويسلم كل زبون ما كان قد أودعه لديه من أشياء خاصة به (ساعة أو نقود.. خاتم..).

وإلى جانب المعلم صندوق الغلّة (النقود).. كما قد يوجد عدد من الخزن.. بها بقج ومناشف عديدة..

ولا يخلو البراني من درج يوصل إلى السطح لنشر الفوط والمناشف من البلل، بعد غسلها.

2-الوسطاني:

ثمّة جناح في الحمام الدمشقي يطلق عليه اسم الوسطاني الأول، وهو في واقع الأمر، ردهة انتقالية بين البراني والوسطاني الحقيقي، وهذا الوسطاني الأول يتكون من دهليز متعرّج، أرضه مبلّطة بالحجر الأسود والوردي بدروب متعاقبة. وجدرانه مبلطة لعلو مترين بالبلاط العادي (وزرة) ومن ثم تكون هذه الجدران مبطنة بما يعرف بالكلسة العربية المكوّنة من لبن الكلس وقشر القنّب المفروم (كتكت) والجصّ.. يعلو ذلك الدهليز قبّة نصف إسطوانية (جبلونة) بها قمريّات.

والقمريّة فتحة دائريّة بالسقف، بها قطعة من الزجاج على شكل قنديل مقلوب، وهي بقطر (10-15سم). مهمّتها توفير الضياء في النهار. وسميت كذلك تشبيهاً لها بالقمر.

يلي ذلك الدهليز، ردهة في ركن منها، أماكن للراحة (دورات مياه). وبجوارها بحرة نصف دائرية ملصقة بالجدار، وبأرض هذه الردهة، المبلّطة بالحجر الأسود والوردي، مجاري خاصّة لتصريف مياه الاستحمام إلى المجاري العامّة.

أما الجدران فمكلّسة كالدهليز، وفوق هذه الجدران، قبّة دائرية معقودة على

أقــواس بالجدران، وقد تكون تلك القبة نصف إسطوانية (جبالونة) عندما تكون الردهة متطاولة.

كمــا وقد يكون الحدّ الفاصل بين الأقواس والقبّة، رقبة سابقة للقبّة، تسود فيها الأقواس المتداخلة، على شكل مقرنصات.

كما تمر تحت بلاط هذه الردهة، بقايا الاحتراق الفائضة عن تسخين المياه بالحلّــة النارية والدخانيّة في الإقميم، كما سنرى، ومن ثمّ تُساق تلك البقايا إلى المدخنة العامة للحمام المعروفة باسم الفحل.

وفــي تلــك الردهة أيضاً مدخل إلى الوسطاني الرسمي (الحقيقي) وعلى طرفي هذا المدخل بابان متقابلان يتحركان على مفصل (زعرور) للحفاظ على حرارة الوسطاني وعدم تبديدها.. ويتوسط هذا الوسطاني الثاني ممر بيت النار، وعلــى طرفي الممر المذكور إيوانان: إيوان بكل طرف.. وبكل إيوان مسطبة يستريح عليها المستحمون خلال فترات الاستحمام، وبعد الانتهاء من الاستحمام استعداداً للخروج إلى البراني.

كمــا نجد بكل إيوان جرن أو أكثر، لأنّ هذا الوسطاني يتخذ للاستحمام في فصل الصيف عوضاً عن الجواني، كونه ألطف حرارة.

ونجــد بأحد الإيوانين مقصورة بجرنين في أحدهما محلول النورة المكوّن مــن لبــن الكلــس والزرنيخ، وتسمّى هذه المقصورة (واجبي) وهي مخصصّة لإزالة الشعر.

وأرض ممــر بيت النار بالوسطاني بعرض (100-150سم) وهي مبلطة بــدروب متــناوبة مــن الحجر الأسود والوردي. أما ارض الإيوانين، فمبلطة بتشــكيلات من الرخام والحجر الأسود والوردي، وقد يكوّن الرخام تشكيلة من الرخام المشقّف..

أمــا جــدران الوسطاني فهي مبلطة بوزرة من البلاط العادي، أو الزريقة المؤلفة من لبن الكلس وقشر القنّب المفروم ورماد وقيد الحمام (القِصرْ ملّ) وما تبقى من الجدران فمبطّن بالكلسة العربية الآنفة الذكر، حتى الحدود الفاصلة بين الجــدران وطاســات القباب التي تغطّي الوسطاني، حيث نجد تشكيلات جصيّة ومقرنصات ولا سيّما في الزوايا (القرن).

أمــا ســقف ممر بيت النار فهو على شكل جبالونة (قبّة نصف إسطوانية) وقــد يكون قبّة كبيرة تغطّي الممر، وكل من الإيوانين اللذين على طرفي ممر

بيـــت الـــنار. أو قبة على ممر بيت النار وقبّة لكل إيوان حيث تتصل قبّة ممر بيت النار بكل من القبتين المجاورتين بقوس معلّق.

3- الجواني:

يشـــكل الجواني القسم الداخلي من الحمام، وهو ينفتح على الوسطاني عبر باب بمصراعين، يتحركان على زعرورين، حتى لا تتبدد حرارة الجوّاني، على اعتبار أنّه أكثر أقسام الحمام حرارة.

وهـــو أيضـــاً كالوسطاني، على شكل إيوانين متقابلين يتوسطهما ممر بيت الـــنار، وعرضه كالوسطاني من (100-150سم) وفي بدايته مسطبة الحرارة، وفوقهـــا طاقة تطلُ على حلل الماء الحارّ يطلق عليها: (طاقة الخزنة) ومن هذه الطاقة يجري الاتصال مع عامل الإقمّيم (الوقّاد)، من أجل تعديل حرارة الماء، زيـــادة أو نقصاناً، وحسب الرغبة المطلوبة. كما أنّ من هذه الطاقة يتمّ تسخين الجوّانـــي من الحمام، بالبخار المنطلق من حلل الماء إلى الجواني، وذلك فضلاً عن الدفء والبخار الناجم عن سفح الماء البارد فوق بلاط ممرّ بيت النار.

وعلـــى بلاط الممر المذكور، وبلاط مسطبة الحرارة يستريح الراغبون في الاســـتحمام، والمســـتحمّون خـــلال فـــترات اســـتحمامهم، كي تتحلّل مفرزات أجســـامهم، ويســـهل غســـلها بسرعة.. ومنهم من يجلس على مسطبة الحرارة للاستشفاء من بعض الأمراض، والوعكات الناجمة عن البرد.

وعلى جانبي ممر بيت النار إيوانان، إيوان بكل جانب، وفي كل منها عدد مـــن الأجران، تتدفق إليها المياه الحارة والباردة التي يتحلق حولها المستحمون، ويتفرع عن كل من الإيوانين عدد من المقاصير، بكل منها جرن أو أكثر حسب اتساعها. وهذه المقاصير تحجز على الأغلب للاستحمام فيها من قبل جماعات، وبخاصة في فترة استحمام النساء.

ومـــن تلك المقاصير، مقصورة المغطس، لإسقاط الجنابة، والمغطس بحرة عمقهـــا بطـــول قامـــة الإنسان، ومساحة سطحها نحو المتر المربع.. ومن تلك المقاصـــير مقصورة الصنعة، وهي مخصّصة لريّس الحمام، في فترة استحمام الـــرجال وللأوســـطة للنســـاء، من أجل تكييس (تفريك) وتليف من يرغب من الـــرجال، أو النســـاء. وثمّة مقصورة كان لها أهميتها في فترة استحمام النساء، وهي مقصورة جرن الشيخ، المنسوبة إلى شيخ أو وليّ يُعتدّ بكراماته في منطقة الحمـــام. وفي تلك المقصورة جرن أو أكثر، أحدهما يُعرف بجرن الشيخ، وكُنّ

يقدمن لهذا الجرن الشموع، ويحجزن المقصورة للاستحمام تبركاً.

ولكل من هذه المقاصير، مدخل بقوس معقود بالحجر أو الأجرّ، مزيّن بنقوش من الجصّ، ولهذا المدخل باب يتحرك على زعرور، وبدون مزلاج (دقر)، يسمّى باب مروحة. أرض ممر بيت النار أيضاً، مبلطة بدروب متناوبة من الحجر الأسود والوردي، وعلى طرفيّ الممر مجاري تنساق إليها مياه الاستحمام والتنظيف. أما بلاط أرضيّة كلّ من الإيوانين والمقاصير، فمن تشكيلات الرخام المشقّف الملوّن، والرخام الأبيض المكحّل بأميال سوداء وآجرّية.

أما الجدران فمبطّنة بالكلسة العربية، إلاّ أنّها نتيجة للضرورات الصحيّة كُسيت بوزرة إلى علوّ مترين بالبورسلان، أو البلاط العادي.

وكما هي الحال في الوسطاني فإن سقف الجواني عبارة قبّة نصف إسطوانية (جبالون) فوق ممر بيت النار، وقد تكون هذه الجبالون قبّة تستند على قوسين حاملين، عند كل إيوان، أما المقاصير فإن سقوفها تأخذ شكل القباب وكل منها محمولة على رقبّة ذات مقرنصات، تفصل القبة عن الرقبة وعن الجدران، أما الإنارة فهي بالقمريات كما هي الحال بالوسطاني.

4- الإقميم:

وهو الجناح الخارجي من الحمام، وبه تُسخّن المياه اللازمة للاستحمام. وكان للإقميم شأن يوم كان تسخين الماء يعتمد على القمامة وروث الحيوان والمواد المشتعلة الأخرى.

يومها، وقبل أن يعرف الإسمنت، كان رماد وقود الحمام المعروف (بالقصرمل) ملاط لا يشقّ له غبار، في بناء الأقنية والقصور والدور، وإعداد الزريقة المستخدمة في طلاء الأسطحة والقباب بطبقة عازلة للرطوبة ومانعة لتسرب المياه عبر الأسطحة (الدلف). وكذلك عمل العدسة التي كان يستعاض بها عن البلاط، في الغرف وباحات الدور الشعبية.

وكان يستفاد من الجمر في "كمر" غمر قدور الفول لتدميسها (سلقها).. حتى إنّ من الحمامات ما كانت تسدّد نفقاتها من ذلك (القصر مل) الرماد، ومن تدميس الفول (سلقه). ونجد في الإقميم الخزانة والموقد فضلاً عن سكن القميمّي (الوقّاد).

فالخزانة حجرة يشكل سقفها قبّة منخفضة، تساعد على عدم تبديد البخار المتصاعد من حلل الماء الحار.. ذلك البخار الذي يأخذ طريقه إلى الجواني

والوسطاني، عبر طاقة الخزانة كما ذكرنا، لتدفئة كل من الجواني والوسطاني.

وبأرض حجرة الخزانة حلتان كبيرتان من النحاس، الداخلية منها، هي القريبة من طاقة للخزانة، ويكون تحتها الموقد، وتعرف بالحلّة النارية، ولمّا كانت هذه الحلة أعلى من الحلة الثانية، فإنها تفيض المياه الساخنة إلى الحلّة الثانية، التي تكون فوق بقايا اللهب والدخان، وتعرف بالحلّة الدخانية.. وما تبقّى من اللهب والدخان يتابعان سيرهما، تحت بلاط بيت النار في الجواني والوسطاني في طريقهما إلى مدخنة الحمام العامّة المسمّاة بالفحل وبالطبع فإن مرور بقايا اللهب والدخان تحت بلاط ممر بيت النار يسهم في تدفئة الجواني والوسطاني.

أما مياه الأجران الساخنة فإنها تأتي ممّا يفيض من الحلّة الدخانية عبر تمديدات خاصة إلى الأجران ويتحكّم الوقّاد بحرارة الماء، حسب رغبة الريّس بالحمام.

أدبيات الحمامات:

وقبل أن نأتي على ذكر العاملين في الحمام ومناسبات الاستحمام.. لعل من الطريف أن نتطرّق إلى بعض ما قيل في الحمام، ذلك أن الحمامات بما فيها من أحواض (أجران) ساخنة وأبخرة حارّة، كانت موضوعاً طريفاً للكتّاب والشعرّاء.. وكان العرق المتصبّب من أجسام روّاد الحمام مثاراً لقرائح الشعراء، ومن ذلك ما قاله شمس الدين الذهبي:

لم أبغِ في الحمام طيّب تنعُّمِ — أفنى البكاء دُموعَ جسمي أجمعا

فبكيت فيه أسى بجسمي كلّه — حتى كأنّ بكلّ عرق مدمعا

كناية عن انبثاق العرق من مسام الجلد، حتى كأنّ لكل مسامة في الجسم عيوناً تبكي.

ووصف المحار حمام سيف الدولة:

وخطّ فيها كل شخصٍ إذا — لاحظته تحسبه ينطقُ

ومثّل الأشجار في لونها — وليّنها.. لو أنّها تُورَقُ

أطيارها فوق أغصانها — بودّها تنطق أو تزعق

وقال الرقاش في الحمام مدحاً:

الحمام يُذهب القشافة، ويُعقب النظافة، ويفشّ التخمة ويطيّب النغمة.. وقال فيه هجاءً: يهتك الأستار، ويولّد البخار، ويُذهب الوقار.

وروي عن الإمام عليّ كرّم الله وجهه، أنّه قال في ذم الحمام:

بـئس البيت الحمام، تكشف فيه العورات، وترتفع فيه الأصوات، ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله.

العاملون في الحمام:

يكـون عـدد العامليـن فـي الحمام، بحسب اتساع الحمام، وشرائح زُبُنه الاجتماعـية، وحسـب عـدد مقاصـيره.. ولكل واحد من العاملين عمل مميّز مسؤول عنه لا يتعدّاه، وهم يتسلسلون في هذا العمل على نحو مشيخة الكارات (نظام الأصناف)، فالعامل أول ما يبدأ أجيراً، ثم تابعاً ثم ريّساً فناطوراً فمعلّماً.

ويقـابل هـذه المسمّيات في فترة استحمام النّساء، مسميات أخرى، ومنها: الأوسطة بمقابل الريس، والبلاّنة بمقابل التبع.

فالمعلم، أو المعلمة، على رأس العاملين في الحمام، يجلس المعلّم على دكّة عالية (تخت) في البراني، ويلاحظ الداخلين إلى الحمام والخارجين منه، فيرحب بهم أو يودّعهم، وهو يوجّه الأجير والناطور، للمثول بين يدي الزبون وخدمته، كمـا يقـوم باسـتلام حاجات الزّبُن الخاصة، من نقود وساعات وأشياء ثمينة أخرى، فيحفظها عنده، في صندوق خاص حتى نهاية الاستحمام، وبالمقابل فإن المعلّمـة تقـوم أيضاً بملاحظة الأطفال المرافقين للنساء، ومنع كبير السنّ منهم من الدخول، حتى لا يتطلع على عورات النساء.

أما الناطور، أو الناطورة (في فترة استحمام النساء)، فينوب مناب المعلّم، وهـو مسؤول عن نظافة الحمام، ويقدم المشروب الساخن أو البارد لمن يريد.. فضـلاً عن ذلك فإنه يساعد الزبون على خلع ملابسه، ولف الفوَط على خصر الزبون لستر عورته، وعلى كتفيه ورأسه.

وينحصر عمل الريّس، أو الأوسطة (في فترة استحمام النساء)، في تحميم رأس الـزبون وتفـريك جسده بالكيس الخاص لذلك، لإزالة مفرزات الجسم. ثم تليـيف الجسـد باللـيفة والصابون.. ويكون ذلك بحشمة وأدب جمّ ووفق تقاليد صارمة.

والتـــبع أو البلاّنة (في فترة النساء) دولاب الحمام، فهو حجر مقذاف، كما يقولون، بين يدي المعلم والناطور والريس. ولا يكفّ لحظة عن خدمة متطلبات العمل سواء في تنظيف الحمام أم في تلبية رغبات الزبُن وخدمتهم.. وهو يجفف جســم الــزبون بالمناشف، عقب الانتهاء من الاستحمام، والخروج من الجواني إلـــى الوســـطاني، ويُغـــيّر هذه المناشف إذا دعت الحاجة، ومن هذه المناشف الماويّـــة التي تُلفّ على خصر الزبون، والظهرية على كتفي الزبون، والرأسية التـــي علـــى رأس الزبون، وهو الذي يضع تحت قدمي الزبون. قبل الاستحمام وبعده منشفة التعتيبة خلال خلع الزبون ملابسه أو ارتدائها.

كما وأن البلاّنة بالإضافة إلى مهام التبع، فإنها تقوم بحشو الحنّاء للمسنّات، وكذلـــك دهـــن جسم الولاّدة (النفساء) بالشداد، بعد أن تجلس على مسطبة بيت الـــنار، وهـــذا الشداد يتكون من: الزنجبيل والقرفة والدبس، ولسان العصفورة، ومســـحوق الآس، وزيت الزيتون والبيض النيء، وتخلط هذه المواد حتى درجة التجانس، ويدهن بها جسم النفساء فتشدّه، كما يعتقدن..

الحياة الاجتماعية في الحمام:

كانـــت تســـود الحمام حياة اجتماعية صاخبة، فهي تضجّ بالمستحمين في هجعـــة اللـــيل، وتألّق الفجر ومتوع النهار، وكان الناس يرتادون الحمامات ليل نهار، رجالاً ونساء وولداناً. ليقضوا في الحمام وقتاً هنيّاً، في الاغتسال وتناول الطعام والاستشفاء، فضلاً عن إحياء بعض المناسبات الاجتماعية.. ويرون في الحمام نعيماً مقيماً ومتعة متجدّدة..

استحمام الرجال:

يرتاد الرجال الحمام جماعات جماعات، وبخاصّة في فترة المساء، التي قد تمـــتّد إلـــى مـــا بعـــد منتصف الليل.. فهم بذلك يقضون الساعات الطوال، في الأحاديث الوديّة وتبادل القصص والنّهف والألغاز، والنوادر، على مسطبة بيت الـــنار في الفناء الجوّاني.. والعَرَق يتصبّب من مسامْ أجسادهم، بانتظار دورهم عـــند المكـــيّس (الـــريّس). وبودّهـــم أن لا يغادروا هذا المكان الدافئ بحرارة الصداقة، وفرح اللقاء، والصفاء العاطفي، والظرف الاجتماعي..

ولا تخلو هذه الفترة المسائية من استراحة لتناول الطعام بالوسطاني، من الفول المدمّس، أو الفتّات (التساقي)، في جوّ من المرح والإمتاع والدعابة الحلوة.

وإذا قَـلّ أن يذهـب شخص بمفرده في فترة المساء، إلى الحمام، حتى لا يشـعر بالغربة والعزلة.. فإن الاستحمام في فترة الفجر والضحى يكون إفرادياً، أي أن كـل شخص يقصد الحمام بمفرده.. لأن الغرض من ذلك هو الاغتسال، وارتياد الحمام يكون عفوياً..

استحمام النساء:

وإذا كان ارتياد الرجال للحمام قد يكون عفوياً، فالأمر مختلف عند النساء. فالمـرأة لا تذهـب إلى الحمام وحيدة، بل مع بناتها وأطفالها، وكناينها، وأحياناً جاراتها ومعارفها.. ولا تنسَ الواحدة منهن أن تأخذ معها مستلزمات الاستحمام من ثياب نظيفة ومناشف ومآزر وفُوَطْ، وكذلك الطاسة المكّاويّة والترابة الحلبية (البيلونة) والمشط والحنّاء، والليفة والصابون، وكيس التّفريك..

فـإذا حـان الوقـت المخصـص لاستحمام النساء، وهو من الظهر إلى الغـروب، يذهبـن إلى الحمام عابرات الحارات والأزقّة، كلّ واحدة منهن مع بناتها وكناينها، والأطفال من ورائهن يحملون بقج حاجات الاستحمام. على أمل اللقـاء مـع الأُخـريات في الحمام، على جرن خاص يتفقن عليه، أو مقصورة محجوزة لهن.

استقبال المعلمة والناطورة:

فـإذا دخلت الواحدة منهن البرّاني من الحمام، ترحّب بها المعلّمة، وتمايز بيـن الأطفـال. فـإن كـان بيـنهم طفل كبير السن أو الحجم، طلبت إلى الأم إرجاعه.. حتى لا يتطلّع على عورات الأخريات.

وإذا صـدف ودخـل طفل من ذلك السنّ إلى الجوّاني ولم تلحظه المعلّمة، فـإنّ ذلـك سيكون مثاراً لمشاجرة بين أم الطفل وباقي المستحمّات، قد لا تحمد عقباها. إذا وصل الأمر إلى الرجال..

وبسـرعة خاطفـة ترحب الناطورة بالزبونة، وتؤهل بها، ويكون ترحاب الـناطورة علـى قـدر مـا ستناله الناطورة من إكرامية بعد الاستحمام. لأنّ الـناطورة، أشـبه بالدايـة (القابلة) تعرف زبونات الحمام، وتعرف شرائحهن الاجتماعـية، ومـدى كرم كل منهنّ. فتتصرف على هذا الأساس، مع زبونات الحمام.

وإذا كـان كثـير مـن الـرجال يعتمدون على الريّس في عملية التفريك

والتليـيف، فـإن النسـاء نادراً ما يعتمدن على الأوسطة في الاستحمام، إنّهنّ يفضلن الاستحمام بأنفسهنّ، وقد يحمّمن بعضهن بعضاً.

لكـن المسنّات منهن يكلّفن البلاّنة بإعداد الحنّاء لشعورهن، فضلاً عن ذلك يطلبن إلى البلانة إعداد الشدّاد للولاّدة على نحو ما ذكرنا.

وعلـيه فـإن المسـتحمّات يتجمعـن حول أجران، الجواني ومقاصيره، ويشرعن في الاستحمام، في جوّ من الهرج والمرج، والصياح وعويل الأطفال، وملاسـنة المستحمّات، حول الدور في غرف الماء من الجرن، أو حجم أواني غرف الماء (الطاسات).

إنها فوضى منتظّمة، وضوضاء صاخبة لا حدّ لها، ولا تكاد تميّز شيئاً مما تسـمع، حـتى قـيل فـي ذلك: مثل حمام النسوان، للدلالة على تلك الفوضى والضوضاء.

طعام حمام النساء:

يـتخلل اسـتحمام النساء، فترة طعام، وتناول النسوة الطعام في الحمام، يعكس لنا شكلاً من أشكال الحياة الاجتماعية، لـه طابعه ونكهته. ونستطيع من خلاله استشفاف الكثير من العادات والتقاليد وأنماط السلوك.

ولعـلّ من أطرفها أسلوب المساكبة والموآكلة، والتلقيم، والأيمان الحاضّة علـى الاسـتزادة مـن الطعام، وعبارات الترغيب والتحبّب للمزيد من تناول الطعام.

وهـذا الطعام، قد يكون من حواضر البيت، من جبن وزيتون وزعتر، وقد يكون من المأكولات الشعبية، وخاصّة المجدّرة والشلباطو، وحرّاق إصبعه.

وفـي المناسـبات يكون الطعام سوقياً من عند العشيّ والبغجاتي واللحام.. مـن أنـواع الـبرك والصـفايح والمعجنات والمناسف.. والوربات بالقشدة أو الفستق.. وبالطبع مع فواكه الموسم..

مناسبات استحمام النساء:

وهـذه المناسبات كثيرة، لكنها مقصورة على الأفراح والمناسبات السعيدة. إلاّ أن القـيام بهـا ليس شرطاً لا تتمّ الأفراح إلاّ به. وهي في أساسها، مظاهر للتعبير عن الابتهاج والفرح. ومن هذه المناسبات:

حناح الجواني في الحمام الدمشقي

استحمام الرجال مع الريس

الليفة و الصابون و الريس في استحمام الرجال

البزورية و خان أسعد باشا من الجو

خان الحرير

مدخل خان أسعد باشا

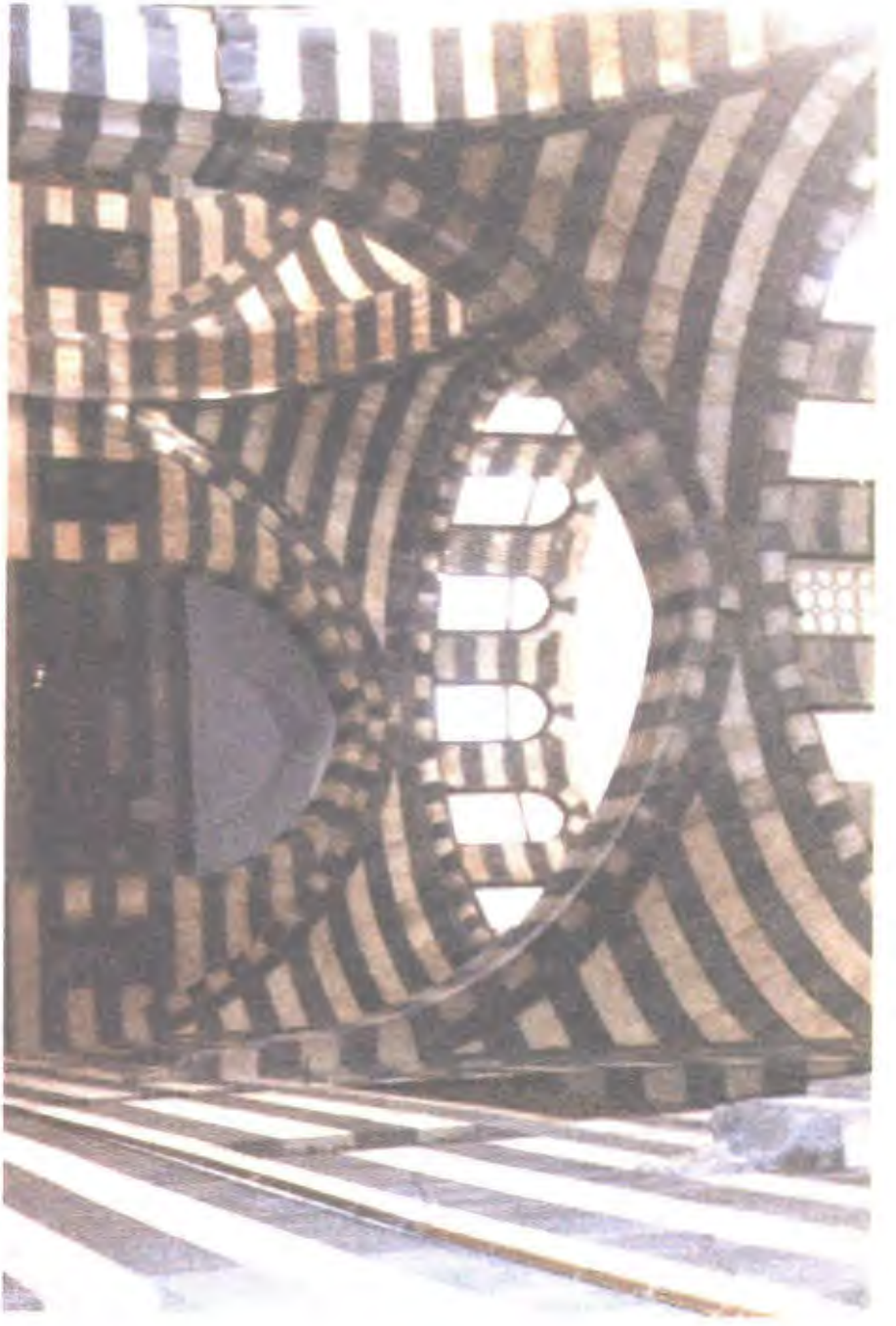

بهو خان أسعد باشا

قباب خان أسعد باشا

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران

-**حمام العرس**: وتدعو لـــه أم العريس، فتحجز لـــه كامل الحمام أو جانباً من الحمام مسبقاً، ويكون فيه الأهلية والأحباب من الأسرتين.

-**حمـــام الغمـــرة**: ويكـــون بعـــد العرس بأسبوعين تقريباً وتدعو لـــه أم العروس.

-**حمام النفاس**: وهو حمام الفسخ، ويكون اعتباراً من اليوم السابع للولادة، حـــتى الـــيوم الواحد والعشرين على أن يكون في أيام الأفراد بين اليوم السابع واليوم الواحد والعشرين من الولادة.

ويطلـــق علـــيه اسم الفسخ، لأن حليب النفساء (الولاّدة) قبل هذا الحمام، يكـــون على شكل صمغة (غير متكمل التكوين)، إلاّ أنّ هذا الحليب مفيد فـــي غذاء الوليد، ابن النفاس. لكن أقلّ رعبة، أو هزّة (زعل) للنفساء قد يتســبّب عـــنه هروب (نضوب) حليب النفساء.. ولذلك فَهُنّ يعتقدْن، أنّ حمـــام النفاس، يحوّل حليب الصمغة، إلى حليب كامل التكوين.. وبالتالي لا يتأثر بما قد تعانيه النفساء.

-**حمـــام الأربعين**: ويكون بعد أربعين يوماً من الولادة.. وفي هذا الحمام تُجلـــس النفســـاء علـــى مسطبة بيت النار، وتُدهن بالشداد، المشار إليه. وتبقى جالسة على المسطبة، حتى تعرق.. وفي أثناء ذلك تُسقى الحليب، أو مـــرق اللحـــم المســـلوق وبضع بيضات نيئآت.. ثم تستحمّ ومن معها وتخرج..

وتجـــري جمـــيع هذه المناسبات في جوّ من السرور والمرح والحبور مع الأغاني والزلاغيط.

الخطبة في حمام النساء:

والخطـــبة فـــي الحمام، أطرف ما يجري في حمام النسوان، فقد تصادف المـــرأة في الحمام فتاة تروق لها، وتجدها مناسبة زوجة لابنها، وكنّة لها تحمل عـــنها أعباء خدمة البيت.. فتتعرف عليها، وتأخذ في شمّها وضمّها، للتأكّد من ســـلامة شـــعرها وسلامة سمعها.. ورائحة جسمها، وملفظها، وانسجام قوامها، علـــى الطبيعة، فتنقل ذلك إلى زوجها وابنها للشروع بالاتصال بأهل الفتاة، أو صرف النظر عنها..

***

حمامات دمشق.. إلى أين:

وهكذا.. فقد كانت حمامات دمشق عبر تاريخها الطويل سمة خاصة بمدينة دمشق، ووجهاً من وجوهها المعمارية، ومظهراً من مظاهرها الصحيّة، وملتقى للحياة الاجتماعية..

وقد تزايد عدد هذه الحمامات حتى أصبح مائة وسبعة وتسعين حماماً أيّام ابن عبد الهادي في مطلع القرن العاشر للهجرة.

لكن التطور الذي أصاب حياة الناس في دمشق، والامتداد، الأفقي والشاقولي لعمران مدينة دمشق، واعتماد كل بيت أو أسرة، حماماً خاصاً بهم في الدار.. قلّل من ارتياد أبناء دمشق لهذه الحمامات.. الأمر الذي نجم عنه، تخلّي هذه الحمامات الواحد تلو الواحد، عن وظيفتها.. حتى إذا كان النصف الثاني من القرن العشرين، كانت الحمامات تعاني نزاع الزوال، والانزواء من حياة الناس. وبالتالي، أصبحت هذه الحمامات، من نشوة عالم الذكريات الحبيبة إلى النفس، لدى المخضرمين، ممن عرفوا هذه الحمامات، وعاشوا أجواءها الساحرة، وشعروا بنعيمها، يوم كان نعيم الدنيا الحمام. حتى أنه لم يبقَ في أيامنا إلا القليل من هذه الحمامات.

وحرصاً على بقاء هذه البقيّة الباقية من حمامات دمشق.. لا بدّ وأن يجري تنسيق بين القائمين عليها، والجهات المعنيّة في وزارة السياحة ووزارة الثقافة، ومحافظة مدينة دمشق، لبثّ الحياة في ما تبقى من حمامات دمشق، من أجل الاستمرار في تأدية مهامها، وفق الأصول والأعراف، في إطار الحمام التقليدي. وبخاصة بعد أن أخذت يد الإهمال المتعمّد، المؤدي إلى تداعي أبنية الحمامات المسجلة أثرياً ضمن الأوابد التاريخية في مدينة دمشق.. تمتدّ إلى هذه الحمامات.. وإذا نجحت هذه الجهات في إعادة الحياة لحمام نور الدين بالبزورية وحمام الخانجي في حيّ سوق ساروجة.. فإن هذا يتطلب التفكير جديًّا بالعودة إلى أسلوب تسخين مياه الحمام التقليدي، بدل الشوديرات الحالية التي لا توفر الشروط التي يتطلبها الاستشفاء على مسطبة بيت النار بالحمام التقليدي.

مقترحات وحلول:

لعلّ من المفيد في هذا المجال أن يُصار إلى الأخذ بالمقترحات التالية:

1-اعتبار عدد من حمامات دمشق، حمامات سياحية، يروّج لها سياحياً، وبالتالي تؤخذ نسبة من عائداتها، لتمويل صندوق مشترك، لدعم الحمامات الأخرى التي لها طابع أثري سياحي.

2-أن تقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف، بأعمال الصيانة والترميم، التي تتطلبها القيمة الأثرية للحمام، حتى لا يُفسح المجال للإهمال أو التشويه، مما قد يتسبب بانهيار بناء الحمام، وبالتالي تشييد بناء حديث استثماري مكانه، بسبب غلاء قيمة الأرض التي كان عليها الحمام.

3-أن يجري تطوير في أسلوب استثمار الحمام، وتوظيفه، بشكل ينسجم والحياة المعاصرة، على أن يحافظ على عناصر البناء الأساسية في الحمام. وأن يحافظ على الأسلوب التقليدي في سير عمل الحمام، ومراحل الاستحمام..

4-أن توظّف الحمامات التي لم يعد بالإمكان استمرارها في استقبال روّادها، كمراكز ثقافية أو نوادٍ أو مكتبات عامة..

❐

المصادر والأبحاث:

1-ابن طولون الصالحي: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ج (1-2) تحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان، دمشق 1956.

2-ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ت، سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية. دمشق: 1956م.

3-ابن عبد الهادي: عدّة الملمّات في تعداد الحمامات، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم (4535).

4-ابن عبد الهادي: آداب الحمام وأحكامه، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم (4549).

5-ابن عساكر: تاريخ دمشق. ت: عبد القادر بدران. دمشق 1329هـ.

6-ابن كنّان: المروج السندسية الفسيحة. ت: الشيخ محمد أحمد دهمان، دمشق: 1947م.

7-أبو علي الأربلّي: مدارس دمشق وربطها وحماماتها: تحقيق الشيخ محد أحمد دهمان.دمشق 1947م.

8-أحمد محمد الكوكباني: حدائق النمّام في الكلام على ما يتعلّق بالحمام. ت:عبد الله الحبشي. الدار اليمنيّة. ط(2) سنة: 1981م.

9-سلوى دهمان: تموين مدينة دمشق بمياه الشرب، رسالة جامعية لنيل درجة الإجازة في الجغرافيا، من الجامعة السورية سنة: 1958م بحث غير مطبوع.

10-صلاح الدين المنجد: حمامات دمشق. نصوص من ابن عساكر وابن عبد الهادي. بيروت: 1947م.

11-عبد القادر النعيمي: الدارس في أخبار المدارس. ت:جعفر الحسيني، المجمع العلمي العربي سنة: 1951م.

12-منير كيال: الحمامات الدمشقية ط(2)، مطبعة ابن خلدون. دمشق: 1986.

13-مجلة الحوليات الأثرية السورية: المجلد (6) سنة 1956م. بناء وتنظيم المدن السورية في العهد الهلنسني. بشير زهدي.

14-دراسات ميدانية وجولات على حمامات دمشق في العقد الخامس من القرن العشرين.

■■

الفصل الثالث عشر
خانات دمشق.. معلم تاريخ لإرث حضاري!!

منازل وتسميات:

كان لموقع دمشق، على طريق القوافل التجارية، في قلب العالم القديم، أن لعبت هذه المدينة دوراً متميّزاً، كمحطة تجارية لقوافل بلدان هذا العالم..

وقد تطلّب ذلك إقامة منازل آمنة للمسافرين يستريحون فيها من وعثاء السفر، والتزوّد بما يلزمهم من ماء وطعام.. وعقد صفقات التبادل التجاري.

أُطلق على هذه المنازل عبر العصور تسميات عدّة، نذكر منها: الوكالة، والقيسارية والنُزل (بمعنى الفندق)، والخان.. ثم انتهى الأمر بهذه التسميات إلى ما يُعرف بالخان. ويذهب المحيي في "خلاصة الأثر" إلى أن جميع هذه المسميات إنّما هي لمسمّى واحد، هو الخان.

فالخان عُرفاً هو بيت المسافر، ومَنْزل التاجر. وهو ما اتّسع من الدور الجامعة. ويكون لها فسحة سماوية، في وسطها بركة ماء، وحول تلك الفسحة دكاكين كالأسواق للتجار، وفي الأعلى غُرف للسكن، كما يتوفر بها أمكنة للوضوء والصلاة ولا بد أن يوجد في مكان متطرف إصطبل للرواحل.

بناء الخانات:

قام ببناء الخانات، الخاصّة والعامّة من الناس، وبخاصة السلاطين ونوابهم وولاتهم.. وأيضاً التجار والأثرياء وأهل الخير. وقد حبسوا لها الأوقاف لصيانتها والإنفاق من ريعها على وجوه الخير، كفكّ الأسرى ووفاء ديون الميت، وبناء المدارس والجوامع والتكايا والزوايا والربط.. فضلاً عن إيواء اليتامى والفقراء والغرباء وأبناء السبيل والعميان.. بل وحتى القطط الشاردة..

ويعـــود بـــناء الخانات إلى عهود متعدّدة، وقد كثر إنشاؤها في العصرين الأيّوبي والمملوكيّ.. إثر القضاء على الصليبيين.

لكـــن جُـــلّ ما في دمشق من الخانات في أيامنا يعود للعصر العثماني، أما عددهـــا، فغير محدّد تماماً، لأن بعضها تهدّم أو احترق، لعدم العناية بترميمه أو صـــيانته في ذلك الحين.. ويذكر القساطلي في "الروضة الغناء" أن بدمشق سنة (1819) نحو (139) خاناً.

نسبة الخان:

مـــن الخانـــات ما حمل اسم بانيها، كخان أسعد باشا.. ومنها ما نسب إلى النازليـــن فـــيه، كخان سليمان باشا، بسوق مدحت باشا، الذي عُرف باسم خان الحماصنة.. ومنها ما كان ملفى فئة من الجند فنسب إليها. كخان "اللاوند" وخان "الدالاتية".

وقـــد يحمل الخان، اسم السلعة التي تروج فيه، أو الحرفة التي تُمارس به كخـــان الزيت، وخان التتّن (التنباك)، وخان الدبس، وخان الجوخيّة، والجمرك والحباليـــن، والبقسماد (نوع من الخبز أو الكعك)، وخان الجوار، وكانت تجلب إليه الجواري من الرقيق، ولعلّه المعروف بخان التكّة.. شأنه في ذلك شان خان الحرمين، بالجانب الشرقي من سوق الحرير.

خانات القهوة:

ومـــن الخانـــات مـــا كان لالتقاء الصحب والطارئين على المدينة، بهدف التسلية، وتزجية الوقت. في احتساء القهوة أو الشاي، ولعب النرد، أو الاستماع إلى قصّة من الحكواتي عن عنترة، أو الملك سيف بن ذي يزن، أو الزير سالم، أو الملك الظاهر، ومنهم من يرغب مشاهدة بابه (فصل) من بابات مسرح الظلّ التي يقدمها الكركوزاتي. وقد عرف هذا الضرب من الخانات باسم خان القهوة.

ويحضـــرني في هذا المجال ما حدثنا به الخيارّي المتوفّى سنة (1671)م يـــوم زار دمشق خلال رحلته، فبعد أن يذكر لنا ما شاهده من أمر المتنزّه الذي عـــند بـــاب جيرون بشرقي الأموي ينقلنا للحديث عن انطباعه إزاء خان القهوة الـــذي بـــباب جيرون، ثم يصف لنا هذه الخانات في كتابه تحفة الأدباء وسلوة القرباء بقوله:

".. مـــن ألطف ما تلحظه بالشام النواظر، وتقرّ به العين، ويروق الخاطر: خانـــات القهوة. فإنّ بها لكل شجن سلوة، فقد جمعت معاني الظرافة، وأشرقت بمجـــامع اللطافـــة، فحوت من السُّقاة كل غصن تشتاق من ورده قطافه، وتدخل حـــرم أمـــنه لتأميـــن المخافة. وهي متعدّدة متفاوتة المحاسن، فمنها الخالي من الأنهـــار، الجامع للأقمار. ومنها المشتمل على أنهار، ماؤها العذب غير آسن، وما ألطف كاساتها إذا حملتها أكفّ سُقاتها، فقل بدورٌ تحمل نجوماً، فتكون لمن ضلّ هُدى، وللشياطين رجوماً".

خانات الخواطي وبنات الهوى:

ومـــن الخانـــات، مـــا تحـــول عـــن وظيفته، وخرج على المفاهيم والقِيم الأخلاقية، التي تواضع عليها الوجدان الجمعيّ في ذلك الحين..

فقد ورد، أن قاضي القضاة علم في سنة (1395م) أن خاناً بالقرب من قبّة الفحـــم، تباع فيه الخمور جهاراً، فكبسه بطائفة من الجند، واقتلع خوابي الخمر المدفونـــة في الأرض، ونقلها إلى دار السعادة، ثم ضُرب أصحاب الخان ضرباً مُبّرحا.. وطيف بهم في المدينة تشهيراً وتحقيراً.

ومن الخانات ما أصبح ملقى بنات الهوى، كخان الزنجاري بظاهر العُقيبة، وكـــان فيه خواطي كثيرة، وخمور ومنكرات، فهدمه الملك الأشرف موسى بن العادل سنة (1237هـ) وأمر بعمارته جامعاً، أطلق عليه اسم جامع التوبة. وقد أتـــى هـــذا الجامع على هيئة جامع بني أميّة بدمشق. وتأتي أهميّته من أسلوب عمارتـــه وتمـــيّز بنائه، وبابه ومحرابه، ونوافذه الزجاجية التي أتت على غرار نوافذ الجامع الأموي آنذاك.

***

تصنيف الخانات:

وتسهيلاً للبحث، عمدنا إلى تصنيف خانات دمشق في ثلاث مجموعات:

1-خانات الطرق المؤدية إلى مدينة دمشق.

2-الخانات التي بداخل مدينة دمشق.

3-الخانات التي خارج سور مدينة دمشق.

1-خانات الطرق:

وهي أشبه ما تكون بالحصون، بُنيت على الطُرقات بمعدّل خان لكل مرحلة، أي بمقدار مسيرة ثماني ساعات على الأقدام باعتدال.. ولما كانت القوافل التجارية معرضّة لأخطار وتعديّات قطّاع الطرق.. كان من الصعب، سير القوافل ليلاً، فكانت القافلة تنطلق من الخان صباحاً، وتمشي مدّة ثماني ساعات حتى تصل إلى خان آخر، قبل حلول الظلام، لقضاء الليل والاستجمام، وفي هذا الخان تجد القافلة جميع متطلباتها من الأمن والغذاء.. بل وعلف الرواحل. ذلك أنّ الخان يغلق بابه مساء، ويقوم حرّاس بالجلوس فوق الباب وفي الشرفات العالية لصدّ أيّ اقتحام أو اعتداء.

وكانت لدمشق ثلاثة طرق رئيسيّة، هي: طريق يربطها بالساحل، وآخر إلى مصر وثالث إلى حلب، فضلاً عن الطريق الذي تسلكه قافلة الحج الشامي إلى الديار المقدسة بالحجاز.

خانات الطرق عبر التاريخ:

بدأ هذا النوع من الخانات في الظهور منذ القدم، فقد كانت دمشق أيام الآراميين محطّة تجارية هامة بين بلدان حوض البحر المتوسط، وسواحل الخليج العربي، وبلاد العرب السعيدة باليمن، وبلاد الشام والرافدين وفارس، وفي العهود الإسلامية، حافظت دمشق على هذا الدور، وقام الخلفاء بشقّ الطرق وإنشاء المنازل عليها، لتسهيل راحة المسافرين والحجاج..

فأنشأ معاوية بن أبي سفيان، الخلفية الأمويّ، البريد، وجعل له محطات استراحة لتبادل البُرُد.. ثم تعدّدت أغراض هذه المحطات (المنازل). وأصبح لها مهامّ إداريّة ودفاعيّة وتجاريّة.. فتحوّلت تلك المحطّات إلى أماكن حصينة، تكون فيها القوافل التجارية، بمأمن من اللصوص وقطّاع الطرق.. واصبح التجّار النزلاء يجدون فيها أماكن لبضائعهم، وملاذاً آمناً لإقامتهم، فضلاً عن توفير العلف والإصطبلات لرواحلهم من جِمال وخيول وسوائم أخرى.

فلما كان عهد الدولة النوريّة، قام نور الدين زنكي بإصلاحات لتوسيع التجارة، كتخفيف الضرائب، وإبطال المغارم، وتوسيع الأسواق، وتحسين الطرق.

ثم أكمل صلاح الدين الأيوبي عمل نور الدين، فبنى الخانات على الطرق، لنزول القوافل التجارية، وجهّزها بكل ما يلزم.. فكانت تلك الخانات على درجة

كبـيرة من المنعة في أسوارها، والتحصين في أبوابها، لدرء تعدّيات الصليبيين والغوغاء..

وفي عهد المماليك، شهدت دمشق حركة عمرانيّة كبيرة، كان للخانات فيها نصـيباً وافراً. ورافق ذلك توسع في الأسواق، ونزوع بعض هذه الأسواق إلى التخصص في بضائعها. وحرفها، كسوق الخيل الذي كان ينفرد بتوفير حاجات جيش الخيّالة.

اكتشاف طريق الهند البحري:

ورغـم اكتشاف الطريق البحري إلى جنوبي قارة آسيا، عبر طريق رأس الـرجاء الصـالح، علـى السواحل الجنوبية لأفريقيّة، فقد بقيت لدمشق مكانتها الـتجاريّة، وبخاصـة القوافـل القادمة إلى دمشق من بلاد الأناضول وفارس والرافدين..

ذلـك أن السـلاطين العثمانيين نصبّوا أنفسهم حُماة الحرمين الشريفين في مكـة المكـرمة والمديـنة المـنورة. وعملوا على تيسير الحجّ على المسلمين، وجعلوا لـه أميراً يترأس قافلة الحج الشامي المنطلقة من دمشق.. وأقاموا على الطـريق منازل للحجيج يتوفر فيها الماء والأمن.. وأقاموا الجسور والحصون والمعابر، فضلاً عن مرافقة الحرس والجند للقافلة..

فقـد كـان يتجمّع في دمشق حجيج بلاد الشام والأناضول والعجم وآسية الصغرى والوسطى، وبلاد الرافدين.. وتطلب ذلك، أن كان على دمشق، تأمين الوسـائل اللازمة لهذه القافلة، من جمال وخيام ومؤن، وحماية، ولوازم ركوب كالـتخوت والمحـارات والشـباري والشقاديف، إضافة إلى العاملين في خدمة الحجيج، من عكّامة ومهاترة ومشعلجية، وسقائين، وحرس وجند..

وهذا بدوره تطلّب بناء رباطات كثيرة حول باحات تقوم أروقتها على عُمد، ولهـا دكاكيـن يجري بها التبادل والبيع والشراء.. وكذلك إصطبلات في الطابق السفلي، وأماكن للنوم في الطابق العلوي.. تلك هي منازل الحجيج الشامي.

خانات الطرق في العهد العثماني:

إذا كانت منشآت الخانات التي تعود إلى العصور السابقة للعثمانيين، متينة ومنعـية، فإنها تتسم بالبساطة.. أما الأنموذج العثماني للخان، فإنه على ما تميّز بـه مـن الأقواس والقباب المتصلة ببعضها، والقاعات المسقوفة بالخشب.. هذا

الأنمـــوذج يقدم لنا تركيباً عمرانياً يتبنّى الشروط المحليّة للبناء، بعيداً عن نمط الخانـــات الأيوبية والمملوكيّة.. وبخاصّة ما يتعلّق بطبيعة البناء النفعية.. وذلك بأسلوب متقن تبرز فيه الرشاقة والحيوية للبناء.. ويتجسّد ذلك في خان القطيفة.

خان القطيفة:

يقع هذا الخان، شمالي بلدة القطيفة، وهو من أوقاف سنان باشا، وقد أوقف لـــه سبعين قرية للإنفاق عليه، سواء أكانوا من العاملين أم من النزلاء..

وكان من الاتّساع والكِبَرْ، أنّه لو دخلته قافلة من عشرة آلاف رجل، بخيلها وجمالهـــا، لوسعها أو زاد.. وكان يضم بالإضافة، إلى منازل الرجال، مقاصير للنســـاء (الحريم) ومستودعات للمؤونة، وفرن وحمام، وحوانيت للباعة، وجناح خاص بالباشا، ودائرة خاصّة بمتولّي الخان وزلمه.

يأخذ الخان شكل مستطيل، محاط بسور ينتهي بزخارف.. ويخترق كل من واجهاتـــه، مدخـــل كبير لـــه بابان صغيران (باب خوخة)، وبهذا الخان، قاعة متطاولة مقبّبة، يبدو أنها كانت مقهى.

ففي الواجهة الجنوبية، ينفتح المدخل الرئيسيّ على ممرّ مقبّب، تنتظم على جانبـــيه المخازن، وفي طرف هذا المدخل حمام، يقابله في الطرف الآخر فرن. وينتهـــي هـــذا الممر، إلى فسحة سماوية واسعة مربعة، بها مسطبة لها مدخل يتصـــل بالمسجد، وهذه الفسحة مرصوفة بإتقان بالحجارة، ويتوسطها بركة ماء كبيرة..

ويحـــيط بهـــذه الفسحة رواق ضيّق مقبّب يوصل إلى رواق ثان متسع، به مســـطبة مجـــزّأة بفواصل، تستند عليها قباب بعدد تلك الفواصل.. وفي الجدار المقابل للمسطبة حلقات كانت تربط بها الرواحل.

وفـــي وســـط الواجهة الغربية، ينفتح المدخل على ممرّ، في جانبيه غرف مقبّبة ودرج يوصل إلى الطابق العلوي (العلوّ).

أما في الواجهة الشرقيّة فيتشكل قسم متقدم في السور، يضمّ دورات المياه وأماكن للوضوء، كما ينفتح في هذه الواجهة الشرقية باب على ممرّ يوصل إلى المطـــبخ لإعـــداد الطعـــام، الـــذي كان يقدم للنزلاء بالمجان.. وهو من القمح المطبوخ باللحم.. وهذا فضلاً عن ما كان يقدم للرواحل من علف وعناية..

كتابخانه تخصصي تاريخ اسلام وايران
تاسيس ١٣٧٢

2- الخانات التي بداخل مدينة دمشق:

ولهذا النوع من الخانات أهمية تتناسب والدور التجاري الذي تميّزت به مدينة دمشق، وهي تعود إلى عصور متعدّدة.. وقد كثر إنشاؤها في العصرين المملوكي والأيّوبي.. لكن ما بقي منها، يعود معظمه إلى العصر العثماني.. ففي هذا العصر، فقدت دمشق أهميتها داخل السور، وانطلق سكانها إلى أحياء القنوات وسوق ساروجة والشاغور البراني.. وأصبح والي دمشق يقيم في السراي خارج السور، وقطن أكابر الناس والموظفون في هذه الأحياء.

كما قطن أعيان دمشق في حي سيدي عمود (الحريقة) وأقام الأغوات الأتراك في حي سوق ساروجة الذي عُدّ استانبول الصغرى. ورافق ذلك بناء الأوابد العثمانية، كالمدرسة السليمانية والمدرسة السليمية، فضلاً عن عدد من المساجد والحمامات.

فقد كانت دمشق في هذه الفترة، تغصّ بالتجار من مختلف الأجناس، وغدت مركز التقاء القوافل القادمة سنوياً من بغداد وفارس والعجم، وبخاصة في موسم الحج.. فاتسعت أسواق دمشق، وقام وُلاتها ببناء خانات جديدة أصبحت منازل للتجار وبضائعهم.

توزيعها الجغرافي:

وقد توضعت هذه الخانات في إطار المدينة القديمة بين الجامع الأموي وسوق مدحت باشا (الطريق الروماني المستقيم) بالبزورية وسوق الحرير والخياطين.

وإذا كانت هذه الخانات لا تختلف في تقسيمها عن ما سبقها من أبنية خانات العصور السابقة، فإنّ المشيد منها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت ساحته المركزية مسقوفة بالقباب إتقاءً لتقلّبات الطقس، من حرّ وقرّ وأمطار، وهذا ساعد على إمكان الإفادة من ساحة الخان في تخزين البضائع.. وإذا كانت ساحات خانات هذه الفترة العثمانية أكثر مساحة من مساحات ساحات خانات العهود السابقة.. فإنّ مردّ ذلك يعود إلى طبيعة البناء المسقوف التي تحكم اتساع هذه الساحة. أو صغرها.

وكان من أهم هذه الخانات:

خان الجمرك:

بنـــي فـــي القـــرن الســـابع عشر، وانحصر نشاطه بالمكوس. وفي سنة (1864م) نقلـــت مـــنه المكوس، فاشتراه متري شلهوب وعمله سوقاً، ثم اشتراه شمعايا وجعله للصيرفة.

يمـــتاز خـــان الجمـــرك بفسحته الكبيرة المسقوفة، التي قامت مقام الفسحة المكشـــوفة في خانات العهود السابقة.. وهو يأخذ شكل زاوية قائمة تغطيها ست قباب مرفوعة على جيوب من الأقواس.. ولكل قبة قفّاعة للإضاءة.

ولهـــذا الخـــان مدخلان، مدخل بجهة الشمال يوصل إلى سوق الحميدية، ومدخـــل آخـــر في الشرق ينفتح على سوق الحرير. وعلى طرفي هذا المدخل ســـلمان حجـــريان يوصلان إلى السطح. وفي أعلى الباب نافذة كان يجلس بها الحارس، لمراقبة من يطرق الباب ليلاً، وذلك على غرار ما كان لغالب خانات دمشـــق ولخانـــات الطـــرق أيضاً.. ويشغل الخان في أيامنا سوق لبيع الأقمشة والإكسسوارات النسائية.

وهـــو يُعدّ من أجمل المعالم التجارية في أسواق دمشق القديمة.. المتصلة بسوق الحميدية، دون المساس بآبدة الخان التاريخية.

خان الحرير:

يقـــع فـــي سوق الحرير، قريباً من خان الجمرك، بناه درويش باشا والي دمشـــق سنة (1573م) وهو من أكبر خانات دمشق مساحة. وقد تجلّت في بناء هذا الخان التقاليد المعمارية السورية، الممتزجة بالتقاليد المعمارية التركية.

وتُعـــدّ بوّابـــة خـــان الحرير أنموذجاً لبوابات خانات دمشق التي تعود إلى العهـــد العثمانـــي، لمـــا حوته من التزويق والتنميق والزخارف، فهي مبنية من الحجـــر النحيت المتعدّد الألوان بطول ستّة أمتار، وعلوّ ثمانية أمتار. ويتوسط باب الخان باب صغير (خوخة)، يسمح بدخول الأفراد مساء، ولا يسمح بدخول الركائـــب.. ويوصـــل هذا الباب إلى باحة مستطيلة تتوسطها بركة ماء. ويحيط بهذه الباحة جناح أرضي (سفل) وآخر علوي (علوّ).

فالأرضـــي عبارة عن مخازن مبنيّة بالحجارة وتتقدمها أقواس قائمة على ركائز تشكل أروقة تحيط بالباحة.

أمـــا الطابق العلوي، فيصعد إليه بواسطة درجين يوصلان إلى صفين من

الغرف المطلّة على رواق مغطّى بأربعين قبّة تنتظم في ثلاثة صفوف تشمخ في أجواء دمشق في منظر من أمتع مناظر دمشق القديمة.

ويشـــغل الغرف المذكورة في أيامنا، محال ومعارض إكسسوارات نسائية ومشاغل مطرّزات نسائية عرايسيّة.

خان الحماصنة:

بـــناه سليمان باشا والي دمشق، سنة (1736م)، وهو عم أسعد باشا. ويقع فـــي سوق الحبالين جنوبي سوق مدحت باشا، على مقربة من سوق البزورية، وقد عرف الخان، بخان الحماصنة، لأن تجار حمص كانوا ينزلون فيه.

ويأتـــي هذا الخان بعد خان أسعد باشا من الناحية الجمالية والفخامة، وتبدو فيه تأثيرات الحجوم المعمارية الواسعة، مع تأثيرات التلوين في حجارة المداميك المتتالية، وفي الأقواس وجيوبها (الأبلق).

فواجهـــة الخـــان مبنيّة بمداميك متتالية من الحجر الأسود والأبيض، وله بوّابـــة جمـــيلة لهـــا مصراعان يؤديّان إلى ممّر على جانبيه سلّمان حجريان، يوصـــلان إلـــى الطابق العلوي.. وفي نهاية الممرّ باحة الخان الواسعة. وهي مبلطة بالحجارة. وكانت مغطّاة بقبتين تقومان على أربعة أقواس.

ويضـــم الخان (46) مخزناً وغرفة.. وقد أخلي الخان مؤخراً، ليصار إلى ترميمه على غرار خان أسعد باشا. ومن ثم لتوظيفه بشكل مناسب.

خان جقمق:

يقـــوم علـــى الطـــرف الآخـــر مـــن سوق مدحت باشا، وهو من العصر المملوكـــي، أنشـــأه سيف الدين جقمق نائب السلطنة المملوكي سنة (824هـــ)، وفـــي مدخله أقدم بوابة مشرّعة مزخرفة لخانات دمشق، ويقود هذا المدخل إلى باحـــة مستطيلة يحيط بها ثمانية عشر مخزناً وإيوانان. وقد أعيد ترميم الطابق العلـــوي بعـــد حريق أصابه. ويعلو المدخل قوس عليه زخارف وتتوسطه نافذة للحارس، ويشغل الخان حالياً متاجر الجوخ والأقمشة والخيوط.

خان الصدرانية:

أطلق عليه هذا الاسم لموقعه في صدر سوق البزوريّة من الناحية الشمالية عـــند مفترق طريق يوصل شرقاً إلى قصر العظم، حيث متحف التقاليد الشعبية

السورية. وغرباً فشمالاً إلى سوق الصاغة القديم وجامع الأموي.

وقد أتى بناء هذا الخان محكوماً بموقعه والمساحة المحدودة التي أنشئ عليها، بسبب انحصاره على مفترق طرق ضيق مزدحم. وتبدو في هذا الخان المهارة في إيجاد حلول هندسيّة مكّنت من الإفادة من كل شبر من المساحة العامة.

يبدأ الخان برواق تعلوه ثلاث قباب متوالية. يلي ذلك باحة متطاولة يحيط بها رواق مقبّب وعدد من المخازن. وما زالت هذه المخازن تحتفظ بأبوابها الخشبية ونوافذها الحجرية. وفي الطابق العلوي، عدد من الغرف المطلّة على الباحة عبر نوافذها..

ومن الخانات التي بداخل دمشق: خان التّتن، وخان العمود، وخان الزيت، وخان الخياطين. لكن أهم هذه الخانات وأكبرها وأجملها في بلاد المشرق هو خان أسعد باشا العظم والي دمشق وأمير الحج الشامي.

خان أسعد باشا:

يُعدّ هذا الخان أهم خانات المشرق العربي، وأروع خانات مدينة دمشق بوجه خاص، من ناحية ضخامة البناء، وجمال التصميم، وفخامة المدخل، وتعدّد الأقسام.

بناه أسعد باشا العظم والي دمشق وأمير الحج فيها سنة (1756م) على مساحة تزيد على (2500م2).. فهو أكبر خانات دمشق مساحة، ويماثله في هذه المساحة خان الحرير.

يقع الخان في وسط سوق البزوريّة، غير بعيد عن قصر العظم، وقد حرص أسعد باشا، أن يأتي الخان، كأفضل وأميز وأبهى ما بُني في دمشق من الخانات، من ناحية الاتساع والهندسة والزخارف. فاشترى لذلك، سوق الدقّ وما حوله من الدكاكين ليزيد من مساحة الخان، ووظف للبناء إمكانات التقاليد الفنيّة للعمارة السوريّة، في صنعة البناء، وانتقاء المواضيع الزخرفية، ليأتي الخان آية من إبداعات العمارة السورية.. حتى أن لا مرتين عندما زار دمشق سنة (1833م) عدّ هذا الخان أجمل خانات المشرق.. وإن قبابه تذكر بفن عمارة، كنيسة القديس بطرس في روما، وإن واجهته توحي بفن عمارة البندقية في عصر النهضة.. لما كانت عليه من الإبداع والجمال والتناسق.

ومما يسترعي النظر فيه: جمال بابه ومقرنصاته والفستقيتين الدقيقتي الصنع على جانبي الباب.. وفي كل من جانبيّ المدخل، ثلاث سويرات (أعمدة) حجريّة مزيّنة بنقوش نباتية وهندسية.. وهي تحمل ثلاثة أقواس نصف دائرية من الحجر الأسود والوردي، وتحتضن هذه الأقواس غابة من المقرنصات، يعلوها نصف قبّة مضلّعة.. وفي أعلى كل طرف من المدخل نافذتان متناظرتان بكل منهما مقرنصات تحتها محراب صغير. أما الباب فضخم، وهو بمصراعين، وتزينه زخارف دقيقة، ويحوي أحد مصراعيه باب صغير (خوخة).

وينفتح هذا الباب أمام الداخل على دهليز غير طويل، فيستوقفه على اليمين واليسار السلّمان الحجريان اللذان يوصلان إلى الطابق العلوي، وهذا الدهليز منقوش بأشكال نجوم وأزاهير.

وفي نهاية الممر (الدهليز) تواجهنا ساحة كبرى مساحتها (725م2)، في وسطها بركة ماء كبيرة. وفوق البركة قبّة عظيمة شاهقة ترتفع إلى نحو عشرين متراً، وهي قائمة على أربعة عضائد ضخمة، فتشكل هذه القبّة عقد الوسط بين قباب الخان التسع.

ولكل قبّة من هذه القباب (16) نافذة مزجّجة بزجاج ملون، كما تنتهي كل قبة بقفّاعة (منور) ذات عشرة أضلاع، في كل ضلع منها نافذة مستطيلة، وكل قفاعة مغطّاة بسقف هرمي.

والقباب التسع موزعة على ثلاثة صفوف، وهي محمولة على (24) عقداً حجرياً، تستند على العضائد الأربع التي تحمل القبّة المركزية الكبرى، التي فوق البحرة من جهة، كما تستند من جهة ثانية، على جدران الخان المحيطة بالصحن. لكن زلزالاً أصاب دمشق سنة (1760م) أتى على سقف الخان، فهدم ثلاثاً من القباب، فرممت قبتان منها، ولم يتناول الترميم القبّة المركزية التي فوق البحرة.

أما جدران الخان، فيقوم كل منها على ثلاثة أقواس، يعلو كل قوس شُرفة محاطة بدرابزين خشبيّة تأخذ أشكالاً هندسية. فيكون مجموع الشُرف(12) شرفة تطلّ على باحة الخان من الطابق العلوي، من الجهات الأربع.. وجميع بناء الخان من الحجر، على شكل مداميك متناوبة من الحجر الأسود والأبيض (المعروف بالأبلق).

وحول ساحة الخان، إحدى وعشرون حجرة لها مستودعات داخليّة، كانت

تستخدم مكاتب ودكاكين تجارية ومشاغل حرفية. وفي الطابق العلوي، خمس وأربعون غرفة مماثلة، ولجميع هذه الغرف أبواب خشبية منقوشة ونوافذ داخلية وخارجية.

وقد اتخذت أرجاء الخان إلى وقت قريب كمخازن للمواد التموينية لسوق البزورية، إلى أن استملكته المديرية العامة للآثار والمتاحف، وقامت بترميمه، على أمل توظيفه على نحوٍ مجدٍ.

3-الخانات التي بأطراف سور دمشق وأرباضها:

ونعني بذلك الخانات التي كانت خارج سور مدينة دمشق، وقد أطلق عليها تسمية خان جوازاً، إذ لا تتوفر فيها، المواصفات التي كانت عليها خانات الطرق، أو الخانات التي بداخل مدينة دمشق.. فهي أشبه بالإصطبل (البايكة) التي كانت تحتل جانباً من البيت الريفي (الحوش) والمعروفة باسم (الزريبة) لإيواء المواشي والأبقار والسوائم..

إلاّ أنّها ساعدت في تخفيف الضغط على خانات المدينة، كونها تختصّ بالوافدين القادمين إلى دمشق للعمل بالمياومة في مجال البناء والعتَالَة.

كما أنها كانت تستقبل القادمين إلى المدينة، من القرى والبلدات المحيطة بدمشق، حاملين معهم ما يرغبون ببيعه من مشتقات الألبان والبيض والحبوب والدجاج.. ومحاصيلهم الحقلية.. فيبيعون ذلك، ويضعون رواحلهم (دوابهم) في تلك الخانات، وينطلقون إلى الأسواق القريبة لقضاء حاجاتهم وشراء مستلزماتهم.. ثم يقفلون عائدين إلى قراهم، بعد أن يأخذوا رواحلهم من الخان.

وكان لتلك الخانات دور في تفعيل الحياة، في مناطق وجودها. فقد ترتب على وجود الخان، تواجد بيطار لمعالجة أمراض الدواب وتضميد جراحها، وحَدْوِها بنعال حديدية.

وكذلك وجود حدّاد لصنع تلك النعال، وإصلاح الأدوات الزراعية أو تصنيعها. كالمرّ والرفش، والقطفة والمنجل والمحفار، بل والسكة التي كانت تشكل المحراث التقليدي في أريافنا.

كما تطلّب وجود الخان، تواجد الجليلاتي، لصنع وإصلاح البرادع والسرج والحِياصَةْ واللّجام (الرسن)، والسيور الجلدية اللازمة لذلك. وكذلك الحال بالنسبة للعلاف والنجّار.

ومن جهة أخرى، فقد اتُّخذت هذه الخانات كمأوى للطارئين والأغراب من القرى المجاورة، يقضون فيها سواد عليهم، في مهجع كبير على حصر أو بسط لباد أو خرق، يفرش فوقها حشيات من الكتكت (سقط الألبسة والأقمشة البالية، تندف وتُحشى بها تلك الحشيات).. وتكون تلك المنامة لقاء أجور زهيدة، كانت في العقد الرابع من القرن العشرين بالقروش.

وبالطبع، فإن وجود مثل هذه الخانات ساعد على مبيت أولئك الذين أودعوا رواحلهم بالخان، ولم يتمكنوا من إنجاز قضاء حوائجهم بالمدينة.

وكان من هذه الخانات بحيّ الشاغور البراني، خان أبو حمو، الذي عُرف عنه أنه كان يُحصي روّاده كل ليلة بعصى طويلة، ليتأكد من تسديد الجميع أجر مبيتهم بالخان.. ومن تلك الخانات خان مخزوم بالقراونة.

الخانات إلى أين؟:

وبعد.. وقد كان لخانات مدينة دمشق هذا الدور في حياة المدينة وفعالياتها التجارية.. يحق لنا بعد التطور الذي أصاب حياة الناس ومعطيات حياتهم، وما أصاب التجارة المحلية والعالمية ومعاييرها، وبخاصة بعد ظهور الطائرة والسيارة والقطار ووسائط النقل البحري المتطورة.

بعد هذا كلّه.. يحق لنا أن نتساءل عن مصير خانات دمشق.. بعد تلاشي الدور الذي قامت من أجله، وانزواء هذه الخانات من حياة الناس، وبالتالي التقوقع في زوايا الإهمال. بعد أن كانت صروحاً عمرانية تشهد على العبقرية التي خلفت لنا هذه الصروح بالقياس إلى الأوابد الأخرى التي تحفل بها سورية من مساجد وحمامات ومدارس وبيمارستانات.. أليست خانات دمشق شيئاً من حياة دمشق؟..

وطالما الأمر كذلك، فيتوجب على الجهات المعنيّة، الحفاظ على أبنية الخانات وصيانتها وترميمها، ومنع استخدامها عشوائياً ينهي وجودها.. ويشمل ذلك إزالة ما تراكم على منظورها الخارجي، ومعالمها الداخلية، من ترسبات طمست جماليات هذه المعالم. فواجهة خان أسعد باشا لا يكاد يظهر منها سوى نتوءات مقرنصاتها، ويعلم الله أنها لم تقدم لها أيّ عملية إزالة لما تراكم عليها من غبار وبقايا منذ أمد طويل.. وكذلك فإن واجهة خان الحرير على جمالها لا يكاد المرء يميّز معالمها.

فضلاً عن هذا، لا بد من كشف مداخل هذه الخانات بإزالة الدكك والبسطات التي تخفي معالم هذه المداخل. وتطمس أبوابها..

وفي إطار توظيف الخان، لا بد من الحفاظ عن هيكل الخان، وتوظيفه توظيفاً يتناسب مع طبيعة البناء، ومع ما يتوافق وطبيعة المحيط والبيئة الموجود فيها. كما هي الحال في خان الجمرك.

ولعل من الضرورة بمكان أن يعمد إلى وضع مخطط للتوزيع الجغرافي لخانات دمشق مع ذكر نبذة تاريخية لكل منها، وذلك في إطار الأوابد الأخرى، المتواجدة في منطقة هذا المخطط، على أن يكون هذا المخطط بأكثر من لغة، وأن يكون في متناول الزوار والباحثين، لا أن يحفظ في أضابير وأرشيف المديرية العامة للآثار والمتاحف كما جرت العادة!!...

فالمنطقة المحيطة بالجامع الأمويّ، لها طابع ونسيج عمراني متميّز، وهي غنيّة بالأوابد ومن ذلك خان الحرير وخان التّتن وخان الصدراني وخان أسعد باشا وقصر العظم وحمام نور الدين.. فضلاً عن الأسواق التي تتميّز بطابع شرقي أخّاذ أليف إلى المرء.. وهي ذات جمالية فريدة.. ومن الضرورة بمكان الحفاظ على طابعها.. لأن إقامة أي بناء حديث أو أي تنظيم حديث لها.. يشوّه جمالية المنطقة، ويسلخها عن طابعها، ويشوّه نسيجها العمراني ويخلّ بدورها السياحي الذي يقصده الناس من أقاصي المعمورة. ولا قيمة إطلاقاً لتسجيل هذه الأوابد في عداد الأبنية الأثرية التي تتحدث عن الماضي وحسب.

❐

المصادر والأبحاث:

1-أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية، ت:أحمد عزت عبد الكريم القاهرة، 1959م.

2-أحمد محروقه: أسعد باشا العظم، حياته وعصره.. رسالة جامعية لنيل درجة الإجازة في التاريخ من الجامعة السورية لسنة، 1955م وهو بحث غير مطبوع.

3-سليم عادل عبد الحق بالاشتراك مع خالد معاذ: مشاهد دمشق الأثرية. مطبعة الترقي، دمشق: 1950م.

4-نعمان قساطلي: الروّضة الغنّاء في دمشق الفيحاء، بيروت: 1879م.

5-هيام طباع: خانات دمشق، رسالة جامعية لنيل درجة الإجازة في التاريخ من الجامعة السورية سنة، 1957م وهو بحث غير مطبوع.

6-يوسف عبد الهادي: الإعانات في معرفة الخانات، مخطوط نشره حبيب الزيات في مجلّة المشرق سنة: 1946م.

7-يوسف نعيسة: مجتمع مدينة دمشق ج(1) دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. ط(1) دمشق 1986م.

8-مجلة الحوليات الأثرية:

-تقرير اللجنة الدولية لليونسكو، المجلد (3) لسنة 1953م.

-جرد أثري لخانات دمشق المجلد (31) لسنة 1981م.

-خانات مدينة دمشق، د.عبد القادر الريحاوي المجلد(28) ج(1+2) لسنة 1975م.

9-sauvaget: les momment, Historequ de Damas. Beyruth. imprimeris, catho liquo 1932.

10- Volney: voyage en Syrie et en Egypte pendant les anneés 1783- 1784- 1785.

■■■

المحتوى

بين يدي الكتاب 9

الباب الأول : الأرض والإنسان 15

الفصل الأول: دمشق .. هبة بردى 17

شهادة ياقوت الحموي: 17

دمشق الشعر والمشاعر: 17

شيء من الشعر لدمشق: 18

شدو فيروز: 19

دمشق هبه بردى. 19

بردى العربيد: 19

السّيران الدمشقي: 20

الهرج والمرج في السيران: 20

من الحب ما قتل: 21

حكاية بردى مع دمشق: 21

فروع نهر بردى: 22

تقنيات اشتقاق الأقنية (الفروع): 22

1ـ قناة يزيد: 23

2 ـ قناة تورا: 23

3 ـ قناة المزّاوي: 24

4 ـ قناة الداراني: 24

5 ـ قناة قنوات: 24

6 ـ قناة بانياس: 25

كيف كانت تشرب دمشق: 26

1 ـ مأخذ المياه: 26

2 ـ القساطل: 26

3 ــ الطالع: 27
بناء الطالع: 27
موزّع الماء بالطالع: 28
ماذا بقي من مياه بردى...: 28
شبكة قنوات أخرى تتفرّع عن بردى: 28
1 ــ قناة العقرباني: 28
2 ــ قناة الداعياني: 29
3 ــ قناة المليحي: 29
عدّانات المياه في الغوطة: 29
ثبت المصادر والأبحاث: 30
الفصل الثاني: الغوطة.. رئة دمشق ونعيمها..... 31
عظمة الخلاق فيما خلق: 31
فردوس الفراديس: 32
صور يعجز عنها الوصف: 32
من الماء كل شيء حيّ: 41
إعجاب العرب بالغوطة: 41
متنزّهات الغوطة: 43
في الربوة: 44
أعراس الغوطة في الربيع: 44
ميس وهمس وغنج: 45
مرابع الطفولة: 45
دمشق والغوطة: 46
فاكهة الغوطة: 46
ومن فواكه الغوطة: التفاح والكمثرى (الأجاص) والدراق..... 46
مشمش الغوطة: 47
مشمش ماء الورد: 47
ابن البلد المدلّل: 48
الأرض والإنسان بالغوطة: 48
البستنة والدورة الزراعية: 48
امتداد الغوطة: 49
اغتيال الغوطة: 49

أيام زمان: 50
ثبت المصادر والأبحاث: 51
الفصل الثالث: الأنواء.. والزراعة في أمثالنا..... 53
ميراث التجريب والممارسة: 53
الزراعة في مقولات وكنايات: 53
1- فصل الخريف: 54
2- فصل الشتاء: 56
* المربعانيّة..... 56
*- الخمسينية: 66
3- فصل الربيع: 70
4- فصل الصيف: 72
* - المربعانيّة 73
*- الخمسينيّة: 74
المصادر: 76
الفصل الرابع: سور دمشق... أبراجها.. أبوابها شواهد خالدة على عراقة دمشق..... 77
أقدم المدن 77
1-سور مدينة دمشق:..... 77
أوّل الكلام.. دمشق الآراميّة:..... 78
سور دمشق أيام اليونان: 78
سور دمشق الروماني:..... 79
سبعة أبواب رومانية بسور دمشق:..... 79
خندق حول سور دمشق: 80
تحرير دمشق من البيزنطيين: 80
إهمال السور وتداعيه: 80
عودة الحياة إلى سور دمشق: 80
دور الدولة النوريّة والأيوبية: 80
بين السّورين: 81
2-أبراج سور دمشق: 81
برج نور الدين: 82
برج الملك الصالح أيوب: 82

3-أبواب دمشق: 82
قصة لكل باب: 83
أبواب دمشق في العهود الإسلامية 84
لكل باب مسجد: 84
ولكل باب باشورة: 84
عشرة أبواب لدمشق: 85
أبواب العهود الرومانية: 85
1-الباب الشرقي: 85
2-باب الجابية: 86
3-باب توما: 86
4-باب الفراديس: 87
5-الباب الصغير: 88
البابان الإسلاميان بسور دمشق: 88
1-باب الفرج: 88
2-باب السلامة: 89
أبواب دمشق الدارسة: 89
1-باب كيسان 89
2-باب الجنيق: 91
3-باب النصر: 91
المصادر والأبحاث: 91
الفصل الخامس: أسواق دمشق حياة تتجدّد.. ومعين عطاء لا ينضب!!..
..... 93
توضّع أسواق دمشق: 93
ارتباط الأسواق بالحرف: 93
مشيخة الكارات: 94
سوق لكل حرفة: 94
انحسار دور مشيخة الكارات: 95
تحرر أسواق دمشق عن الحرف: 95
1-سوق الحميدية: 95
الأسواق المتفرعة عن شمالي سوق الحميدية
..... 96
سوق العصرونية: 96

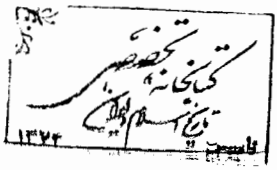

سوق البورص:..... 97
سوق نصري: 97
سوق باب البريد: 97
الأسواق المتفرّعة عن جنوبي سوق الجميدية:..... 97
سوق الأروام: 97
سوق الحرير:..... 97
سوق الخياطين: 98
2-سوق مدحت باشا: 98
3-سوق البزورية: 99
4-أسواق جديدة:..... 100
المصادر والأبحاث:..... 101
الباب الثاني : الجامع الأموي 105
الفصل السادس: بنـــاء الأمـــوي 105
زيارة الأموي:..... 105
آية فن العمارة: 105
أرض الأموي: 105
عروبة البناء: 106
مفخرة دمشق: 106
قواعد الأموي..... 107
أقسام الأموي: 107
1-حرم الأموي: 108
قبّة النسر: 108
محاريب الحرم: 109
مقاصير الحرم:..... 109
سقف الحرم: 109
سطح الحرم:..... 110
حرم الأموي في أيامنا: 110
2-صحن الأموي 111
بلاط الصحن:..... 111
قباب الصحن: 112

الأروقة:..... 121
الواجهة الجنوبية للصحن:..... 122
3-مآذن الأموي..... 122
1-مئذنة العروس:..... 122
2-المئذنة الشرقيّة 123
3-المئذنة الغربية:..... 123
4-المشاهد والزوايا وملحقاتها: 124
أبواب الجامع الأموي: 125
1-الباب الجنوبي 125
2-الباب الشرقي:..... 126
3-الباب الغربي: 127
4-الباب الشمالي:..... 127
الفصل السابع : كسوة الأموي وزخارفه!!... 129
سخاء الوليد بن عبد الملك: 129
رخاميّات الأموي. 129
فسيفساء الجامع الأموي..... 130
شهادة ابن جبير: 132
البقيّة الباقية من إرث الفسيفساء:..... 133
عروبة الفسيفساء:..... 133
نكبات الفسيفساء:..... 134
محاولات الترميم:..... 135
الفصل الثامن: الأموي... والنّاس!!..... 153
مهامّ الأموي: 153
ما أشبه اليوم بالأمس: 154
الأموي والسلطة. 155
الوعظ والإرشاد:..... 155
الأموي وليل مساجد دمشق: 155
التراسل مع مساجد دمشق:..... 156
موسيقى وألحان المؤذنين:..... 156
لحن لفجر كل يوم: 156
آذان بقية الأوقات: 157

ألحان التراويح في شهر رمضان: 157
أداة ضبط مواعيد الأذان: 157
أوزان الترديد وراء الإمام: 158
إقامة الصلاة بالإمام الكبير: 158
مجلس الكوثرية لو السُّبُعْ: 159
تعليم الصغار: 159
المجاورون الدارسون: 159
المدرس تحت القبة: 160
انتشار حلقات التدريس إلى محيط الأموي: 161
ملتقى العلماء بالأموي: 161
الارتحال إلى جامع دمشق الأموي: 161
نظارة الجامع الأموي: 161
هل ستحدث بالأموي جامعة؟ 163
الفصل التاسع: كوارث الأموي ومآسيه.. 165
جرائم التتار والمغول: 165
الزلازل: 165
حرائق الأموي: 166
أعمال ترميم: 170
لفتة كريمة: 171
ثبت المصادر والأبحاث: 172
الباب الثالث: العمارة والبناء 175
الفصل العاشر: القصور الدمشقية: 177
قصور بني أمية: 177
قصور العهود الأخرى: 177
العهد العثماني: 178
المخطط العام للقصور: 178
قصر أسعد باشا العظم: 179
أعمال أسعد باشا العمرانية: 180
1- مواد بناء القصر: 180
شهادة أحمد البديري الحلاق: 180
2- مخطط القصر وأقسامه: 181

السلاملك: 182
الحرملك: 182
قاعة الاستقبال الكبرى: 183
3 ــ تزيين القصر: 184
1- أعمال الرخام..... 184
2- الخشب..... 193
الدهان العجمي: 193
دهان السقوف:..... 193
3 ــ زخارف الحجر: 194
متحف التقاليد الشعبية السورية:..... 195
استملاك القصر: 196
إقبال منقطع النظير:..... 196
زيارة المتحف: 197
الفصل الحادي عشر: الدور الدمشقية:..... 201
المشهد العام للدار الدمشقية: 201
نماذج من هذه الدور: 202
أقسام الدار الدمشقية: 202
المدخل: 203
الدهليز: 203
أرض الديار: 248
الإيوان: 203
بلاط أرض الديار: 205
الجدران:..... 205
الغرف والقاعات:..... 250
طزرات الغرف والقاعات:..... 205
السقوف: 206
براني وجواني بالدار الدمشقية:..... 207
البرّاني:..... 207
الجواني: 207
وبئر ماء أيضاً: 217

مستقبل الدور الدمشقية: 217
المصادر والأبحاث: 218
الفصل الثاني عشر: حمامات دمشق مأثرة حضارة وتراث 219
الحمامات عبر العصور 219
الحمامات الرومانية: 219
حمامات العصور الإسلامية: 220
حمامات دمشق: 221
أقسام الحمام: 222
1-البراني: 222
2-الوسطاني: 224
3-الجواني: 226
4- الإقميم: 227
أدبيات الحمامات: 228
العاملون في الحمام: 229
الحياة الاجتماعية في الحمام: 230
استحمام الرجال: 230
استحمام النساء: 231
استقبال المعلمة والناطورة: 231
طعام حمام النساء: 291
مناسبات استحمام النساء: 232
الخطبة في حمام النساء: 241
حمامات دمشق.. إلى أين: 242
مقترحات وحلول: 242
المصادر والأبحاث: 243
الفصل الثالث عشر: خانات دمشق.. معلم تاريخ إرث حضاري!! 245
منازل وتسميات: 245
بناء الخانات: 245
نسبة الخان: 246
خانات القهوة: 246
خانات الخواطي وبنات الهوى: 247
تصنيف الخانات: 247

1-خانات الطرق: 248
خانات الطرق عبر التاريخ: 248
اكتشاف طريق الهند البحري: 249
خانات الطرق في العهد العثماني: 249
خان القطيفة: 250
الخانات التي بداخل مدينة دمشق: 251
توزيعها الجغرافي: 251
خان الجمرك: 252
خان الحرير: 252
خان الحماصنة: 253
خان جقمق: 253
خان الصدراني: 253
خان أسعد باشا: 254
3-الخانات التي بأطراف سور دمشق وأرباضها: 256
الخانات إلى أين؟: 257
المصادر والأبحاث: 258
المحتوى 261

■■■

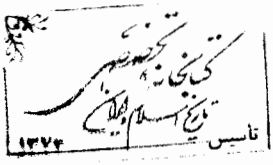

للمؤلف

المطبوعات:

* فنون وصناعات دمشقية. وزارة الثقافة، دمشق 1958
* الحمامات الدمشقية ط(2). مطبعة ابن خلدون، دمشق 1985
* يا شام، في التراث الشعبي الدمشقي، مطبعة ابن خلدون، دمشق 1984
* رمضان في الشام أيام زمان ط(2)، مكتبة النوري: دمشق 1992
* حكايات دمشقية، في الأدب الشعبي، دمشق 1987
* معجم درر الكلام في أمثال أهل الشام، مكتبة لبنان، بيروت 1993
* معجم بابات مسرح الظل، مكتبة لبنان: بيروت 1995
* المرأة في المثل الشعبي الشامي، مطبعة طربين دمشق 2002
* دمشق ياسمينة التاريخ دمشق 2004.
* جغرافيّة الوطن العربي، بالاشتراك، وزارة التربية، دمشق 1968
* بترول العرب وقومية المعركة، دار الحياة دمشق 1973

معدّ للطباعة:

الحج الشامي إلى بيت الله الحرام.

مآثر شامية في الفنون والصناعات الدمشقية.

جزيرة أرواد. تاريخها وتراثها الشعبي، بالإشتراك..

❑❑